الهدية السعدية
شرح الأربعين النووية

تأليف

الدكتور محمد السعد فرهود

الجزء الأول

الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م - مطبعة زهران
الطبعة الثانية ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م - مطبعة حجازى
(كلية اللغة العربية بالقاهرة)



الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م
مزيدة ومنقحة
(كلية اللغة العربية بالمنصورة)

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ۞ الرحمن الرحيم ۞ مالك يوم الدين ۞ إياك نعبد وإياك نستعين ۞ اهدنا الصراط المستقيم ۞ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

۞ ۞ ۞

فى سنة ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م نشرت كتابى (فى رحاب الهدى النبوى) ، واخترت له مجموعة من أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — شرحتها بأسلوب جديد ، ثم أتبعته بنشر كتابى (التعريف بالحديث الشريف) ، قلت فيه كلمة فى معنى الحديث وأبعاده الدينية وروايته وأشهر رواته وتدوينه ومصطلحاته وأئمته ، وعرضت آفاقه وموضوعاته ، وألقيت الضوء على عدد من هذه الموضوعات يشارك مشاركة بناءة وفعالة فى رشاد أمتنا المسلمة وهداها إلى سواء السبيل .

وأحسست إثر نشر الكتابين بالطمأنينة ، لأنى شعرت بأنى أديت واجبا تفرضه زكاة العلم ، وأدركت أن على واجبا أن أؤدى هذه الزكاة بانتظام ، وحدثت فى هذا والدى ، فاستبشر ، ووجهنى إلى الأحاديث الأربعين النووية التى اختارها من كتب الحديث ـ الإمام يحيى بن شرف الدين النووى ، المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، وطلب والدى إلى أن أشرحها ، وأجلو مراميها ، وأكشف مقاصدها ، ونبهنى إلى أنها تجمع القول فى أصول الدين وفروعه ، وتتناول علاقة الإنسان بربه ، وبمجتمعه ، وبدنياه وبآخرته ، وتقيم قواعد السلوك والآداب الإسلامية .

ووافق توجيهه وتنبيهه هوى فى نفسى ، فاستعنت الله - سبحانه وتعالى - ورجوت منه التوفيق والسداد ، وسألته أن يجعل عملى فى شرح هـــذه الأحاديث خالصا لوجهه الكريم ، وتمنيت أن أقيم به قدر لبنة متواضعة فى صرح علوم الدين، ووددت أن يقبله الله — جلت قدرته — زكاة ، وأن يجعله طهرة ، وأن يعم به النفع .

وخير من أهديه هذا العمل هو والدى — الشيخ عوض محمد فرهود — فقد عاش للعلم قارئا ومعلما ومرشداً ، وتخرجت على يديه ، وتخرج على يديه جيل من الأساتذة والمثقفين فى العقد الثانى والثالث والرابع من هذا القرن العشرين ، ولما هجر التعليم لمعاشه استمر اطلاعه فى علوم الدين والدنيا ، حتى غبطته - ومازلت أغبطه(١) - على اتساع مقروئه ، واصطباره على الكتاب ، وشغفه بالمناقشة فيه ، ومراجعة دقائقه . ومن أجل هذا سميت عملى (الهدية السعدية - شرح الأربعين النووية) .

وليست هذه الأحاديث أربعين بالتمام ، بل هى اثنان وأربعون (وربما عددتها ثلاثة وأربعين أو أربعة وأربعين إذا راجعت الحديث التاسع عشر والحديث السابع والعشرين) ، لأن العدد - كما قالوا - لامفهوم له إلا إفادة التكثير ، ولأن مفهوم العدد لا يفيد حصراً على الصحيح ، ولأن ذكر القليل لاينفى الكثير ، وربما كان الإمام النووى اتجه إلى الأربعين حديثاً ، فلما فرغ منها رأى أن يضيف حديثين ، كلاهما يشكل قاعدة عظيمة فى السلوك الدينى ، والأول منهما قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ، والقاعدة التى يشكلها هذا الحديث هى التسليم لله وللرسول . والحديث الآخر حديث قدسى يرويه الرسول الكريم عن رب العزة : « قال الله تعالى - يابن آدم ، إنك مادعوتنى

---

(١) توفى فى السادس من ربيع الآخر ١٣٩٢ هـ — ١٩ من مايو ١٩٧٢ م عن ٧٦ عاماً .

ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى . يابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك يابن آدم ، إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » ، وهو حديث يفتح لابن آدم باب الرجاء والتوبة والاستغفار والإنابة . وهو باب لايغلق أبداً ، وإنما فيه فاتحة النجاة وخاتمتها .

وسأبدأ ـ بمعونة من الله ـ بالتعريف بالإمام النووى صاحب الأحاديث الأربعين المختارة ، وأعرض الديباجة التى قدم بها هذه الأحاديث، ثم أتناول بالشرح الأحاديث نفسها حديثاً حديثا ، ملخصاً القول فى راويه، ولغته ، ونحوه ، وبلاغته ، باعتبارها القاعدة الأولى لفهمه ، وموجزا فكرته ، ثم موضحا إياه ومبينا عنه ، بما يجلو قضاياه ، ويكشف أهدافه ، ويعرض مراميه وأغراضه ، ويبسط أحكامه .

ولست أدعى أنى أنشىء علما جديداً ، فقد سبقنى إلى شرح هذه الأحاديث الأربعين الشارحون ، ومنهم الإمام النووى نفسه ، ومنهم الشيخ الهيثمى ، والشيخ الشبرخيتى ، والشيخ السحيمى ، والشيخ الفشنى ، والشيخ الشبشيرى، والشيخ الشرنوبى، والشيخ النهراوى، والشيخ الجردانى — رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة ـ ومنهم جميعاً استقيت، بيد أنى لم آخذ آراءهم أخذا، بل انتقيت منها ما اطمأننت إليه ، فلهم منى الدعاء الخالص أن يجزيهم الله — تعالى — عنى خير الجزاء .

وعلى الله توكلت ، وإليه أنيب .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان ، إلى يوم الدين .

محمد السعدى عوض فرهود

القاهرة { غرة المحرم سنة ١٣٩١ هـ
٢٦ من فبراير سنة ١٩٧١ م

الإمام النووى

هو الإمام محيي الدين ، يحيى بن شرف بن مرى ، النووى ، الدمشقى .

ولد فى المحرم سنة ٦٣١ فى (نوى) - من أعمال دمشق - وإليهما نسب ؛ نسب إلى نوى لأنها مكان ولادته ونشأته وموطنه وموطن أسرته ، وبها حفظ القرآن الكريم ، وتعلم مبادىء العلم . ونسب إلى دمشق لأنه ارتحل إليها وهو فى سن التاسعة عشرة (سنة ٦٤٩ هـ) وأقام فيها نحواً من ثمانية وعشرين عاما ، كان فى أولها يطلب العلم فى المدرسة الرواحية ، وفى أثناء إقامته فى دمشق ارتحــل إلى الحجاز للحج ، وزيارة مسجد الرسول — صلى الله عليه وسلم — سنة ٦٥١ هـ ، وعاد من حجه وزيارته نشيطا ، راغباً فى العلم ، راغباً عن الدنيا ، فانصرف إلى أشياخ وقته ، يسمع منهم ، ويحفظ عنهم حتى تخرج ، وشهدوا له . وبعدها استقل بالنظر والفهم حتى صار من أعلام المرموقين فى علوم الحديث ، وفى فقه الشافعية .

وفى سنة ٦٦٥ هـ اختير لتولى مشيخة دار الحديث من دون علماء دمشق وفيهم من هو أسن منه ، واستمر فى هذه المشيخة حتى توفى سنة ٦٧٦ هـ ، ودفن فى (نوى) ، ومزاره فيها معروف ومقصود .

أمضى الإمام النووى عمره مشتغلا بالتأليف والتصنيف والتعليم .

ومن مؤلفاته : شرحه لصحيح مسلم ، وهو شرح متوسط ، تناول فيه مسائل كثيرة فى اللغة ، والأحكام والآداب ، وضبط أسماء الرواة ، والتوفيق بين ماظاهره التعارض من الأحاديث والآثار ، وذكر أدلة الأقوال والمذاهب . ولهذا الشرح مقدمة مبسوطة ، تناول فيها فضل علوم الحديث ، وطريقته فى شرح صحيح مسلم ، وروايته التى وصل بها إليه ، وفضله هو

وصحيح البخارى ، والقول فى أصول الرواية ، وعناية مسلم بضبط اختلاف الرواة ، وتقسيمه الأحاديث ، وبيان أنواعها ، والناسخ منها والمنسوخ ، وضبط الأسماء المنكررة ،وغير ذلك .

وللنووى غير هذا الشرح القيم مصنفات أخر :

رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين — الأذكار — الايضاح فى مناسك الحج — بستان العارفين — الإرشاد فى علوم الحديث — التقريب والمبهمات — العمدة فى تصحيح التنبيه — التبيان فى آداب حملة القرآن — المنهاج — الروضة — طبقات الفقهاء — مناقب الشافعى — خلاصة الأحكام — تهذيب الأسماء واللغات — الأربعون .

قالوا : وقد كان النووى فى صغره جاداً ، عزوفاً عن اللعب مع أقرانه ، منصرفاً إلى حفظ القرآن الكريم ، وكان فى كبره عفاً عما فى أيدى الناس ، قانعاً بما تجرى المدرسة الرواحية على أمثاله من الخبز والأدم ، زاهداً فى راتب المشيخة ، مقيماً على العيش الخشن ، مكتفياً بما يأتيه من قبل أبيه الذى كان يعمل فى التجارة .

نفع الله بعلمه ، ورزقنا مسلكه

ديباجة الأربعين النووية *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، قيوم السموات والأرضين مدبر الخلائق أجمعين باعث الرسل - صلواته وسلامه عليهم - إلى المكلفين ؛ لهدايتهم ، وبيان شرائع الدين ؛ بالدلائل القطعية ، وواضحات البراهين .

(*) أعددت لهذه الديباجة شرحاً مبسوطاً ، سأنشره فى فرصة أخرى إن شاء الله

أحمده على جميع نعمه ، وأسأله المزيد من فضله وكرمه ، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله أفضل المخلوقين ، المكرم بالقرآن العزيز ، المعجزة المستمرة على تعاقب السنين ، وبالسنن المستنيرة للمسترشدين ، المخصوص بجوامع الكلم وسماحة الدين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين ، وآل كل وسائر الصالحين .

أما بعد : فقد روينا عن على بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ ابن جبل ، وأبى الدرداء ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى - رضى الله عنهم - من طرق كثيرات ، بروايات متنوعات أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من حفظ على أمتى أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فى زمرة الفقهاء والعلماء » ، وفى رواية : « بعثه الله فقيهاً عالماً » ، وفى رواية أبى الدرداء : « وكنت له يوم القيامة شافعاً وشهيداً » ، وفى رواية ابن مسعود : « قيل له ادخل من أى أبواب الجنة شئت » ، وفى رواية ابن عمر : « كتب فى زمرة العلماء وحشر فى زمرة الشهداء » ، واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف ، وإن كثرت طرقه .

وقد صنف العلماء — رضى الله عنهم — فى هذا الباب مالا يحصى من المصنفات ، فأول من علمته صنف فيه عبد الله بن المبارك ، ثم محمد ابن أسلم الطوسى العالم الربانى ، ثم الحسن بن سفيان النسوى ، وأبو بكر الآجرى ، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الأصفهانى ، والدارقطنى ، والحاكم ، وأبو نعيم ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وابو سعد المالينى ، وأبو عثمان الصابونى ومحمد بن عبد الله الأنصارى ، وأبو بكر البيهقى ، وخلائق لا يحصون من المتقدمين والمتأخرين .

وقد استخرت الله - تعالى - فى جمع أربعين حديثا ، اقتداء بهؤلاء الأئمة

الأعلام وحفاظ الإسلام ، وقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف فى فضائل الأعمال . ومع هذا فليس اعتمادى على هذا الحديث ، بل على قوله - صلى الله عليه وسلم - فى الأحاديث الصحيحة : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب »، وقوله - صلى الله عليه وسلم - نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها » .

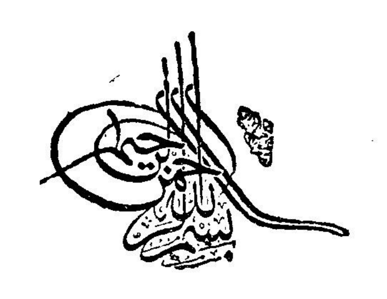
ثم من العلماء من جمع الأربعين فى أصول الدين ، وبعضهم فى الفروع، وبعضهم فى الجهاد، وبعضهم فى الزهد، وبعضهم فى الآداب، وبعضهم فى الخطب، وكلها مقاصد صالحة ، رضى الله عن قاصديها .

وقد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله ، وهى أربعون حديثاً مشتملة على جميع ذلك ، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين ، قد وصفه العلماء بأن مدار الإسلام عليه ، أو هو نصف الإسلام ، أو ثلثه، أو نحو ذلك

ثم ألتزم فى هذه الأربعين أن تكون صحيحة ، ومعظمها فى صحيحى البخارى ومسلم ، وأذكرها محذوفة الأسانيد ، ليسهل حفظها، ويعم الانتفاع بها إن شاء الله تعالى ، ثم أتبعها بباب فى ضبط خفى ألفاظها .

وينبغى لكل راغب فى الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث لما اشتملت عليه من المهمات ، واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات، وذلك ظاهر لمن تدبره .

وعلى الله اعتمادى ، وإليه تفويضى واستنادى ، وله الحمد والنعمة ، وبه التوفيق والعصمة .



الحديث الأول

الأعمال بالنيات

عَنْ أمير المُؤمنين أبي حفص عُمرَ بْن الخطاب رَضِيَ اللهُ تعالى عنهُ قالَ : سمعتُ رَسُولَ الله - صلىّ اللهُ تعالى عليه وَعلى آله وسلّم - يقولُ : « إنّما الأعمال بالنيّاتِ ، وإنّما لكلّ امْرِئٍ مَانوَى ، فمَن كانت هجرته إلى اللهِ ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانتْ هجرته لدُنْيا يُصيبُها أو امرأة يَنْكحُها فهجْرته إلى ما هاجرَ إليه » .

رَوَاهُ إمَامَا المحدثين أبو عبد الله مُحمدُ بنُ إسماعيل بن إبراهيم ابن المُغيرة بن بَرْدِزْبَه البُخاريُّ الجُعفي ، وأبو الحسين مُسلِم بن الحجّاج ابن مُسلم القُشيريُّ النيسابُوري في صحيحيهما اللذين هُمَا أصحُّ الكُتبِ المُصنفةِ .

راوى الحديث :

هو سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ثانى الخلفاء الراشدين .
وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط ابن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى، وفى كعب بن لؤى هذا يجتمع نسبه مع نسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ، وفى قول : بنت هشام بن المغيرة، فعلى الأول تكون ابنة عم أبى جهل عمرو ابن هشام بن المغيرة وعلى الثانى تكون أخته .

ولد سيدنا عمر بعد مولد الرسول ـ وبعد عام الفيل ـ بثلاثة عشر عاماً، وشب شريفاً من أشراف قريش، وأسلم فى السنة الخامسة ـ وقيل السادسة ـ من النبوة. وسبقه إلى الإسلام من الرجال تسعة وثلاثون ـ وقيل أربعون وقيل خمسة وأربعون ـ ومن النساء عشر وقيل إحدى عشرة ، ويذكرون فى قصة اسلامه أنه عوتب فى شأن أخته وزوجها سعيد بن زيد (١) كيف يصبآن عن دين الآباء والأجداد فذهب إلى دارهما غاضباً ليؤدبهما. وطرق الباب عليهما وهو يسمع من الداخل أصواتاً لم يتبينها ، وكانا يقرآن القرآن مع خباب بن الأرت ، فلما انفتح الباب أصر عمر على أن يعرف ماذا كانوا يفعلون ولم يزل بهم حتى أعطوه رقعة فيها آيات من سورة طه ـ وقيل سورة الحديد ـ فجعل يقرأ فيها وتهدأ نفسه ، وتسكن جوارحه ويخشع قلبه، ويرق لأخته ولزوجها . ويروعه الكلام الذى يقرؤه ، ثم جاء الرسول فى دار عند « الصفا » كان يبث فيها الدعوة على استخفاء، وأظهر عمر إسلامه، وخرج بعد هذا إلى مجتمع قريش يعلن إسلامه ، ثم شجع الرسول على الجهر بالدعوة.

---

(١) وسعيد أحد العشرة المبشرين بالجنة .

لقبه الرسول — صلى الله عليه وسلم — بالفاروق ، لأن الله جعل الحق على لسانه ، فهو ينتصر له ، ويفرق بذلك بين الحق والباطل . وكناه الرسول (أبا حفص) ، والحفص هو الأسد ، لما رأى من شدته وقوة بأسه .

وأصهر إليه الرسول بالزواج من ابنته السيدة حفصة — رضى الله عنها — وشهد مع الرسول المشاهد كلها .

وتولى عمر الخلافة بعد وفاة أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — وتسمى بأمير المؤمنين ، وهو أول من تسمى به ، قيل : لأنه خطب الناس يوما فكان مما قال : « أنتم المؤمنون ، وأنا أميركم ، وقيل : سماه به عدى ابن حاتم ولبيد بن ربيعة حين وفدا عليه من العراق ، وقيل : سماه به المغيرة ابن شعبة .

وتوفى عمر مقتولا فى السنه الثالثة والعشرين من الهجرة : عن ثلاث وستين سنة . طعنه أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة ، وكان عبدا مجوسيا من سبى نهاوند ، فرض عليه المغيرة درهمين فى اليوم(١) ، فشكاه الغلام إلى عمر ، فسأله عن صناعته . فقال : نحاس حداد نقاش . قال عمر : ما أرى ما فرضه عليك كثيرا ، فاضطغن العبد عليه ، وتربص به قبيل صلاة الفجر ، وطعنه طعنات قاتلة ، ولا يعلم الغلام أن سيده تلقى من عمر رسالة يطلب فيها التخفيف عنه .

واشتهر عمر — رضى الله عنه — بالقوة ، والشجاعة ، والحزم ، والعدالة ، والنزاهة ، ورجاحة العقل ، وسداد الرأى ، وسلامة القصد ، وجهارة الصوت ،

---

(١) وقيل أربعة دراهم .

وحسن البيان . وتعتبر سيرته فى الخلافة - التى امتدت عشرة أعوام ونصف العام - أنموذجا فى كثير من الأمور ، ومنها :

١ - الإصرار على إحقاق الحق وإبطال الباطل ونشر العدالة والتسوية بين الرعية .

٢ - محاسبة الولاة ، ومراقبة تصرفاتهم وسلوكهم وأموالهم .

٣ - الاستشارة ، وطلب رأى العامة ورأى الخاصة .

٤ - تمصير الأمصار .

٥ - تدوين الدواوين .

٦ - وضع الخراج على الأرض .

٧ - التأريخ بسنة الهجرة النبوية الشريفة .

قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - فى سيدنا عمر : (كان إسلامه فتحا ، وهجرته نصرا ، وإمارته رحمة) . وكلمة ابن مسعود هذه على اختصارها هى(١) : أدق وصف يختصر حياة عمر منذ أسلم إلى أن توفى ، فقد كان إسلامه فتحا حقا ، لأنه أتاح للمسلمين أن يعلنوا دينهم ، وأن يصلوا أمام الملأ من قريش وهم آمنون ، وكانت هجرته نصرا ، فقد كان أنصح أعوان النبى فى المدينة لله ولرسوله وللمسلمين ، وأغلظ أصحاب النبى على اليهود والمنافقين ، وكانت إمارته رحمة ، فقد أتاح للمسلمين فى أثناء خلافته لونا من الحياة ، ما زالت الأمم المتحضرة الآن فى الغرب مقصرة عن بلوغه على شدة ماتجتهد فى سبيله ، وما زال المسلمون فى أيامنا يرون هذا اللون من الحياة التى أتاحها عمر للناس حلما ، ولا يدرون متى يصبح حقيقة ، على ما أتيح لهم وما يتاح لهم فى

---

(١) طه حسين : الشيخان ، ص ١١٩ - الطبعة الرابعة - دار المعارف بمصر - ١٩٦٩ م .

كل يوم من الوسائل التى تعينهم على تيسير الحياة ، ولم يكن عمر يملك من هذه الوسائل شيئاً .

وروى لعمر — رضى الله عنه — أكثر من خمسمائة حديث ، أشهرها هذا الحديث .

شــذور لغوية :

إنما : إن المؤكدة وما الكافة . اقترنتا لإفادة الحصر ، وهو إثبات الحكم المذكور بعدها ونفيه عما عداه .

الأعمال : جمع عمل ، والعمل حركة البدن وجوارحه ، وعلى هذا يكون النطق عملا لأنه عمل اللسان .

بالنيات : الباء للمصاحبة أو الاستعانة أو السببية . والنيات : جمع نية ، وهى فى الأصل مصدر (نوى) على وزن فعلة ، اجتمعت الواو والياء ، وسبقت الأولى بالسكون ، فقلبت ياء ، وأدغمت الياءان . والنية فى اللغة القصد مطلقاً ، وفى الشرع قصد الشىء مقترنا بفعله امتثالا وخضوعا لله — سبحانه وتعالى — و (ال) فى النيات بدل من الضمير المحذوف وتقدير الكلام (إنما الأعمال بنياتها) . وجمعت النية مع أنها فى الأصل مصدر الإشارة إلى أنها تتنوع ، والمصدر إذا تنوع جمع ، مثل جمع علم على علوم وبحث على بحوث .

كل امرىء : كل اسم موضوع لاستغراق ما بعده ، فإن كان ما بعده نكرة استغرق أفرادها ، وإن كان معرفة استغرق أجزاءها ، مثال الأول : « كل امرىء » و « كل نفس ذائقة الموت » ، ومثال الثانى : قرأت كل الكتاب ، واستوعبت كل الدرس .

وامرؤ ، لفظ يطلق أصلا على الرجل كالمرء ، والأنثى من الأول

امرأة ومن الثانى مرأة . هذا وتدور عين امرىء مع لامه بحسب إعرابه.
والمقصود من (امرىء) فى الحديث الرجل بدعوى غلبة دوران الأحكام
عليه ، وقيل : المقصود منه مطلق الإنسان بدليل استعمال (من) بعده وهى
دالة على العموم .

هجرته: أى انتقاله ، والهجرة فى الأصل اسم من الهجر ، والهجر فى اللغة الترك ،
ويطلق على ترك الوطن إلى غيره ، وعلى ما عدا هذا من الترك : فمن الأول
هجرة المسلمين من دار الخوف إلى دار الأمن عندما تركوا مكة إلى الحبشة فى
السنة الخامسة من البعثة فراراً من أذى المشركين ، وهجرتهم إلى المدينة قبل
أن يهاجر الرسول ﷺ ، أما بعد هجرته الشريفة فكانت هجرة المسلمين إلى
المدينة تمثل وجهاً آخر من ترك الوطن وهو الخروج من دار الكفر إلى دار
الإسلام ، وقد استمرت هذه الهجرة مفتوحة للناس حتى فتح مكة إذ قال
الرسول : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية »(١) ، ومن النوع الثانى
أى من ترك ما عدا الوطن : هجر المسلم أخاه ، وهو جائز على كراهة فى ثلاثة
الأيام الأولى من الخصام وحرام فيما زاد على ذلك إلا لضرورة لقوله ﷺ :
« لا يحل لامرىء أن يهجر أخاه فوق ثلاث ؛ يعرض هذا ويعرض هذا ،
وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » . ومنه هجر الزوج زوجته إذا تحقق من
نشوزها ، قال ـ تعالى ـ : « واهجروهن فى المضاجع » ، ومنه هجر المعاصى »
وكلاهما واجب ومتعين .

دنيا : فعلى بضم الفاء أو بكسرها من الدنو ، وهى فى الأصل وصف
للمؤنث ومذكرها أدنى ، أخليت من الوصفية وإن احتفظت بالمنع من الصرف ،
وأجريت مجرى الأسماء وأريد بها هذه الدار التى نعيش فيها . وقالوا : إنها

---

(١) قيل : معنى هذا أنه لا هجرة كاملة الفضل بعد الفتح . وقيل : المعنى
لا هجرة من مكة لأنها صارت دار إسلام .

ما على وجه الأرض من الهواء والجو . وقالوا : إنها كل المخلوقات من الجواهر والأعراض الموجودة قبل الدار الآخرة . وتستعمل معرفة بال ومنكرة ، ومن استعمالها منكرة قول الفرزدق :

لا تعجبنك دنيا أنت تاركها   كم نالها من أناسى وقد ذهبوا

مسائل نحوية :

سمعت رسول الله يقول : الجمهور يرى أن (سمع) يتعدى إلى مفعول واحد هو هنا (رسول الله) وعلى هذا تكون جملة (يقول) من الفعل والفاعل فى محل الحال المبينة من المفعول به . ويرى الفارسى أن سمع يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان هذا المفعول مسموعا مثل : سمعت القرآن ، وسمعت الحديث ، وسمعت الخبر ، ويتعدى إلى مفعولين كما فى الحديث ، وعلى هذا تقع جملة (يقول) فى محل المفعول الثانى .

إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى : إن المؤكدة كفتها (ما) عن العمل . والأعمال بالنيات : مبتدأ وخبره . ولكل امرىء ما نوى : خبر ومبتدؤه . والخبران الكون العام المحذوف الذى يتعلق به الجار والمجرور فى الجملتين ، و (ما) من قوله (ما نوى) موصولة أو مصدرية ، والفعل صلتها فى كل حال ، وفى حالة الموصولة يقدر العائد محذوفا أى ما نواه ، وفى حالة المصدرية يكون التقدير : لكل امرىء نيته - أى جزاء نيته .

فمن كانت هجرته . . إلخ : قالوا : الفاء واقعة فى جواب شرط مقدر ، أى إذا ثبت أن لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته . . وجملتا (فهجرته إلى الله ورسوله) و (فهجرته إلى ما هاجر إليه) كلتاهما فى موقع جواب الشرط السابق عليه ، وبدئتا بالفاء لاسمية الجملة .

يصيبها - وينكحها : جملتان فى موقع الحال من المسند إليه فى (هجرته) أي من كانت هجرته لدنيا مقدرا إصابتها أو لامرأة مقدرا نكاحها .

أسرار بلاغية :

سمعت رسول الله : فى الجملة مجاز بالحذف . والتقدير سمعت كلام رسول الله ، لأن الذات لا تسمع .

إنما الأعمال بالنيات : أسلوب قصر طريقه (إنما) ، وهو قصر موصوف على صفة ، وقصر إضافى ، والحصر فيه أكثرى لا كلى ، بدليل أنه قد يوجد العمل بدون النية ، و قد يترك العمل بدون النية . وفى بعض روايات البخارى : « العمل بالنية » وفى رواية لابن حبان : « الأعمال بالنيات » ، والحصر فيهما من عموم المبتدأ وخصوص الخبر .

وإنما لكل امرىء ما نوى : أسلوب قصر طريقه إنما كالسابق ، وهو قصر صفة على موصوف قصراً إضافيا .

فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . . إلخ : الأصل إيقاع الهجرة على الأشخاص والأعيان ، فتكون فى حق الله — جل شأنه — تجوزا مبنيا على التوسع ، أو على حذف مضاف والتقدير من هاجر إلى محل رضا الله وثوابه ورحمته فهجرته إلى محل رضا الله وثوابه ورحمته ، أو على التشبيه البليغ المنتزع من سياق الكلام ، والتقدير من هاجر فى سبيل الله فهجرته كأنها لله . وأعاد قوله (إلى الله ورسوله) باظهار لفظى الجلالة والرسول مع أن المحل للإضمار ، لتأكيد الجزاء وإعلاء شأنه ، فضلا عما فى إظهارهما من التبرك والتلذذ . وفيما بعد فى قوله : (فهجرته إلى ماهاجر إليه) أجرى الكلام على مقتضاه وعدل عن مثل هذا الإظهار ، للإلماح إلى الإعراض عن الدنيا والمرأة ، وللايحاء بعدم الاحتفال بهما .

دنيا يصيبها : المقصود باصابة الدنيا تحصيلها . وفى الكلام استعارة ، شبه تحصيل الدنيا باصابة الغرض بالسهم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية — أو — شبهت الدنيا بالغــرض الذى يصيبه السهم ووضع فعل الإصابة دالا على المشبه به المحذوف على سبيل الاستعارة المكنية .

أو امرأة ينكحها: عطف على(دنيا يصيبها)،والعطف بأو يفيدالتقسيم ، وجعلت المرأة قسيما للدنيا مع أنها منها - بدليل ماروى من حديث الرسول « إنما الدنيا متاع ، وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة » — للاشارة إلى الأثر القوى للمرأة فى الحياة الدنيا . وقيل : إنه من عطف الخاص على العام متابعة لما ارتضاه الدمامينى من جواز عطف العام على الخاص وعكسه بأو(١)، وعلى هذا يكون عطف المرأة على الدنيا، للاشارة إلى أن الفتنة بالمرأة أعظم الفتن الدنيوية .

فكرة الحديث :

أن النية هى رأس كل الأعمال وأساسها ، وعلى العبد أن يحسن نيته ، ويجعلها خالصة لوجه الله — سبحانه وتعالى — ويتوجه بها إليه ، طاعة ، وعبادة ، وامتثالا لأمره ، وسيكون جزاؤه وفاقاً بحسب نيته ، ومقدار إخلاصه فيها .

الإيضاح والبيان :

١ — حكوا أنه فى أثناء هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ، فراراً بدينهم ، وهربا من الفتنة — كانت فيهم امرأة تدعى (أم قيس) ، تقدم رجل من أهل مكة يخطبها ، فتأبت عليه إلا أن يهاجــر ، فهاجر من أجل ذلك هجرة ظاهرها أنه يفر بدينه ويهرب من فتنة الكفر ، بينما هو يبطن

---

(١) والجمهور يرون هذا العطف مخصوصاً بالواو .

الهجرة إلى أم قيس، فلما علم الرسول بهذا الأمر خطب الناس بهذا الحديث تعريضا بهذا الرجل وأمثاله، وعتابا له.

ولا ينبغى أن نتوقف عند خصوص هذا السبب، فإن لنا من عموم لفظ الحديث ما يلزمنا أن نعتبر به، ونتخذ منه منارة لسلوكنا، ونبراساً لطريقنا، ففى الحديث تربية للمسلمين أن يجعلوا أعمالهم خالصة لوجه الله — سبحانه وتعالى — وأن يقصدوا ربهم بهذه الأعمال قربة وطاعة، لا أن يعيشوا على الرياء، ولا أن تفتنهم الدنيا وتلفتهم عن خلوص الضمائر، وتصرفهم عن استقامة القصد، وتحول بينهم وبين الله.

٢ — يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات». وهو قول صريح قاطع فى أنه لا يصح عمل من الأعمال الشرعية إلا إذا كان مصحوبا بالنية، والنية فى أصلها وحقيقتها عزمة من عزمات القلب، وليست ترجمتها إلى ألفاظ شرطا لتحقيقها، وإن كانت هذه الترجمة لا تفسدها. وإحضارها حال العمل يهيء للعبد ثوابها إذا قصد بها وبالعمل رضا الله وثوابه ورحمته. وعلى من أراد شيئاً من الطاعات وإن قل أن يحضر نيته وأن ينوى به التقرب إلى الله — تعالى — وأداء ما أمر به، ويدخل فى هذا جميع العبادات(١)، من الصلاة، والوضوء والتيمم، والصوم، والاعتكاف، والحج، والزكاة، والصدقة، وقضاء الحوائج، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وابتداء السلام، ورده، وتشميت العاطس، وإنكار المنكر، والأمر بالمعروف، وإجابة الدعوة، وحضور مجالس العلم والأذكار، وزيارة الأخيار، والنفقة على الأهل، والضيف، وإكرام أهل الود، وذوى الأرحام، ومذاكرة العلم، والمناظرة فيه، وتدريسه وتعليمه، ومطالعته، وكتابته، وتصنيفه، والفتاوى، وما أشبه هذه الأعمال، حتى ينبغى له إذا أكل أو

---

(١) النووى فى بستان العارفين

شرب أو نام قصد بذلك التقوى على طاعة الله أو الراحة للتنشط للطاعة، وكذلك إذا أراد الإفضاء إلى زوجته قصد إيصالها حقها وإعفاف نفسه وصيانتها من التطلع إلى الحرام وتحصيل ولد صالح يعبد الله.

٣ - وقد توجد الأعمال من غير نية أو غير مصحوبة بنية، ولكنها - عند جمهور الأئمة - لاتقيم طاعة وعند بعضهم لا يعتد بها، ومن أشهر ما ساقوه من أمثلتها الوضوء من غير نية والاغتسال من غير نية - ووقوعهما متصور فيما يأخذ به الإنسان نفسه من عادات، كأن يفتح صنبور الماء مريدا غسل يديه وفمه بعد الأكل، فإذا هو بحركة غير إرادية يريق الماء على وجهه ويديه ورجليه ويمسح شعره فمن أنتوضىء، وكأن يخوض النهر سباحة أو لإنقاذ شخص يشرف على الغرق أو لانتشال شيء وقع - فعند الجمهور لا يعتد هذا وضوءا ولا هذا اغتسالا من جنابة، ويرى الحنفية أن مثل هذه الأعمال - إذا لم تكن مقصودة لذاتها - تصح بدون النية ولا تحتاج إلى النية، فهذا عندهم وضوء وليس صورة وضوء، وهذا عندهم اغتسال وليس صورة اغتسال.

أما الأعمال المقصودة لذاتها فهناك اتفاق على ضرورة إحضار النية فيها كالصلوات المفروضة، والزكاة، والحج، وصيام رمضان.

٤ - والنية عنصر وسيط بين الإدراك والممارسة، فالإنسان يدرك الشيء وتكون له به معرفة وعلم، ثم ينويه ويريده ويقصد إليه وينزع نحوه، ثم يقدر عليه ويمارسه ويباشر إيجاده أو تركه. قال الإمام الغزالي(١): «واعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب، يكتنفها أمران: علم وعمل، العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه،

---

(١) احياء علوم الدين - كتاب النية والاخلاص والصدق.

والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه . وذلك لأن كل عمل - أعنى كل حركة وسكون - اختيارى ، فإنه لايتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة ، لأنه لايريد الإنسان مالا يعلمه ، فلابد وأن يعلم(١). ولا يعمل مالم يرد ، فلابد من إرادة . ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى مايراه موافقا للغرض ، إما فى الحال أو فى المآل ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشىء المضر والنافع ، حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لايبصر الغذاء ولايعرفه لايمكنه أن يتناوله ، ومن لايبصر النار لا يمكنه الهرب منها . فخلق الله الهداية والمعرفة . وجعل لها أسبابا وهى الحواس الظاهرة والباطنة . . ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلايكفيه ذلك للتناول مالم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه ، إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولايمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ، ولفقد الداعية المحركة إليه ، فخلق الله - تعالى - له الميل ، والرغبة والإرادة ، وأعنى به نزوعاً فى نفسه إليه ، وتوجها فى قلبه إليه . ثم ذلك لايكفيه ، فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه ، لكونه زمنا ، فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة ، حتى يتم به التناول ، والعضو لايتحرك إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد . وهو أن يقوى فى نفسه كون الشىء موافقاً له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشىء موافق ولابد أن يفعل(١) وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، انبعثت الإرادة وتحقق الميل ، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء ، فالقدرة خاضعة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، وهى الإرادة وانبعاث

---

(١) هكذا بالواو قبل أن ، ومن الخير حذف الواو .

النفس بحكم الرغبة والميل إلى ماهو موافق للغـــرض ، إما فى الحال وإما فى المـآل ».

٥ - وجعل بعضهم للنية سبعة مباحث ، نظمها على طريقتهم فى نظم العلوم ، فقال :

حقيقة ، حكم ، محل ، وزمن كيفية ، شرط ، ومقصود حسن

فحقيقتها هى الحقيقة الشرعية وهى قصد الشيء مقترنا بفعله . وحكمها الوجوب . ومحلها القلب . وزمنها أول العمل المقصود . وكيفيتها لم يحددوها فتركوها للناوى . وشرطها إسلام الناوى وتمييزه وأن يكون المنوى من مكتسباته . ومقصودها إما تمييز العبادات من العادات اختلفتا فى الشكل أم اتفقتا ، وهذا كالاغتسال ، قديكون عبادة ، وقد يكون عادة ، وإما تمييز رتب العبادات ، كالاغتسال ، قد يكون واجبا ، وقد يكون سنة ، وإما تمييز العادات ، كالاغتسال ، قد يقصد به مجرد التنظيف ، وقد يقصد به مافوق التنظيف كإبعاد الرائحة المؤذية عن الناس ، قربة وطاعة .

٦ - والأعمال ثلاثة أقسام : طاعات ، ومباحات ، ومعاص(١) :

فالطاعات مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها ، فأصل صحتها أن ينوى بها العبد عبادة الله - تعالى - لاغير ، فإن نوى الرياء صارت الطاعة معصية . وتضاعف فضلها يكون بكثرة النيات الحسنة فى الطاعة ، إذ الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى الناوى بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ، أى حسنة أو أكثر من حسنة ، وذلك كالقعود فى المسجد ، فإنه وحده طاعة ، ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ،

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالى - المرجع السابق .

ويبلغ به درجات المقربين ، كأن يعتبر نفسه فى المسجد زائراً الله،ومرابطا فى انتظار الصلاة ، ومتجردا لذكر الله أو استماع ذكره ، ودافعا للشواغل الصارفة عنه بالاعتزال فى المسجد ، وغير ذلك .

والمباحات يمكن — بالنية — أن تصير من محاسن القربات. وينال بها أعلى الدرجات ، ولاينبغى أن يحتقر العبد شيئاً من الخطرات والخطوات واللحظات ، فكل ذلك سوف يكون مسئولا عنه يوم القيامة . والمباحات كثيرة ، ولا يمكن إحصاء النيات فيها ، قال بعض العارفين : انى أستحب أن يكون لى فى كل شىء نية ، حتى فى أكلى وشربى و نومى ، تقربا إلى الله — تعالى — لأن كل ماهو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الجسد فهو معين على الدين .

والمعاصى لا تتغير عن موضعها بالنية ، فلا تنقلب طاعة بالنية ، كالذى يغتاب إنسانا رياء لغيره ، أو يطعم فقيرا من مال غيره ، أو يبنى مدرسة أو مسجدا بمال حرام،وان قصد الخير من ذلك ، إذ قصد الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر،فإن عرفه فهو معاند للشرع،وان جهله فهو عاص بجهله،إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم، وما عصى الله بمعصية أعظم من الجهل ، ولايعذر من قصد الخير بمعصية عن جهل ،إلا إذا كان قريب عهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم .

٧ — ويقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الحديث: «وانما لكل امرىء مانوى»،أى لكل امرىء جزاء نيته إن خيرا فخير وان شرا فشر، فإن نوى بعمله خيرا جوزى عنه خيرا ، وإن نوى بعمله شرا جوزى عنه شرا . وبهذا ترتبط هذه الجملة من حديث الرسول الكريم بما قبلها ارتباطا عضويا ، فكلاهما تؤدى إلى هدف واحد ، وجاءت الجملة الثانية تأكيدا وتقريرا وتثبيتاً لأمر النية وضرورة حضورها والتوجه بها إلى الله عبادة وقربى .

وقد يرى أن الجملة الأولى « إنما الأعمال بالنيات » تؤسس لضرورة حضور النية فى الأعمال، فمن دون النية تهدر الأعمال ولا يكون لها اعتبار، والجملة الثانية تحتم تعيين المنوى ومباشرة النية. وعلى هذا لا يجوز أداء طاعة بنية طاعة أخرى فلا تصح مثلا صلاة الظهر بنية صلاة العصر ولا صلاة العصر بنية صلاة الظهر، بل يجب أن يباشر العبد النية ولا يقيم فيها وكيلا عنه، وأجاز بعضهم التوكيل فى النية مع القدرة عليها فى تفريق الزكاة وذبح الأضحية. وأقول: إن نية العبد صاحبت أصل التزكية والتضحية، فما يقوم به الوكيل من نية التفريق والذبح مؤسس على نية المزكى والمضحى.

٨ — ويجب(١) أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح، ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته إياه.

وإن الغرض من الأعمال بالجوارح هو تعويد القلب إرادة الخير وتأكيد الميل فيه (أى فى القلب) إلى الخير، ليفرغ من شهوات الدنيا، ويكب على الذكر والفكر. ولا يظن ظان أن فى وضع الجبهة على الأرض — مثلا — غرضا من حيث إنه — بحكم العادة — يؤكد صفة التواضع فى القلب، فإن من يجد فى نفسه تواضعا إذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه، أما من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما تساوى وجوده وعدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا. وإذن تكون العبادة بغير نية باطلة ويكون العمل بغير نية غير مفيد أصلا. فإذا قصد بعمله غير الخير كأن يؤديه مراءاة للناس لم يكن وجوده كعدمه، بل زاده شرا، لأنه أكد الصفة المطلوب قمعها ولم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها.

---

(١) الغزالى — المرجع السابق.

ومن هنا كانت النية خيرا من العمل، ويؤيد هذا حديث الرسول الكريم الذى رواه الطبرانى: «نية المؤمن خير من عمله». والسر فى ترجيح النية على العمل أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل، والنية من جملة الخيرات، والعمل من جملة الخيرات، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أى أن لكل منهما أثرا فى المقصود، وأن أثر النية أكثر من أثر العمل، فنية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختيارا فى النية وفى العمل فهما اثنان والنية خيرهما(١).

والطاعات غذاء القلوب، ومقصود المؤمن شفاء قلبه، وبقاؤه سالما، وسلامته فى الآخرة، وسعادته، وتنعمه بلقاء الله تعالى، والذى يتنعم بلقاء الله هو من مات محبا لله عارفا بالله، وهو لا يحبه إلا إذا عرفه، ولا يأنس بربه إلا من طال ذكره له، فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، ولا يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، وهو لا يفرغ من هذه الشواغل إلا إذا انقطعت عنه شهواتها، حتى يصير إلى الطاعات والخيرات مائلا، ومن الآثام والشرور نافرا، وإنما يميل إلى الطاعات والخيرات إذا علم أن سعادته فى الآخرة منوطة بها، فيواظب على أعمال الطاعة ويترك أعمال المعاصى، ثم لا يخالف فى مواظبته وتركه مقتضى ميله ونية قلبه. «وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد»(٢).

---

(١) وهذا تأويل الغزالى ونحن نرتضيه. وقد قيل: المعنى أن أجر النية خير من أجر العمل بلا نية. وقيل: النية المجردة خير من العمل المجرد عن النية وقيل: نية المؤمن تبلغ إلى حيث لا يبلغ العمل لأن نيته تمتد فى الزمان آمادا بعيدة كأن ينوى أن يعبد الله لو عاش ألف سنة أما عمله فلا يبلغ ذلك. وقيل: النية سر والعمل ظاهر والسر لا يطلع عليه إلا الله ولهذا فضلت النية. وقيل: النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم.

(٢) حديث متفق عليه.

٩ — روى الدارقطني — وغيره — حديث الرسول — ﷺ : «إن العبد ليعمل أعمالا حسنة، فتصعد الملائكة في صحف مختمة، فتلقى بين يدى الله — تعالى — فيقول: ألقوا هذه الصحيفة، فإنه لم يرد بما فيها وجهي، ثم ينادى الملائكة: اكتبوا له كذا وكذا. اكتبوا له كذا وكذا، فيقولون: يا ربنا. إنه لم يعمل شيئاً من ذلك، فيقول الله — تعالى — إنه نواه، وفي بعض الأخبار: أن العبد يدفع إليه يوم القيامة كتابه، فيأخذه بيمينه، فيجد فيه حجا وجهادا وصدقة مافعلها، فيقول: يارب، ليس هذا كتابي، لأني مافعلت شيئا مما فيه. فينادى: بل هـذا كتابك، لأنك عشت دهرا وأنت تقول: لو كان لى مال حججت منه. لو كان لى ما أحمل عليه جاهدت، لو كان لى مال تصدقت به. وفي حديث أنس بن مالك: لما خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في غزوة تبوك قال: «إن بالمدينة أقواما، ما قطعنا واديا، ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلا شركونا في ذلك، وهم بالمدينة. قالوا: وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا ؟!. قال: حبسهم العذر». وما شاركوهم إلا بحسن النية. وفي حديث أبي بكر: قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يارسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول ؟!. قال: «لأنه أراد قتل صاحبه». وفي حديث ابن عباس — رضي الله عنهما — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال: «إن الله — تعالى — كتب الحسنات والسيئات فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة».

ولقد بان لك أن النية عماد العمل، وأن العمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا، وأن النية في نفسها خير، وقال بلال بن سعد(١): إن العبد ليقول قول مؤمن، فلا يدعه الله - عز وجل - وقوله، حتى ينظر في عمله، فإن عمل

---

(١) إحياء علوم الدين — المرجع السابق.

لم يدعه الله حتى ينظر فى ورعه ، فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى ؛ فإن صلحت نيته فبالحرى أن يصلح ما دون ذلك . وقال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية . وأقول : أنت بخير كلما نويت خيرا ، فانو الخير ترشد إن شاء الله .

١٠ — واعلم أن العمل بغير نية عناء ، وأن النية بغير إخلاص رياء ، وأن الإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء . والناس هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . والإخلاص أن تكون سكنات العبد وحركاته لله - تعالى - خالصة ، لا يريد بها إلا وجهه الكريم ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة ، بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار ، حتى لا يشتهى الطعام - كمثل - لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على عبادة الله ، ويتمنى أن لو كفى شر الجوع ، حتى لا يحتاج إلى الأكل ، فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده ، لأنه ضرورة دينه ، فلا يكون له هم إلا الله . وعلاج الإخلاص كسر حظوظ النفس ، وقطع الطمع عن الدنيا ، والتجرد الآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص .

١١ — وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » :

والجملتان تفصيل وتطبيق للجملة السابقة : « وإنما لكل امرىء مانوى » .

---

(١) احياء علوم الدين - المرجع السابق .

وكلتا الجملتين فى هذا المقال شرط وجزاؤه ، أو سبب ومسبب عنه ؛ والأصل اختلاف كلتيهما عن الأخرى فى مضمونها ومحتواها ، والمعهود اختلافهما فى اللفظ ، تقول من يجتهد ينجح ، فالاجتهاد غير النجاح مضموناً ولفظاً . فإن اتفقتا لفظاً - كما هنا - وجب تقديرهما تقديراً يحقق تغاير المضمون. وعلى هذا يمكن فقه الجملتين على أحد وجهين :

(١) المبالغة فى تعظيم الحكم أو تحقيره بحسب ما يستوجبه . فالتقدير : من هاجر إلى الله ورسوله فهجرته هى الهجرة الربانية الدينية العظيمة المقبولة، ومن هاجر إلى الدنيا فهجرته هى الهجرة الدنيوية الحقيرة المرفوضة .

(ب) إلحاق ما يدل على السببية بالشرط كمقدمة وما يدل على المسببية بالجزاء كنتيجة ، فالتقدير : من كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصداً فهجرته إلى الله ورسوله حكما وشرعاً أو فهجرته إلى الله ورسوله أجراً وثواباً، ومن كانت هجرته إلى الدنيا نية وقصداً فهجرته إلى الدنيا حكما وهوى أو هجرته إلى دنياه مكافأة ونصابا .

وأيا كان الأمر ففى الهجرة معنى التوجه . فمن توجه إلى الخير وجده عنده ووجد الله عنده ، ومن توجه إلى غير الخير حجب الخير عن نفسه ومكن الشيطان وعبد له مسالكه . ولا يستوى الخبيث والطيب قال تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم . ساء ما يحكمون »(١) فالذين رشدوا تتعلق بالله أفئدتهم ، وتطمئن إلى ما عنده نفوسهم ، فيرضون عنه ويرضى عنهم ، والذين لم يرشدوا يتعلقون بالدنيا ، ويجنحون إليها ، ويجعلونها همهم ، فيأخذونها ، وما يأخذون منها إلا حطاماً فانيا ، وشهوة عاجلة . وإذا كانت الحنيفية السمحاء تحض على ابتغاء الآخرة وإيثارها - فى أرقت نفسه - لا يمنع من

---

(١) سورة الجاثية آية ٢١

طلب الدنيا لا لذاتها ، بل للاستعانة بها على الطاعة والعبادة ، قال تعالى على لسان قوم قارون : « لا تفرح ، إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين »(١) .

١٢ — ونيات الناس فى الطاعات درجات : منهم من يطيع حبا فى الله وتكون سائر الأعمال مؤكدات وروادف ، ومنهم من يطيع إجابة لباعث الرجاء وهو حب الجنة ، ومنهم من يطيع إجابة لباعث الخوف وهو اتقاء النار . والأولون أرفع درجة وأعظم أجراً لأنهم ما قصدوا إلا طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه ، ومن عداهم أقل من الأولين شأناً ، ولكن نياتهم من جملة النيات الصحيحة ، إذ مالوا إلى الموعود فى الآخرة ورغبوا عن عقاب الله ومقته(٢) .

١٣ — وقد اتفق الأئمة على أن هذا الحديث واحد من الأحاديث التى عليها مدار الإسلام(٣) . وقال بعضهم : إن هذا الحديث نصف العلم ، قيل : لأنه يحمل أعمال القلب والطاعة المتعلقة به وعليه مدارها ، وهى تقابل أعمال الجوارح فكانت نصف الأعمال ، فكان الحديث نصف العلم ، بل زاد على النصف لأن أعمال القلب أعظم شأناً . وقيل : لأن النية عبودية القلب والعمل عبودية القالب وهما نصفان . وقيل : العمل ظاهر الدين والنية باطنه وهذان نصفان أيضاً .

وقال بعضهم : إن الحديث ثلث العلم ، قيل : لأن كسب العبد بقلبه أو

---

(١) سورة القصص - آية ٧٦ ، ٧٧

(٢) انظر احياء علوم الدين - المرجع السابق الإشارة إليه .

(٣) وعدتها تسعة وعشرون حديثاً — راجعها فى بستان العارفين للنووى .

بلسانه أو بجوارحه . فالنية إحدى الثلاث وأرجحها، لأن اللسان والجوارح تبع للقلب صحة وفسادا . وقيل : لأن الأحكام تدور على هذا الحديث وعلى حديث «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(١) وحديث «إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات»(٢). والله أعلم .

---

(١) الحديث الخامس .
(٢) الحديث السادس .

الحديث الثاني

الإسلام والإيمان والإحسان

عنْ عُمَرَ رَضِيَ الله تعالى عنهُ أيضاً قال: «بينما نحنُ جلوسٌ عِندَ رَسُولِ الله صلى اللهُ عليه وآلهِ وسلم ذاتَ يوم إذ طلعَ علينا رجُلٌ، شديدُ بياضِ الثياب، شديدُ سوادِ الشعر لا يُرَى عليه أثرُ السفرِ ولا يعرفُهُ منا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلمَ فأسندَ ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقالَ: يا محمدُ، أخبرني عن الاسلام فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم -: الإسلامُ أنْ تشهدَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضانَ، وتحجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلاً. قالَ صدقتَ. فعجبنا لهُ يسألهُ ويُصدِّقُهُ. قالَ فأخبرني عن الإيمان قالَ: أنْ تؤمنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسُله، واليوم الآخرِ، وتؤمنَ بالقدر خيره وشره. قالَ: صدقتَ. قالَ: فأخبرني عن الإحسان قال: أنْ تعبدَ الله كأنكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنه يراكَ. قال: فأخبرني عن الساعة، قالَ ما المسئولُ عنها بأعلمَ منَ السائل. قالَ: فأخبرني عن أماراتها. قالَ: أنْ تلدَ الأمةُ ربتها، وأن ترى الحفاةَ العراةَ العالةَ رعاءَ الشاء يتطاولونَ في البنيان. ثمَّ انطلقَ. فلبثتُ ملياً، ثمَّ قالَ: يا عمرُ، أتدري مَن السائلُ؟ قلتُ: اللهُ ورسولهُ أعلمُ. قالَ: فإنهُ جبريلُ، أتاكُمْ يعلمكُمْ دينكم». رواهُ مسلم.

راوى الحديث :

أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وسبق التعريف به فى شرح الحديث السابق .

شذور لغوية :

بينما : ظــرف زمان يتضمن المفاجأة ، مركب من بين وما الزائدة التى كفتها عن عمل الجر ، وأفاد التركيب الشرط ، ولذا وقعت « إذ » فى جوابها .

جلوس : جمع جالس كشهود جمع شاهد او مصدر بمعنى (جالسون) .

عند رسول الله : عند ظرف مكان ، ويفيد أصــلا القرب الحسى كما فى الحديث ، ويستعمل فى القرب المعنوى كما فى قوله تعالى : وعنده أم الكتاب (١) .

الشعر (بفتحتين ويسكن وسطه) : هذه النبتة فى الجسم مما ليس بصوف ولا وبر .

جلس إلى النبى : بمعنى عنده ، لأن إلى - بوضعها - لانتهاء الغاية .

الاسلام : أصله الانقياد والإذعان والدخول فى السلم ، وال فى الإسلام للحقيقة والماهية الشرعية ، وكذلك (ال) فى الإيمان ، وفى الإحسان .

تشهد : أى تخبر عن أمر متيقن .

تقيم الصلاة : تفيم من الاقامة وأصلها التقويم والتثقيف ، تقول : قومت

---

(١) سورة الرعد - آية ٣٩

العود وأقته ثقفه وعدلته. وإيقاع الإقامة على الصلاة يعنى أولا استقامتها. ويكون بتعديل أركانها وأدائها على وجهها الصحيح. والصلاة فى اللغة الدعاء، وتطلق على البركة والاستغفار ، وفى الشرع هذه العبادة المخصوصة بهيئتها وحركاتها وأدعيتها وأركانها وشروطها وأوقاتها، وسميت بها لما فيها من الأدعية .

تؤتى الزكاة : تؤتى من الإيتاء ، وهو الإعطاء. والزكاة: لغة النمو والزيادة، وجعلت اسما على هذا الركن من أركان الإسلام الذى يقتضى إخراج قدر معين من المال وإعطاءه ان يستحقه بشرائطه المذكورة فى كتب الفقه ،وهذه زكاة المال لأنها تنميه بالبركة و بتطهير المزكى من الشح والبخل .

تصوم رمضان : تصوم من الصوم وهو لغة الإمساك والكف عن الشيء أيا كان ، ومنه صام عن الكلام أمسك عنه قال تعالى عن مريم البتول : «إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً(١) ،ومنه صام النهار إذا انتصف لبطء حركة الشمس فيه ، وصام الفرس إذا امتنع عن العلف وخص الصوم شرعا بالإمساك عن شهوتى البطن والفرج وما يقوم مقامهما من الفجر إلى غروب الشمس مع نية ذلك . وإيقاع الصيام على رمضان يحدد المقدار الزمنى المفروض أداء الصوم فيه ، ورمضان هو تاسع الشهور العربية الذى يعقب شهر شعبان . وسمى بهذا الاسم ، لأنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر زمن الرمض أى شدة الحرارة .

تحج البيت : تحج من الحج وهو لغة القصد ، وحج البيت قصده ، والبيت هو البيت الحرام فى مكة المكرمة ، وقد يطلق الحج فى ... منه شرعا زيارة البيت الحرام لأداء المناسك الخاصة بهذا الركن من أركان الإسلام .

---

(١) سورة مريم — آية ٢٦

إن استطعت : إن قدرت . وتعنى الاستطاعة والقدرة إمكان الزيارة .

سبيلا : طريقاً ، والسبيل والسبيلة الطريق وما وضح منه ، يذكر ويؤنث ، وتوسعوا فيه فأطلقوه على عدة معان تتصل بالمعنى الأصلى بسبب أو بآخر ، ومنها : الطاعة كقوله تعالى : « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله (١)» ، أى فى طاعته . والمسلك ومنه قوله تعالى: « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قدسلف ، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا(٢) » ، أى وساء مسلكا . والمخرج ومنه قوله تعالى فى معاملة النساء الفاحشات : «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا »(٣) ، أى مخرجا . والحجة ومنه قوله تعالى فى بعض المسلمين الذين لم ينابذوا بحرب أو عصيان : « فإن اعتزلوكم ، فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا (٤) » أى حجة .

عجبنا له : من العجب (بفتح فسكون أو بالتحريك) وهو إنكار ما يرد عليك ، ومثله التعجب ، وينشأ من خفاء السبب ، فإذا عرف السبب زال العجب . وقد أبان سيدنا عمر عن داعية العجب بقوله : (يسأله ويصدقه) ، لأن مقتضى السؤال الجهل ومقتضى التصديق العلم فكيف يجتمع الجهل والعلم فى آن ! هذا هو مناط العجب .

الإيمان : فى الأصل مطلق التصديق ، وخصص فى الشرع بتصديق النبى — صلى الله عليه وسلم ـ تصديق إذعان وقبول فى كل ما علم بجيئه به من

---

(١) سورة البقرة — آية ٢٦٢ .

(٢) سورة النساء — آية ٢٢ .

(٣) سورة النساء — آية ١٥ .

(٤) سورة النساء — آية ٩٠ .

الدين بالضرورة أى بأن يذيع ويشتهر من التوحيد والبعث والجزاء وغيرها تفصيلا فى التفصيلى وإجمالا فى الإجمالى ، وقيد التصديق بأنه تصديق إذعان وقبول حتى ننفى إيمان - أى معرفة - الكافرين الذين كانوا يقولون بربوبية الله ويصدق نبوة محمد ثم لايذعنون له ولا يقبلون ما جاء به .

ملائكته : الملائكة جمع تكسير غير قياسى لملك (بالتحريك) أو جمع قياسى لملاك ، (بالفتح) ، وملاك أصلها ملأك ، وهذه منقولة عن مألك (كلتاهما بوزن معبد) ، ومألك من الألوكة بمعنى الرسالة ، أخرت الهمزة فصارت إلى ملأك ، وحذفت الهمزة تخفيفا بعد أن نقلت حركتها إلى ما قبلها . والتاء فى الملائكة مزيدة على (الملائك) للمبالغة ، وقد سمع الملائك فى قول الشاعر :

أبا خالد ، صلت عليك الملائك

والملائك والملائكة أجسام نورانية علوية ، يتاح لها أن تتشكل بما شاء الله لها من الأشكال .

كتبه : الكتب جمع كتاب وهو لغة الكتب والجمع والضم ، وشرعا ما أنزله الله - تعالى - على رسله مكتوبا على الألواح أو مسموعا من وراء حجاب أو من ملك مشاهد .

رسله : الرسل جمع رسول وهو أصلا كل مرسل فى رسالة . وفى الشرع المرسل فى شرع الله ليبلغه الناس .

اليوم الآخر : هو يوم القيامة . قالوا : وسمى آخراً ، لأنه آخر أيام الدنيا وآخر الأزمنة المحددة .

القدر (محركة) : القضاء والحكم ومصدر قدر الشىء أحاط بمقداره وقدر

الرزق قسمه . و (ال) فى القدر عوض عن المضاف إليه : أى قدر الله ، بمعنى تقديره الأمور وإحاطته بها علماً .

خيره وشره : خير القدر وشر القدر . والخير والشر كلاهما نقيض الآخر . وفى الخير معانى الاختيار والتخير والفضل وكل ما هو محبوب وسار ، وفى الشر معانى الأذى والنكر والنقص وكل ما هو مكروه وسيء .

الإحسان : فى اللغة جعل الشيء حسناً أى جميلا ، والاجادة ، والاتقان ، وضد الاساءة . وتقول : أحسنت الشيء علمت به .

تعبد : من العبادة . وهى الطاعة كالعبودة والعبودية . وتقتضى الخضوع والتطامن والذل .

كأنك تراه : كأنك تنظره وتشاهـــده . فالرؤية هنا بصرية على سبيل التمثيل .

الساعة : لغة مقدار من الزمن غير معين ولا محدود . وفى عرف الفلكيين جزء من أربعة وعشرين جزءاً من أوقات اليوم . وفى الشرع القيامة ، سميت بذلك لسرعة قيامها .

أماراتها : الأمارات جمع أمارة (بفتح الهمزة) وهى العلامة والموعد والوقت . والمقصود فى الحديث السؤال عن علامات الساعة فقط ، بدليل الاجابة عليها .

الأمة : الجارية . وال فيها للعهد .

ربتها : الربة هنا بمعنى السيدة .

الحفاة : جمع حاف ، والحافى من لانعل فى رجله .

العراة : جمع عار ، والعارى من لاثوب على جسده .

العالة : جمع عائل ، والعائل الفقير ومن لامال له . وال فى الثلاثة للعهد.

رعاء الشاء: رعاتها . والرعاء (بالكسر و بالضم) : جمع راع، والشاء الغنم جمع شاة .

يتطاولون فى البنيان : أى يتباهون فى ارتفاعه ويتفاخرون بطوله وكثرته ، والبنيان : البناء والبنية والبناية وكلها مصادر بنى وهو نقيض هدم .

لبث مليا : مكث — أى الرسول — زمنا طويلا ، وفى رواية « فلبثت مليا » والفاعل الراوى . والملى فعيل من الملو وهو الزمن الطويل ، والملاوة من الدهر والملوة منه البرهة منه ، والملوان الليل والنهار أو طرفاهما .

تدرى : بمعنى تعلم ، يتعدى إلى مفعول واحد وإلى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر ، وفى جملة (أتدرى من السائل) علق الفعل عن العمل فى مفعوليه بالاستفهام بعده .

جبريل : ملك الرسالة . وفيه لغات أشهرها هذه وجبرال وجبرين (بالكسر) ، وجبرال وجبرئيل وجبرائيل (بالفتح) ، وكلها ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة ، فهو علم فى السريانية ، معناه عبد الله .

مسائل نحوية :

لايرى عليه أثر السفر : جملة تقع نعتا ثالثا لرجل، بعد نعته أولا بشديد بياض الثياب ، وثانيا بشديد سواد الشعر ، ويجوز اعراب الجملة فى موقع الحال من رجل بعد تخصيصه بالنعتين . ويرى فعل مبنى للمفعول فأثر نائب الفاعل ، ويروى نرى بالنون مبنيا للفاعل فالفاعل ضمير المتكلمين . وأثر مفعول به .

حتى جلس : حتى ابتدائية ، ويصح أن تكون غائية وعلى هذا يكون فى الكلام حذف ، والتقدير : طلع علينا رجل فاستأذن ودنا حتى جلس ، وذاك لأن الجلوس ليس غاية الطلوع ، لكن يكون غاية للدنو .

فأسند ركبتيه إلى ركبتيه : الضمير فى الفعل وفى ركبتيه الأولى يعود على الرجل ، وفى ركبتيه الثانية يعود على النبي الكريم .

وضع كفيه على فخذيه : الضمائر كما فى الجملة السابقة ، وربما جاز أن يكون الضمير فى فخذيه للرجل ، ويرجح الأول ما رواه ابن عباس وأبو هريرة وأبو ذر — رضى الله عنهم — من حضور الملك متنكراً مما يقوى الظن فى أنه يصنع مثل صنيع الأعراب .

أن تشهد : أن مصدرية ناصبة للفعل . والمصدر المؤول فى موقع خبر المبتدأ المحذوف ، والتقدير : هو — أى الإسلام — شهادة ۰۰۰۰ ومثله : أن تؤمن ، وأن تعبد ، وأن تلد .

أن لا إله إلا الله : أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وخبرها الجملة بعدها . ولا نافية للجنس ، وإله اسمها ، وخبرها محذوف تقديره موجود أو فى الوجود ، وإلا أداة استثناء ، ولفظ الجلالة مرفوع على البدلية من الضمير المستكن فى الخبر المقدر ، وقيل : يجوز أن يعرب بدلا من محل لا واسمها لأن محلهما رفع بالابتداء .

تصوم رمضان : رمضان مفعول به ، إذ المقصود إيقاع الفعل عليه لا فيه .

سبيلا : مفعول به . ويجوز أن يعرب تمييزا ملحوظاً عن نسبة الاستطاعة ، والتقدير : إن استطعت سبيل البيت .

بالقدر خيره وشره : خيره وشره بدل من القدر ، وهو بدل كل إن اعتبرت بمجموع المتعاطفين ، وبدل بعض إن اعتبرت كل واحد منهما .

كأنك تراه : الجملة فى موقع الحال من الفاعل ، والتقدير : تعبد الله مشبها بمن يراه .

إن لم تكن تراه فإنه يراك : شرط ، وفعله ، أما جوابه فمحذوف تقديره (فأحسن العبادة) . وجاءت جملة (فإنه يراك) تعليلا للجواب المحذوف ودليلا عليه ، ولم تصلح جوابا لأن الجواب جزاء لفعل الشرط ومسبب عنه، وليس عدم رؤية العابد لله سبباً فى رؤية الله له ، فإن الله يرى عبده وعابده، وجدت من هذا العابد رؤية أم لم توجد.

ما المسئول عنها بأعلم : ما حجازية ، والمسئول اسمها، وأعلم خبرها، والباء زائدة ، أو تميمية والمسئول مبتدأ وأعلم خبره .

ترى الحفاة . . يتطاولون : جملة يتطاولون حالية إن اعتبرت (ترى) بصرية ، وفى موقع المفعول الثانى إن اعتبرت (ترى) بصيرية .

أتدرى من السائل : جملة (من السائل) استفهامية علقت الفعل (تدرى) عن العمل ، وسدت مسد مفعوليه .

الله ورسوله أعلم : أعلم خبر للفظ الجلالة أو لرسوله ، وحذف الخبر من الآخر لدلالة المذكور عليه ، ويجوز أن يكون خبراً لهما على الرغم من إفراده ، وذلك بتقدير من الجارة محذوفة مع المفضل عليه ، والتقدير : الله ورسوله أعلم من غيرهما .

أتاكم يعلمكم : جملة (يعلمكم) فى موقع الحال من فاعل أتى .

أسرار بلاغية :

طلع علينا رجل : فى العبارة من وجه استعارة مكنية ، شبه الرجل بالشمس ورمز للمشبه به - بعد حذفه - بالطلوع ومن وجه استعارة تصريحية تبعية فى الفعل ، شبه الظهور بطلوع الشمس فى نباهة الشأن .

لايرى عليه أثر السفر : هذه الرواية ببناء الفعل المفعول أدل على إفادة العموم من رواية (لانرى . .) لأن هذه تقيد الفعل بالمتكلم ومن معه فقط .

ولايعرفه منا أحد : جملة موصولة بما قبلها للتوسط بين الكمالين ، فالجملتان خبر لفظاً ومعنى ، وقصد تشريك الثانية للأولى فى الحكم الاعرابى . وفى تقديم (منا) على الفاعل إفادة الاهتمام بالمقدم ، إذ كانوا جميعاً يجهلون شخص القادم ، وهذا أمر تقديرى من راوى الحديث .

. . حتى جلس : فيه إيجاز بالحذف ، بيناه فى مسائل النحو .

تقيم الصلاة : إذا أخذت إقامة الصلاة من إقامة العود وتقويمه ففى الفعل استعارة تصريحية تبعية ، إذ شبه تعديل أركانها بتقويم العود ، واستعير له الاقامة ، ثم اشتق الفعل . وإذا أخذتها من قامت السوق وأقيمت — وهذا يقتضى دوامها — فكناية عن المداومة والمحافظة ، وإذا أخذتها من قام الأمر فمجاز فى الإسناد فإقامة الصلاة جعلها قائمة وهذا يفيد التشمر لها . وإذا أخذتها من قام فى الأمر بمعنى أداه فمجاز إسنادى ، إذ المعنى توجد قيامها ، من إطلاق البعض على الكل .

تؤتى الزكاة : الفعل يتعدى إلى مفعولين والمذكور مفعوله الثانى ، وأما مفعوله الأول فقد حذف ، والتقدير : تؤتى المستحقين - أو الإمام - الزكاة ، ففى العبارة إيجاز لموازنة العبارة السابقة (تقيم الصلاة) ، والإشارة إلى أن المقصود إيتاء الزكاة أى حصول الفعل نفسه ، فإنه متى حصل وقع حتما على من يؤتاها .

إن استطعت إليه سبيلا : تقديم إليه للاختصاص ، والجملة الشرطية قيد لما قبلها ، جاءت إطناباً للتنبيه على أن أداء فريضة الحج ليس على إطلاقه فإنما هو مقيد بالاستطاعة .

فعجبنا له يسأله ويصدقه : الفصل في (يسأله) للاستئناف البياني لإيضاح علة الحكم السابق وهو العجب منه .

(الإيمان) أن تؤمن : أعاد ذكر الإيمان لبيان العناية بأمره والدلالة على أنه علم على نفسه .

وتؤمن بالقدر : أعاد العامل للتنبيه إلى أهمية القدر والاهتمام بشأنه إذ لا يعلم القدر إلا بصير بأمور الدين . أو أعاد العامل لبعد العهد به ، وكأنه يختم الاجابة موصولة بأولها .

تعبد الله كأنك تراه : الكلام محمول على التشبيه ، والتقدير : الاحسان عبادتك الله حال كونك فى عبادتك مشبها حال كونك رائياً الله

ما المسئول عنها بأعلم من السائل : سياق الكلام أن يقول : (ما أنا بأعلم منك) ولكنه أظهر فى الموضعين ، إشعاراً بالتعميم ، وتعريضاً للسامعين أن كل مسئول وسائل كذلك . وإيقاع الكلام فى حيز النفى يشعر بالتساوى فى نفى العلم بوقت الساعة لا التساوى فى العلم بوقتها .

تلد الأمة ربتها : تعنى كنايات كثيرة ، نذكرها فى البيان بمشيئة الله .

فكرة الحديث :

أوضح الحديث حقيقة الاسلام والإيمان والاحسان ، وألم بوظائف الأعمال الظاهرة والباطنة التى ترجع إليها الشريعة الغراء . وفيه بيان لأركان الاسلام وقواعده الخمس ، وبيان لمحاور الايمان والإحسان ، فمن الواجب

الايمان بالله رباً واحداً قادراً متصفاً بالكمالات الالهية، والايمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبسائر الغيبيات التي تخفى عن البشر، وخاصة ما يتصل منها بأمور الساعة التي كشف الحديث عن بعض مقدماتها في أخريات هذه الحياة الدنيا كنذر يعتبر منها العباد. فيستبقون إلى الخيرات ويطلبون جنة الله ونعيمه المقيم بما يقدمون من صالح الأعمال. وفي الحديث بيان لما ينبغي أن يأخذ العبد به نفسه من إحسان الصلة بينه وبين الله، والاخلاص لله، ومراقبة الله

الإيضاح والبيان :

١ — يؤخذ من بعض الروايات أن نفراً من الصحابة كانوا يسألون النبي ﷺ هذه الأسئلة التي جاء جبريل يسأل عنها وكان الرسول الكريم يجيبهم بحسب ما يعلم ثم كثر سؤالهم عن المغيبات وعن « الساعة » بخاصة حتى أعنتوا الرسول وكره هو أن يصيبهم مكروه من التفكير في أمور الغيب، وأحسوا منه ذلك فكفوا عن سؤاله، ثم فتح الرسول لهم باب المسألة فهابوا سؤاله، حتى لا يعنتوه ولا يعنتوا أنفسهم مرة أخرى، فأرسل الله جبريل في هيئة رجل يسأل الرسول عن كل ما كان يدور بأخلادهم وجاء جبريل متجملا وفي هيئة حسنة وزي حسن، ليقدم للمسلمين مثالا لما يجب أن يكونوا عليه إذا تزاوروا أو وفدوا على الأئمة. واستأذن جبريل ودنا حتى جلس بين يدي الرسول فأسند ركبتيه إلى ركبتي الرسول كفعل الراغب في التعلم بين يدي أستاذه يظهر له التواضع والخشية ووضع كفيه على فخذيه للاستئناس أو زيادة في الأدب ثم ناداه باسمه (يا محمد) كما كان العرب يفعلون، وتكملة للصورة التي جاء عليها وزيادة في إخفاء أمره على الحاضرين، فإنه لا يريد أن ينكشف لهم أمره حال حضوره فهو يشد انتباههم إليه بمظهره ومسلكه، ومن بعدهما يشدهم إلى الموضوعات التي يثيرها (١).

(١) ومن الجائز أن يكون النداء بالاسم سابقا في وقته على تحريم نداء =

٢ — سأل جبريل رسولنا الكريم أولا عن الاسلام .

(ا) والاسلام في أصله هو الاستسلام ، وهو يعني الانقياد الظاهر ، فالاسلام هو ظاهر هذا الدين بمعنى أنه هو الذي يظهر للناس . ويثبت حكم الاسلام في نطق العبد بالشهادتين ، ثم أضيف إلى ذلك أربعة الأركان الأخرى (الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج) ، لكونها أظهر شعائر الدين وأعظمها شأناً وبإقامتها يكمل الاستسلام لشرع الله ، وإن شئت فقل : يصح الاسلام . وهذه الأركان الخمسة تمارسها أعضاء العبد ممارسة ، فالشهادتان بربوبية الله وبرسالة محمد ﷺ من عمل اللسان ، والأركان الباقية تشترك الأعضاء في أدائها ، وإن بدت حركة اليد للإعطاء في الزكاة أكثر وضوحا ، وكذلك حركة المنافذ الموصلة إلى شهوتي البطن والفرج في الامساك عن المفطرات في الصوم .

وقد ظهر لك أن تقديم الشهادتين على سائر الأركان مقصود به تحصيل الاسلام بهما ، وباقي الأركان مبني عليهما مشروط بهما . وثنى بالصلاة لأنها عماد الدين والفارق بين من أسلم ومن لم يسلم ولأنها تتكرر كل يوم ، وبعدها ذكر الزكاة لأنها قرين الصلاة في أكثر من موضع في القرآن الكريم ولأنها تجب في المال سواء كان المسلم مكلفاً أم غير مكلف ، ثم الصوم لأنه يتكرر كل عام ، أما الحج فإنه يجب في العمر مرة واحدة ومشروط أداؤه بالاستطاعة والقدرة .

(ب) ويكفي في الإسلام نطق العبد بالشهادتين نطقاً عن شهادة وأمر متيقن له وإن لم يعمل بما تتضمنانه من معان ، أما الايمان فيقتضي الاذعان لحقيقتهما والعمل على تحقيق ما تتضمنانه من معان ، فمن أذعن فقد آمن وكان من المؤمنين

= الرسول باسمه اتباعا للآية الكريمة : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » أو يقال : إن هذا التحريم خاص بالناس دون الملائكة

ومن قال بهما معتقداً مصدقا فقد أسلم وكان من المسلمين ، ولما كان الاعتقاد والتصديق من الأمور الباطنة ترك شأن العبد فيهما إلى الله ، واكتفى منه بظاهر أمره وحاله ، قال - تعالى - « قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم »(١) . وعند التحقيق تجد أن الشهادة بالله إلها واحداً تعنى انفراده بالألوهية لايشرك معه فيها شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فلا إسلام مع الإشراك فى الألوهية ، وتعنى وحدانية الله فى ذاته وصفاته وأفعاله وخلقه . والشهادة بمحمد رسولا تعنى الأخذ بكل ما جاء به عن ربه ، وتعنى ان هذا الدين الذى جاء به ليس من عند نفسه ، فإنما هو رسول أمر بتبليغ الرسالة ، وما كان له إلا أن يبلغها ، « يأيها الرسول ، بلغ ماأنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته »(٢) .

(ج) وإقامة الصلاة تصل العبد بالله ، إذ يقف العبد بين يدى الله فى اليوم خمس مرات ، يدعوه ، ويناجيه ، ويستغفره ، ويستعينه ، ويستهديه ، ويسبح بحمده ، ويعلن عبوديته له ، ويثنى عليه الخير كله ، ويشكره على نعمائه ، ويرجو ثوابه وجنته ، ووقايته من ناره وعذابه . وهو فى سبيل صلاته يعتاد الطهارة والنظافة ، وتنظيم أوقاته ، وتمرين أعضائه على الرياضة .

(د) وإيتاء الزكاة يصل الغنى بالفقير والقادر بالمحروم صلة المودة والتعاطف والتكافل الاجتماعى ، إذ يشعر الغنى القادر بما أفاء الله عليه من نعمة ، فهو يشكر هذه النعمة بزكاتها . ويشعر الفقير المحروم بأنه عضو فى المجتمع وليس كما مهملا ، فهو يسعى فى خير المجتمع بريئا من

---

(١) سورة الحجرات - آية ١٤ .

(٢) سورة المائدة - آية ٦٧ .

الغل والحقد والحسد ، وبهذا تتوحد كلمة الأمة ، ويتعاون الجميع فى سبيل إنهاضها والأخذ بيدها ، بدلا من أن تشتغل كل طائفة بتوقى الطائفة الأخرى والكيد لها .

(ه) وصيام رمضان رياضة للجسم ورياضة للروح ، فهو يمنح الجسم فرصة للتدرب على الجوع والعطش ، لمواجهة ما قديعرض له من أمور الحياة التى تضطره إلى الإمساك عن الطعام والشراب ، وقد يعطيه جرعة شافية أو واقية من بعض الأمراض والعلل كالسمنة والبدانة ، إذا ما أحسن الصوم وأداه على ما ينبغى أداؤه عليه . ويمنح الصوم الروح فرصة للتطهر من أوضار الحياة ، وللاعتياد على تحمل المشقات والصعاب ، ويجعلها تدرك حاجة غير القادرين الذين لا يجدون ما يطعمون ، وتحس بمرارة الحرمان والمسغبة ، فيرق قلب الصائم ، ويكون أكثر استعداداً للبذل والسخاء ، والإسهام فى تخفيف آلام البشرية ، ومسح دموع البائسين ، وإزالة أسباب الشقاء فى مجتمع المسلمين .

(ه) وحج البيت الحرام فيه طاعة العبد بنفسه وماله ، وفيه سعيه لزيارة المناسك وأداء المشاعر ، وفيه معنى الاستسلام لأمر الله - تعالى - فى هذه الزيارة التى خص بها بيته ، وخصها أمكنة لا تمتاز من سائر الأماكن ومقامات لا تمتاز من سائر المقامات وحجارة لا تمتاز من سائر الأحجار إلا بأن الله اختارها حرما آمنا وجعلها مناط تقواه وتقديسه . وفى الحج يلتقى المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ، فيتعارفون ، ويتشاورون فى أمورهم ، ويتبادلون الخبرات والمعارف ، ويتفاهمون على صالح شئونهم ، ويقيمون بينهم روابط الأخوة ، ويجددون العهود والمواثيق على تقوى من الله ورضوان .

وقيد الحج بالاستطاعة إليه سبيلا ، اتباعا للفظ القرآن الكريم فى ذلك ، والاستطاعة تكون بالقدرة على الوصول إلى مكة من غير مشقة بالغة ، مع

الأمن على النفس والمال ، والقدرة على الرحيل (وعلى الزاد والراحلة عند بعضهم) . فإذا تحققت الاستطاعة وجب الحج على الفور (ويرى بعض أن الوجوب على التراخى) .

ومثل هذه الاستطاعة مشروطة فى الصلاة والصيام والزكاة أيضاً ، إذ لا يمكن أن يؤديها غير مستطيع لها ، ولكنها قرنت بالحج وحده لعظم المشقة فيه دونها . والله أعلم.

٣ — ثم سأل جبريل رسولنا الكريم عن الإيمان .

(ا) والايمان فى أصــله هو التصديق ، وهو عمل من أعمال القلب لا يطلع عليه إلا الله — سبحانه وتعالى . وقد انصب الايمان فى الحديث على تصديق خاص بستة أمور : بالله ، وبملائكته ، وبكتبه ، وبرسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره . وليس من شك فى أن التصديق بالله هو أس الايمان وركنه الأساسى وقاعدته العريضة ، لأن من آمن بالله آمن بسائر خلقه من الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر .

وقد ذكرنا فيما قبل الآية الكريمة « قالت الأعراب: آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا : أسلمنا » . ومعها إشارة إلى تغاير الإسلام والإيمان ، إذ أن المنافقين كانوا ينطقون بالشهادتين ويصلون ويتصدقون ، ولكنهم كانوا ينكرون بأفئدتهم ولا يصدقون ، فلما جاءوا الرسول يزعمون إيمانهم كذبهم الله فى زعمهم ، وإن قبل منهم أن يقولوا بالاسلام لأنهم يتعاطون الاسلام ويمارسونه . وعند التحقيق نجد أن تخصيص الايمان بهذه الأمور الستة إنما هو بيان لأصل الايمان ، ولا مانع من أن يتناول الايمان حقيقة الاسلام كما قررها الحديث ويتناول سائر الطاعات ، لأنها جميعا من ثمرات التصديق الباطنى الذي هو أصل الاسلام، وقد قالوا فى تفسير قوله تعالى : « وما كان الله ليضيع

إيمانكم »(١) — معناه : وما كان ليضيع صلاتكم فأطلق اسم الايمان على الصلاة . وقالوا فى قوله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم(٢) » — إن الايمان قول وعمل يزيد بزيادة ثمراته وينقص بنقصها ، أى يزيد بزيادة الطاعات وينقص بنقصها . وقد سبق أن بينا أن الاسلام يثبت حكمه فى الشهادتين وأن الصلاة والزكاة والصيام والحج أضيفت إلى ذلك لأنها أظهر شعائر الدين ، وبأدائها جميعا يتم الاستسلام أو يصح الاسلام ، فالاسلام أيضاً يتناول ما هو أصل الايمان وهو الشهادة بالله ربا وبمحمد رسولا ، فالشهادة تقتضى التيقن والاعتقاد ، كما يتناول الاسلام أصل الطاعات ، وذلك كله استسلام وانقياد وإذعان .

(ب) والايمان بالله لا يعنى فقط مجرد التصديق بوجوده — سبحانه وتعالى — وأنه الخالق ، فقد كان المشركون يرون ذلك ولم يعتبر الله هذا إيمانا منهم ، وحكى عنهم قوله : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله . فأنى يؤفكون »(٣) وقوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون(٤) » . وقوله : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله . قل : الحمد لله . بل أكثرهم لا يعقلون »(٥) ، وقوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم

(١) سورة البقرة ـ آية ١٤٣ .

(٢) سورة الفتح ـ آية ـ آية ٤ .

(٣) سورة الزخرف ـ آية ٨٧ .

(٤) سورة العنكبوت ـ آية ٦١ .

(٥) سورة العنكبوت ـ آية ٦٢ ؛

لا يعلمون»(١ وقوله: «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته . قل : حسبى الله . عليه يتوكل المتوكلون(٢) » . فهذا الاعتراف بوجود الله وأنه الخالق لم يكن يكفى فى تحقيق الايمان ، وإنما يجب أن يكون مع التصديق بوجود الله الاقرار بوحدانيته فى ذاته وصفاته وأفعاله وخلقه ، واتصافه بكل كمال ، وتنزهه عن كل نقص ومحال ، فلا شريك له ، ولا يشبهه شيء فى الوجود ، بل هو منزه عن الشريك وعن الشبيه ، ومنزه عن صفات المخلوقات ، وهو الحاكم المدبر المنفرد بالحكم والتدبير ، الفعال لما يريد ، المتصرف فى ملكه كما يشاء .

ووحدة المعبود الحق تتفق والعقل وتقبلها الفطرة البشرية السليمة ، قال تعالى : « قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ « سيقولون : لله . قل أفلا تذكرون « قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ « سيقولون : لله : قل : أفلا تتقون « قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ « سيقولون : لله قل : فأنى تسحرون « بل أتيناهم بالحق ، وإنهم لكاذبون « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض . سبحان الله عما يصفون ! « عالم الغيب والشهادة ، فتعالى عما يشركون » (٣) .

وممارسة عقيدة التوحيد ترجع تاريخيا — فيما نعلمه — إلى مبدأ تاريخ

---

(١) سورة لقمان آية ٢٥ :

(٢) سورة الزمر - آية ٣٨ .

(٣) سورة المؤمنين - الآيات ٨٤/٩٢ .

الإنسان ، وتدل(١) أعمال التنقيب التى أجريت فى المشرق العربى على أن الإيمان بإله واحد يرجع إلى المراحل المبكرة لتاريخ الإنسان كما أن المعرفة بألوهية الخالق(٢) ليست بعيدة عن إدراك أى بشر سوى .

(ج) والإيمان بملائكة الله التصديق بوجودهم ، وأنهم «عباد مكرمون » لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون(٣)» ، «وهم لا يستكبرون » يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون(٤)» . «لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون(٥)» . وهم خلق نورانيون طاهرون قادرون على التشكل بما شاء الله لهم من الأشكال ، وهم يبلغون من الكثرة مالا يعلمه إلا الله . ويجب علينا معرفة عشرة منهم بأسمائهم ، وهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل . وعزرائيل ، ومنكر ، ونكير ، ورضوان ، ومالك ، ورقيب ، وعتيد .

واعلم أن المخلوقات من حيث العقل والشهوة ثلاثة صنوف : الملائكة لهم العقل ، والبهائم لها الشهوة ، والناس لهم العقل والشهوة ، فمن غلب عليه أحدهما كان أدنى إلى صنفه .

(د) والايمان بكتب الله التصديق بأنها كلام الله وأن جميع ما تضمنته حق وأنها أنزلت على رسله إلى البشر . وقيل : إنها أربعة ومائة (٥٠ لشيث

---

(١) و(٢) من محاضرة باللغة الانجليزية ألقاها الكاردينال فرنزيكوس كوينج رئيس أساقفة فينا بالنمسا فى قاعة الشيخ محمد عبده فى ٢٢ من ذى القعدة ١٣٨٤هـ/ ٣١ من مارس ١٩٦٥م وترجمها إلى العربية الدكتور محمد محمود غالى . والفقرة الأولى عن «جساندى» والثانية عن «كارير» .

(٣) سورة الأنبياء : آية ٢٦ و٢٧ .

(٤) سورة النحل : آية ٤٩ و٥٠ .

(٥) سورة التحريم : آية ٦ .

+ ٣٠ لأدريس + ٢٠ لإبراهيم + ١٠ لآدم — وقيل لموسى قبل التوراة + ٤ وهى التوراة لموسى ، والزبور لداود ، والإنجيل لعيسى ، والقرآن لمحمد) وهذه الأربعة الأخيرة تجب معرفتها بأسمائها .

(هـ) والإيمان برسل الله التصديق بهم ، وبأنهم من البشر اصطفاهم الله لرسالته ، وأرسلهم إلى الناس « رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »(١) ، وبأنهم بلغوا الرسالات، وكانوا صادقين فيما أخبروا عن الله — سبحانه وتعالى — وبأن الله أيدهم بالمعجزات الدوال على صدقهم ، وبأنه يجب احترامهم ، « لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »(٢) .

وهم كثير ، ويجب علينا أن نعرف خمسة وعشرين منهم بأسمائهم ، وهم بحسب ترتيبهم فى الإرسال : آدم ، وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وشعيب ، وهارون ، وموسى . وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وذو الكفل، ويونس ، وإلياس ، واليسع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وأولو العزم منهم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد .

(و) والإيمان باليوم الآخر التصديق بوجوده وبجميع ما اشتمل عليه من إعادة الخلق بعد الموت وبعثهم وحشرهم ونشرهم وحسابهم ووزن أعمالهم ومرورهم على الصراط ومصيرهم إلى الجنة داراً للثواب أو إلى

---

(١) سورة النساء - آية ١٦٥ .
(٢) سورة آل عمران - آية ٨٤ .

النار داراً للعقاب . واليوم الآخر قالوا : إنه من وقت الموت أو من الحشر إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة ويدخل أهل النار النار أو إلى مالا يتناهي مما لا يعلمه إلا الله .

والبعث بعث مادى وليس بعثا للأرواح وحدها كما يتوهم بعض الواهمين . وعلى المرتابين أن يفقهوا هذا المثل وجوابه كما حكاهما القرآن الكريم بمنطق العقل : قال تعالى : « وضرب لنا مثلا — ونسى خلقه — قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟ * قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ! بلى ، وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ! »(١) ثم ليفقهوا إن كانوا ما يزالون فى ريب من البعث أطوار الخلق فى أنفسهم وفى نبات الأرض فى قوله تعالى : « يأيها الناس ، إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم . ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم . ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور »(٢) .

(ز) والإيمان بالقدر — خيره وشره — التصديق بأن الله قدر الخير وقدر

---

(١) سورة يس — الآيات ٧٨/٨٢ .

(٢) سورة الحج — الآيات ٥/٧ .

الشر قبل الخلق: فكل ما كان بتقدير الله ، وكل ما يكون بتقدير الله، وتقديره سبحانه وتعالى يجرى مع قضائه النافذ وعلى حسب إرادته وعلى مقتضى علمه . وخير القدر الإيمان والطاعات وسائر الأعمال الصالحة، وشر القدر الكفر والمخالفة عن أمر الله وسائر أفعال المعاصى. وفى رواية: «تؤمن بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره »، فحلو القدر ماوافق النفس ولائم الطبع كالتنعم بالنعم والتلذذ بملاذ الحياة كالسعة والخصب والسلامة والعافية والمأكل والمشرب. ومر القدر كل ما تكرهه النفس وينفر منه الطبع كالفقر والجدب والمرض والسقم والجوع والعطش .

وكان بعض السلف الصالح يجيب من سأله عن القضاء والقدر بقوله : (أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك) وفى حديث ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسولنا الكريم ﷺ قال : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » . وسئل على بن أبى طالب عن القضاء والقدر فقال لسائله : عندما خلقك الله أخلقك كيف يشاء هو أم كيف تشاء أنت ؟ قال الرجل : كيف يشاء الله . قال على : أفيحييك كيف يشاء أم كيف تشاء ؟ قال الرجل : كيف يشاء . قال على : أفيميتك كيف يشاء أم كيف تشاء ؟ قال الرجل : كيف يشاء . قال على : أفيحاسبك كيف يشاء أم كيف تشاء ؟ ،قال الرجل: كيف يشاء. قال على : إذن فليس لك من الأمر شىء .

ولو تدبر الإنسان وتفكر لأدرك أن فى الحياة الدنيا أمورا تسره وأمورا تسوءه ،وأن هذه وتلك تقع من غير أن يباشر فيها الإنسان عملا أو يقدر لها تقديرا، فلم تكن له إرادة فى إيجادها على الوجه الذى وجدت به،ولا علم له بما يقع منها ولا يقع ، ولا اختيار له فى أمر وجودها على الإطلاق، وإنما

الإرادة فى هذا كله، والعلم فى هذا كله إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ فالقضاء فيها لله وحده ، والحكم فيها لله وحده ، والتصرف فيها لله وحده. فما وقع منها إنما وقع على حسب إرادة الله وعلمه وليس على حسب إرادة الإنسان وعلمه، سواء كانت موافقة لأهواء الإنسان ورغباته أم غير موافقة. وكذلك ما يقع منها إنما يقع على حسب إرادة الله وعلمه وليس على حسب إرادة الإنسان وعلمه سواء وافقت أهواء الانسان ورغائبه أم لم توافقه.

ولقد نقف عاجزين عن تفسير ما نشاهده فى أحوالنا من مظاهر القضاء والقدر ، إن علينا إذن أن نسلم لله ، ولا نعاند قضاءه وقدره ، لكن لا نيئس إذا جرت المقادير بغير ما نحب ، لأن المقادير تجرى بإرادة الله وعلى مقتضى علمه ، وعقولنا ما تزال ــ وستظل ــ فى مهد الطفولة غير مدركة حكمة جريان المقادير على غير ما نهوى ونحب . ثم علينا أن نستمر فى العمل ونسعى سعياً دائبا فى الخير ، ونأخذ بالأسباب الموصلة إلى تحقيق الغاية المنشودة ، فإن وصلنا إليها تحقق لنا ما ننشده وما قدره الله وقضاه ، وإن لم نصل إليها لم نحقق ما ننشده وإنما تحقق حتما ما قدره الله وقضاه .

٤ ــ ثم سأل جبريل رسولنا الكريم عن الإحسان : فأجابه الرسول هذه الإجابة الحكيمة التى تعتبر من جوامع كلمه ﷺ إذ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . والإحسان فى العبادة يقتضى ثلاثة أمور : اتقان العبادة وأداءها على وجهها الصحيح ، وأداءها كواجب وبوازع من النفس دون انتظار عوض أو مقابل ، ومراقبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها وهذا كله يتطلب : الاخلاص لله فى العبادة ، والاستحياء منه واظهار الخضوع والعبودية له كأنك تعاينه، فإن لم تكن فى هذه الحالة فاستحضر عظمة الله ،وضع نفسك فى حال الماثل بين يديه ،فهو يراك ويطلع منك على ما تسر وتعلن وعلى ما تنوى وتبدى .

ومن يحسن صلته بالله يحسن صلته بكل شيء في الكون، ومن يلتمس أداء الطاعات مستحضرا رؤية الله وشهوده يتجاوز مرائى الدنيا ومشاهدها إلى رؤية الحق — تعالى — وشهوده، ومن يكن كذلك يكن ربانيا، وتدركه الخشية: «إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير»(١). «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى»(٢).

والعابد فى واحد من ثلاثة مقامات: أولها أن يؤدى عبادته مستوفية شروطها وأركانها على الوجه الذى يسقط معه الطلب ، وثانيها أن يؤدى عبادته كذلك وقد استغرق فى بحر المكاشفة حتى كأنه يرى الله ويشهد الله ، وهذا مقام المشاهدة ، وثالثها أن يؤدى عبادته كذلك وقد غاب عنه أن الله يراه ويشهده ، وهذا مقام المراقبة. والثلاثة المقامات إحسان، والمقام الأول منها هو اللازم لصحة العبادة ، والثانى والثالث منها لا يقدر عليهما إلا خواص العابدين. وليعلم الجميع أن لا وساطة بين العبد وربه ، قال تعالى: «وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى ، لعلهم يرشدون»(١) ، فالله قريب من عباده ، يجيب دعوة من يدعوه منهم ، فعليهم أن يتوجهوا إليه بالاستجابة كلها ، ويصرفوا إليه الإيمان كله ، ففى ذاك رشادهم وسلامة أمرهم.

٥ — ثم سأل جبريل رسولنا الكريم عن الساعة أى عن زمان وقوعها(٤)

---

(١) سورة الملك — آية ١٢ .

(٢) سورة النازعات — آية ٤٠و٤١ .

(٣) سورة البقرة — آية ١٨٦ .

(٤) أما هى كحقيقة وواقع فمقطوع بها ويشملها الإيمان باليوم الآخر كما سبق .

فأجابه الرسول إجابة حكيم ، قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» ، فشمل هـذا الجواب كل مسئول وسائل وليس محمداً وجبريل - عليهما السلام - وحدهما ، أى أن كل مسئول عنها وكل سائل عنها سواء فى عدم العلم بها . وعلم الساعة مما استأثر به الله - سبحانه وتعالى - قال - جل شأنه - : «إن الله عنده علم الساعة» (١) . والساعة هى القيامة ، سميت الساعة مع امتداد زمانها لأنها تقع فجأة ، ولها أكثر من مائة اسم بحسب مايعرض للخلق فيها (٢) . وقد كثر سؤال الناس عنها فأنزل الله فيهم قوله : «يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ . قل : إنما علمها عند ربى . لايجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض ، لاتأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل: إنما علمها عند الله .ولكن أكثر الناس لايعلمون»(٣). فهم يسألون عن وقت إرسائها تشبيها لها بالسفينة ترسى على الشط ، وجاء الجواب بأن علم ذلك عند الله ، فلا تزال خفية لايظهر أمرها إلا الله، ولا يكشف خفاءها إلا الله وحده إذا جاء بها بغتة ، فثقلت وشق أمرها على من فى السموات والأرض ويسألون ملحفين فى السؤال كأنك - يامحمد - حفى عنها أى عالم بها . والجواب واحد : علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لايعلمون أن الله وحده هو المختص بعلمها .

٩ - وسأل جبريل رسولنا الكريم عن أمارات الساعة وعلاماتها ، فأخبره الرسول عن اثنتين من هذه الأمارات ؛ قال : «أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان» .

---

(١) سورة لقمان - آية ٣٤ .

(٢) تقرؤها فى إحياء علوم الدين - كتاب ذكر الموت وما بعده .

(٣) سورة الأعراف - آية ١٨٧ .

(ا) فمن أمارات الساعة أن تلد الأمة ربتها (وفى رواية : أن تلد الأمة ربها) . ويمكن أن يفهم ذلك على عدة فروض، تدور حول فساد الأحوال واضطراب الأمور ، ومن هذه الفروض : أن يكثر عقوق الأولاد لأمهاتهم فيعاملونهن معاملة السيد لأمته من الإذلال والمهانة ، ومن هنا يكون إطلاق الربة — أو الرب — على الولد مجازا ، ويستأنس له برواية (أن تلد المرأة ربتها) . ومنها أن يغلب الجهل على الناس ويستهينوا بأحكام الشرع فيبيحوا بيع المستولدات حتى يشترى الولد أمه وهو عارف بأنها أمه أو غير عارف. ومنها — إذا قصدنا من الرب المربى أى القائم بالتربية — أن تنعكس الأمور بحيث يصير الولد المستحق للتربية هو القائم بتربية أمه ، ويسانده ماتتضمنه الأمارة الثانية من صيرورة الحفاة العراة العالة رعاء الشاء كالملوك يتطاولون فى البنيان . وفى رواية (أن تلد الأمة بعلها) ومن معانى البعل الرب والصاحب، فإن أريد منه الزوج كان المعنى أن تكثر السرارى ويستهان بالمستولدات منهن حتى يتزوج الانسان أمه وهو لايدرى أنها أمه .

(ب) ومن أمارات الساعة أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، ومحصله أن تبسط الدنيا لهؤلاء الأسافل حتى يصبحوا السادة وأهل الثراء والجاه ويصبحوا المتحكمين فى أقدار الناس، فينصرفوا إلى تشييد البنيان والمطاولة فيه أى التفاخر بطوله وارتفاعه، ويصبح ذاك همهم من دون إرساء قواعد الشريعة ، فيستشرى الفساد ، وتعم الفوضى وتضيع الحقوق ، وتهدر العدالة .

(ج) وأنت تلحظ أن الرسول أخبر عن اثنتين من أمارات الساعة ، اقتصر عليهما لما لقرب وقوعهما من زمنه ، فهو ينبه لها، ولما تحملانه من الخطر على البشرية، ويحذر منهما . وللساعة أمارات أخر وردت بها الأخبار، منها: كثرة الفتن، وشيوع المعاصى والمنكرات . والمجاهرة بها، وتعطيل حدود الله . وقبض العلم بموت أهله ، وتقاعس الأئمة عن الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر، ومنها ظهور المهدى، ونزول عيسى بن مريم داعية لدين الإسلام، وخروج الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وهذه كلها من الأمارات السابقة. أما الامارات المقارنة لوقوعها فكثيرة، ومنها: طلوع الشمس من مغربها، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال، وزلزلة الأرض، وانفطار السماء، وانتثار الكواكب .. إلى غير ذلك مما حدث به القرآن الكريم.

٧ - وبعد أن أنهى جبريل - عليه السلام - مهمته غادر مجلس الرسول وانطلق، ولا يعرف أحد إلا أنه رجل جاء يسأل عدة أسئلة وأجيب عنها، وفى بعض الروايات أن الرجل أدبر فطلب الرسول إلى الحضور أن يردوه، فأخذوا يبحثون عنه فلم يجدوا له أثراً، وعرف الرسول أنه جبريل فأخبرهم بخبره. ويبدو أن سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لم يكن لدى الرسول عندما أخبرهم بخبر جبريل، وإنما لبث الرسول (أو لبث عمر) مليا - ثلاثة أيام كما فى بعض الأخبار - حتى أخبر عمر بخبر جبريل وأنه جاء يعلم الناس أمور دينهم.

وفى قول الرسول - صلى الله عليه وسلم: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» دليل على أن الدين يشمل الإسلام والإيمان والإحسان. ولا ينافى هذا إطلاقه على الإسلام وحده فى قوله تعالى: «إن الدين عند الله الإسلام(١)»، وقوله: «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه» (٢)، وقوله: «وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا» (٣). فإن الدين يشمل الإسلام والإيمان والإحسان على سبيل الاشتراك، أو على سبيل الاتساع.

وفى هذه الرواية بدأ جبريل بالسؤال عن الإسلام فالإيمان فالاحسان،

---

(١) سورة آل عمران - آية ١٩.
(١) سورة آل عمران - آية ٨٥.
(٣) سورة المائدة - آية ٣

وفى رواية للبخارى سأل عن الايمان فالاسلام فالاحسان، وفى رواية مطر الوراق سأل عن الإسلام فالاحسان فالايمان. والقصة فى هذا كله واحدة، والتقديم والتأخير فيها إنما هو من الرواة، فهم الذين اختلفوا فى صورة تأديتها.

وفى إجابة سيدنا عمر «الله ورسوله أعلم» أمران، فى كليهما أسوة لكل إنسان يجهل ما يسأل عنه، الأول أنه لا عيب عليه أن يقول: «لا أدرى»، بل إن أمانة العلم توجب هذا، والآخر أن فى إسناد العلم إلى الله وإلى من يعلم من العباد دليلا على التقوى والورع.

الحديث الثالث

أركان الإسلام

عن أبي عبد الرحمن عبدالله بن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنهما - قال : سمعتُ رسولَ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول : « بُنِي الإسلام على خَمس : شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمداً رسولُ الله ، وإقامِ الصلاةِ ، وإيتاءِ الزكاةِ ، وحج البيتِ ، وصومِ رمضانَ » رواه البخارى ومسلم .

راوى الحديث :

هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وأبوه عمر بن الخطاب ، وأمه زينب بنت مظعون ، وخاله عثمان بن مظعون . ولد قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة ، وأسلم بمكة وهو صغير مع أبيه ، وهاجر معه ، ولم يشهد بدرا ، وعرض على النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد ، فرده لصغره وكان يومئذ فى الرابعة عشرة ، وأجازه بعد عام فى وقعة الخندق ، وبعدها لم يتخلف عن المشاهد . عاش ورعا ، عابدا ، متصدقا ، متعففا ، قارئاً للقرآن الكريم قراءة اعتبار ، وحج ستين حجة ، قالوا : واعتمر ألف عمرة ، وأعتق ألف رقبة ، وحمل على ألف فرس فى سبيل الله . وتوفى بمكة سنة ٧٣ هـ (وقيل ٧٤ هـ) عن بضع وثمانين سنة ، وذكروا فى سبب موته أن الحجاج خطب يوما فأخر الصلاة ، فناداه عبدالله بن عمر وقال له : (إن الشمس لاتنتظرك) ، فقال له الحجاج : (لقد هممت أن أضرب الذى فيه عيناك) . فقال له عبد الله : (إنك سفيه مسلط) ، فتغيظ الحجاج من ذاك ، وأمر رجلا أن يسق زج رمحه سما ، ويزحم به ابن عمر

فى الطواف ، فيدس قدمه بالزج ، فقمل ، ومرض ابن عمر أياماً ، مات بعدها .

وابن عمر أحد العبادلة الأربعة ، والمشهور أنهم : عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن عمرو بن العاص .

وابن عمر أحد الصحابة السبعة الأكثر رواية لحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم : أبو هريرة ، وابن عمر ، والسيدة عائشة ، وابن عباس ، وجابر بن عبدالله ، وأنس بن مالك ، وأبو سعيد الخدرى . وقد روى لابن عمر أكثر من ستمائة وألف حديث .

شذور لغوية :

بنى الإسلام على خمس : البناء نقيض الهدم ، والمقصود بالبنـــاء هنا التأسيس ، والمراد بالإسلام هنا الانقياد العام أى الإسلام بحسب أصله لا الإسلام بحسب مفهومه الشرعى ؛ لئلا يلزم بناء الشىء على نفسه . وعلى : بمعنى الباء ، أو بمعنى (من) كما فى قوله تعالى : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون » أى اكتالوا منهم ، والتقدير بنى الإسلام بخمس ، أو بنى من خمس . والخمس خمس دعائم كما ورد التصريح بذلك فى رواية عبد الرازق، أو خمسة أركان كما فى رواية لمسلم، والتقدير على الأولى : خمس دعائم ، وعلى الثانية : أركان خمس ، وذلك أن المعدود إذا تقدم على العدد جازت مطابقة العدد ومخالفته فى التذكير والتأنيث ، والتزام المخالفة إنما يكون فى العدد إذا تقدم على المعدود .

شهادة : الشهادة الاخبار عن أمر متيقن .

إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان : سبق

بحثها فى الحديث الثانى(ص ٣٢ و ٣٣) فارجع إليها . وإقام أصلها إقوام : على وزن إفعال مصدر (أقام)، نقلت حركة الواو إلى ماقبلها فالتقى ساكنان فحذف أحد الساكنين لالتقائهما ، وقيل المحذوف الواو ، وقيل الألف ثم قلبت الواو ألفاً . والأكثر أن يعوض عن المحذوف التاء فيقال (إقامة) .

مسائل نحوية :

سمعت رسول الله يقول : فى ص ١٦ إعراب مثل هذه الجملة .

بنى الإسلام : الفعل مبنى للمفعول ، والإسلام نائب الفاعل ، وحذف الفاعل لاشتهار العلم به وهو الشارع .

شهادة . . . بالجر بدل من خمس أو عطف بيان ، وبالرفع مبتدأ خبره محذوف والتقدير: منها شهادة ،أو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هى شهادة..الخ أو أحدها شهادة ، وبالنصب مفعول به لفعل محذوف والتقدير: أعنى شهادة. والمعطوفات عليها توابع لها .

أن لا إله إلا الله : سبق تفصيل القول فى إعرابها فى صفحة ٣٨ .

أسرار بلاغية :

بنى الإسلام على خمس : الأصل فى البناء أن يكون فى المحسوسات لا فى المعانى فاستعماله فى المعانى كالإسلام من باب المجاز . ولك أن تجرى فى « الإسلام » استعارة مكنية إذا قدرت تشبيه الإسلام ببناء عظيم محكم له دعائم وأركان ، ثم طويت هذا المشبه به ودللت عليه بما هو من خواصه وهو الفعل،وعلى هذا يكون الفعل « بنى » تخييلا ، ولك أن تجرى فى « بنى »

استعارة تصريحية تبعية إذا قدرت تشبيه ثبات الإسلام واستقامته على الشهادتين والشعائر الأربع بعد الشهادتين ببناء الخباء على خمسة الأعمدة ، ثم اشتققت منه (بنى) بمعنى ثبت واستقام على هذه الأمور . ولك أن تجرى الاستعارة تمثيلية إذا قدرت تشبيه حالة الإسلام مع أركانه الخمسة بحالة خباء أقيم على خمسة أعمدة ، فالقطب الذى تدور عليه هذه الأركان هو الشهادتان والشعائر الباقية كالأوتاد للخباء ، ثم استعير اللفظ الدال على حالة المشبه به لحالة المشبه .

إقام الصلاة وإيتاء الزكاة : تعرف إلى البلاغة فيهما ص ٤٠ .

فكرة الحديث :

يبين الحديث الشريف أركان الإسلام ودعائمه التى يقوم عليها و يتحقق بها . والإسلام يصح بالشهادة ، ثم يكتمل بالشعائر الأربع الباقية (الصلاة، والزكاة ، والحج ، والصوم) وبها يتم انقياد المسلم ، لأنها - أى هذه الشعائر الأربع - مبنية على الشهادة ، والإسلام مبنى على المجموع وهو الخمس . والشهادة بوحدانية الله وبرسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - أصل الإسلام وأساسه فعدمها هو الكفر الصريح ، والشعائر الأربع فروض على المسلمين ذكورهم وإناثهم ، فيلزمهم أداؤها ، فمن أنكرها وجحدها عد كافرا ، ومن تهاون فى أدائها وأهملها اختل إسلامه وضعف .

الإيضاح والبيان :

١ - أوضح رسول الله ﷺ أن هذا الإسلام ذو أركان خمسة أو ذو دعائم خمس، عليها يبنى ويؤسس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان .

٢ - وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله معناها الإقرار بالقلب وباللسان بوحدانية الله والإقرار بالقلب وباللسان برسالة محمد ﷺ

وهذه الشهادة بشقيها هى أصل الاسلام وأساسه ، وبها يتحقق ويصح ، فمن شهدها دخل فى الاسلام وعد مسلماً ، ومن أنكرها أنكر الاسلام وعد كافرا ، فهو لا يدخل فى الاسلام ولا يعد مسلما مالم يبدها ، فعدم النطق بها يضع الانسان حيث هو غير مسلم . ولما كان الايمان بمضمون الشهادة من بواطن الأمور التى لا يطلع عليها إلا الله جعل الاسلام منوطا بالنطق وحده . وفى حديث الرسول : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . . .(١)» دليل على الاكتفاء بالمقالة ممن يدخل فى الاسلام واعتباره مسلماً .

٣ — والشهادة بأن لا إله إلا الله تعنى تحرر العبد من كل ألوان العبودية إلا من عبوديته لله وحده ، وتعنى وحدانية الله — سبحانه وتعالى — فى ذاته وصفاته وأفعاله وخلقه ، فهو(٢) : واحد لا شريك له ، فرد لا مثيل له ، منفرد لاند له . قديم لا أول له ، مستمر الوجود لا آخر له ، أزلى لا بداية له ، أبدى لا نهاية له ، قيوم لا انقطاع له ، دائم لا انصرام له ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ، ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، ولا يماثل الأجسام فى التقدير ولا فى قبول الانقسام ، وليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، وليس بعرض ولا تحله الأعراض ، ولا يماثل موجوداً ، ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شىء ولا هو مثل شىء ، ولا يحده المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ذو العرش وهو مع ذلك رفيع الدرجات عن العرش والسماء وعن الأرض والثرى ، وهو قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، ولكن لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذوات الأجسام ، ولا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء ، وهو — سبحانه وتعالى — حى قادر ، جبار قاهر ، لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، فله الملك والعزة

---

(١) الحديث الثامن ، ورواية (يقولوا) واحدة من روايات الحديث .
(٢) إحياء علوم الدين — كتاب قواعد العقائد .

والسلطان والقهر والخلق والأمر ، وهو عالم بجميع المعلومات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرضين والسموات ، يعلم السر وأخفى بعلم قديم أزلى لا بعلم متجدد حاصل ، وهو — جل شأنه — مريد للكائنات ، ومدبر للحادثات ، فلا يجرى فى الكون شىء إلا بقضائه وقدره ، وحكمته ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو تعالى سميع بصير ، يسمع من غير أصمخة وآذان ، ويبصر من غير حدقة وأجفان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق ، وهو — تقدس وتنزه — متكلم آمر ناه ، واعد متوعد ، بكلام أزلى قديم بذاته لا يشبه كلام الخلق ، فليس بصوت ولا بحرف ، وهو — جل شأنه — حكيم فى أفعاله ، عادل فى أقضيته ، لا يقاس عدله بعدل العباد ، ولا يتصور الظلم منه ، وكل ما سواه حادث اخترعه الله بقدرته بعد العدم اختراعا ، وأنشأه بعد أن لم يكن شيئاً ، إذ كان الله فى الأزل موجوداً وحده ، ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعد ذلك ، إظهارا لقدرته ، وتحقيقا لما سبق من إرادته ، ولما حق فى الأزل من كلمته ، وليس لافتقاره إليه وحاجته ، فهو — سبحانه وتعالى — متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم ، وهو — عز وجل — يثيب عباده المؤمنين على الطاعات ، بحكم الكرم والوعد ، لا بحكم الاستحقاق واللزوم له ، إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا حق. ثم إن حقه فى الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه ورسله ، ولهذا بعث الرسل ؛ ليبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به .

٤ — والشهادة بأن محمداً رسول الله — وفى رواية أن محمداً عبده ورسوله — تعنى وجوب اقتران الشهادة برسالة محمد بالشهادة بوحدانية الله ، فلا يصح الاسلام إلا بهما معاً ، وتعنى أن هذا الشرع الذى جاء به محمد ﷺ — من عند الله وليس من عند محمد ، فقد اصطفاه الله واجتباه لرسالته ، والله أعلم حيث

يجعل رسالته »(١) ، وأمره أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه فإن لم يفعل فما بلغ الرسالة وما ادى الأمانة ، « يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس »(٢) ، وهذه الرسالة هى خاتمة الرسالات وصاحبها هو خاتم النبيين ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله ، وخاتم النبيين (٣) » وهذه الرسالة هى الرسالة العامة الباقية الناسخة لغيرها من الرسالات ، قال تعالى : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون »(٤) وقال تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(٥) وقال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لايعلمون »(٦) .

والشهادة بأن محمداً رسول الله تعنى (٧) وجوب الأخذ بكل ما جاء به رسول الله من أوامر ونواه ، لأنه يتكلم عن الله — تعالى — فيما يتعلق بالتكليفات والأحكام ، قال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله

---

(١) سورة الأنعام - آية ١٢٤ .

(٢) سورة المائدة - آية ٦٧ .

(٣) سورة الأحزاب - آية ٤٠ .

(٤) سورة الأعراف - آية ١٥٨ ،

(٥) سورة الأنبياء - آية ١٠٧ .

(٦) سورة سبأ - آية ٢٨ ،

(٧) العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم للشيخ محمد أبى زهرة - من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية .

فقد ضل ضلالا مبينا» (١)، وقال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب »(٢)فيجب الاعتقاد الجازم بأن الشرائع والأحكام التى قررها محمد رسول الله وثبتت نسبتها إليه - صلى الله عليه وسلم - بطريق قطعى لاشبهة فيه هى من عند الله ، ويجب الاعتقاد الجازم بأن القرآن الكريم قد أنزله الله على رسوله ،وأن هذا القرآن بعباراته ومعانيه وأحكامه من عند الله ، وأن هذا القرآن حق لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن هذا القرآن محفوظ إلى يوم القيامة لايعتريه تغيير ولا تبديل ، قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٣) .

ويجب الاعتقاد الجازم بأن كل ما فى القرآن من أحكام تكليفية من عند الله فلا مجال لإنكارها ، فما أحله الله بالنص حلال ، فلا يؤمن بالقرآن من اعتقد تحريم هذا الحلال ، وما حرمه الله بالنص حرام ، فلا يؤمن بالقرآن من استحل هذا الحرام ، لأنه يكون غير مؤمن بالرسالة المحمدية .

ويجب على من يؤمن برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يذعن لكل ما علم من الدين بالضرورة ، كالصلوات الخمس وعدد ركعاتها ، وصوم نهار رمضان ، ومناسك الحج ، فإن هذا كله مما وردت به الأخبار متواترة عن الرسول ، وانعقد عليها الإجماع ، مما لايدع مجالا للظنة فيها ، فصارت من العلم الضرورى الذى لايسع مسلما أن يجهله . ويقوم الإيمان بالرسالة المحمدية على الإيمان بالغيب وباليوم الآخر والتصديق بما جاء به الرسل السابقون. والرسل كل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لايشركون به شيئاً وإلى الايمان بالغيب واليوم الآخر ، فلا ينصب التصديق بهم وبما جاءوا به

(١) سورة الأحزاب - آية ٣٦ .
(٢) سورة الحشر - آية ٧ .
(٣) سورة الحجر - آية ٩ .

على الأوهام التى تشيع بين الكتابيين ، من مثل عبادة المسيح ، ونسبة إلى الله ابنا ، والتثليث ، واعتبار اليهود عزيراً ابن الله ، وتحريف الكلم ، وتأليف الأناجيل ، وتبديل نصوصها كل عام ، وإخفاء حقائق التوراة ، وإظهار مايخدم العنصرية البغيضة منها .

٥ — وشعائر الاسلام الأربع (الصلاة والزكاة والحج والصيام) بنى عليها هذا الإسلام بعد الشهادة ، وكل شعيرة منها تمثل حركة المسلم الإيجابية لطاعة الله وعبادته والانصياع لأمره والاتصال به والتوجه إليه والتقرب منه ، ولا تختلف إلا فى صورها وأشكالها ووعائها الزمانى والمكانى والاجتماعى ، لأمر مقدور وحكمة يعلمها الشارع الحكيم ، ولكننا نجد فى تبينها بحكم ماركب فينا من البحث عن العلة والسبب والداعية والغرض والهدف ، مع أن إيماناً كإيمان العجائز كفيل بالسعادة فى الدارين ، فكل منها أمر الله به وفرضه ، وما علينا إلا أن نطيع الله فيما أمر به وفرض ، ونهتدى بهدى رسوله الكريم عند أداء هذه الفروض .

٦ — فالصلاة(١) : عماد الدين ، وغرة الطاعات ، وموطن الحديث إلى الله ، بها يستقبل المسلم يومه بالطاعة ، وينهى يومه بالعبادة ، وبها يفتتح المسلم نهاره بمناجاة ربه ، ويختم ليله بالتهجد والقيام ، وفيها يصبح العبد ويمسى أقرب ما يكون من ربه ، يخاطبه ، ويدعوه ، ويقر له بالعبودية ، ويستعينه ، ويرجو منه الهداية ، وتمام النعمة ، ويسبح بحمده ، ويستغفره ، ويقدم بين يديه التحيات المباركات والصلوات الطيبات ، ويشهد أن لا إله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن ما أتى به الرسول من عند الله هو الحق ، وأن الدين عند الله الاسلام .

وإذا أدى المسلم صلاته على وجهها ، فأفرغ فيها لله قلبه ، وأقبل

---

(١) فى رحاب الهدى النبوى للدكتور محمد السعدى فرهود ـ ص ١٢٧ .

عليه بظاهره وباطنه ، جعل الله له صلاته نوراً فى الدنيا وفى الآخرة ، فهى تكون له نوراً فى الدنيا ، لأنها تهديه إلى الخير والصواب ، وتمنعه من المعاصى وتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وتمنحه الإشراق والبهاء . وتكون له نورا يوم القيامة فيظهر على وجهه نورها ، ويكون أجرها نوراً لصاحبها. وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « من حافظ على الصلوات الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة ، ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان ، وقال: « خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، فمن جاء بهن فلم يضيع منهن شيئاً استخفافا بحقهن كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة »

وإقام الصلاة المحافظة عليها فى أوقاتها ، مع استيفاء شروطها وأركانها وإكمال واجباتها وسننها . والصلوات خمس فى اليوم : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء . وقال الرافعى فى شرح المسند : إن الصبح كانت صلاة آدم ، وكانت الظهر صلاة سليمان ، والعصر صلاة يعقوب ، والمغرب صلاة داود ، والعشاء صلاة يونس ، وجمع ذلك لنبينا ولأمته . وفرضت الصلاة ليلة المعراج . والأصل فى وجوبها آيات إقامة الصلاة ، وهى كثيرة فى القرآن الكريم(١) .

٧ — والزكاة شرعت لتحقيق التكافل الاجتماعى ، وإسهام القادرين فى وجوه البر ودفع غوائل الفقر والمسكنة والجوع والمسغبة ، وإنقاذ الناس من التردى فى الفاقة والحاجة والزكاة فيها تحصين للمال من عوارض الحسد والحقد والغل والمقت التى قد يدفع البائسون إليها دفعاً إن رأوا الأغنياء القادرين يمسكون بأيديهم عن المعونة والاسعاف . وفى الزكاة تطهير لأنفس هؤلاء الأغنياء القادرين إذ يمتحنون باخراج قدر من المال والمال شقيق الروح ، فمن يجد منهم بماله عن رضا وإسماح يتغلب على طبيعة الشح

---

(١) تجاوز الخمسين عدا .

في نفسه «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»(١). والزكاة فيها شكر الله تعالى على ما أنعم من نعمة المال، وفيها تحقيق ما وعد الله من الجنة لمن باعه ماله، قال تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة»(٢).

وقد فرضت الزكاة في السنة الثانية من الهجرة. والأصل في وجوبها آيات إيتاء الزكاة، وهي كثيرة كثرة الآيات التي تأمر بالصلاة، وما أكثر ما اقترنت الصلاة والزكاة في غير موضع من القرآن الكريم. وفرضت الزكاة ابتداء لعلاج الفقر، بدليل قوله ﷺ لمعاذ بن جبل حينما أرسله إلى اليمن: «أعلمهم أن الله - تعالى - افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم».

ولما كانت الزكاة عبادة مالية كاد يتفق رأي الجمهور على أنها تجب في المال ولو كان مالكه غير مكلف، واستدل لهذا بقول الرسول الكريم: «من ولي يتيما له مال فليتجر له ولا يتركه حتى تأكله الصدقة». فاليتيم غير مكلف، وهذه الصدقة - أي الزكاة - تجب في ماله، ولهذا حث الرسول على تثمير ماله لئلا تأكله الصدقة، وإنما تجد الصدقة في ربحه وعاء.

ويرى بعض الناس اليوم أن الضرائب التي تجبيها الدولة من المسلمين تغنيهم عن إيتاء الزكاة. وإني أوافق على هذا الرأي بشرطين: أولهما أن يكون مقدار الضرائب المجبية مساويا لمقدار الزكاة المفروضة أو أكثر منه فإن كان مقدار الضرائب أقل من مقدار الزكاة وجب إخراج ما بقي في الذمة من الزكاة وإيتاؤه من يستحقه. والشرط الآخر أن تصرف الدولة هذه الضرائب إلى مصارف الزكاة (٣)، ومن ذلك أن تقيم نظاما

---

(١) سورة التغابن - آية ١٦ (٢) سورة التوبة - آية ١١١

(٣) وبيانها في الآية الكريمة: «إنما الصدقات للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين. وفي سبيل الله، وابن السبيل» - التوبة ٦٠.

للتكافل الاجتماعى كالضمان الاجتماعى الذى يضمن العيش الكريم للفقير والمسكين والمحروم والشيخ الفانى ، ويسهم فى انتشال من أخنى عليهم الدهر ، وكانشاء المؤسسات الاقتصادية التى تمتص البطالة وتتيح العمل للأيدى المتعطلة ، وكبث الدعاة للدعوة إلى الإسلام ، وكالإسهام فى محاربة الرق والاستعمار ، وكنشر العلم والتعليم ، وإقامة المنشآت الصحية العلاجية والوقائية ، وكبناء المساجد وإعمارها ، وكتنظيم الجيوش والمرابطة فى سبيل الدفاع عن الله وعن الوطن .

٨ — وحج البيت فرض على من استطاع إليه سبيلا ، بدليل الآية الكريمة : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا »(١) ، وبدليل الحديث السابق(٢) . ولا يجب الحج إلا مرة واحدة فى العمر ، وإذا تحققت الاستطاعة وجب الحج على الفور عند كثير من علماء الفقه . وإليه أميل(٣) .

والحج — كعبادة اجتماعية — فيه يقف الناس جميعاً متجردين من أقدارهم الدنيوية الأرضية ذاكرين شيئاً واحداً وهو أنهم فى هذا الموقف عبيد الله وأنهم يذعنون جميعاً لأمره فى أداء المناسك والشعائر من إحرام وتلبية وطواف واستلام للحجر الأسود وسعى ووقوف بعرفة ورمى للجمار ، وأنهم ينقادون لذلك مجرد انقياد ، ويمتثلون له مجرد امتثال ، من غير أن يشغلوا عقولهم بإدراك ما فى هذا كله أو بعضه من المنفعة أو المضرة ، ولا يدركون إلا شيئاً واحداً هو أنهم يلبون الله ويسبحون بحمده ويقدسونه وينزهونه . وفى الحج يجتمع المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ، ليتعارفوا ، وينشئوا

---

(١) سورة آل عمران — آية ٩٧

(٢) انظر ص ٣١ وقد فرض فى السنة السادسة للهجرة على الأرجح .

(٣) وهذا ما ذهب إليه مالك وأحمد وأبو يوسف ، وقال كثير من الشافعية ومحمد بن الحسن : إنه يجب على التراخى .

صلات الأخوة والمودة ، ويتدارسوا شئونهم ، ويتبادلوا الرأى فى السياسة والعمران وسائر شئون الحياة ، فوق مايتزودون به من زاد التقوى ، وهو خير الزاد ، قال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ٭ ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام، فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ٭ ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق »(١) .

٩ ــ وصوم رمضان: الأصل فى وجوبه قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ٭ أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ٭ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . . .(٢) ، وقد فرض صوم رمضان فى السنة الثانية للهجرة .

والصوم مظهر كريم لتقوى الله والامتثال لطاعته ، وفيه تدريب للنفس على كسر حدتها وكبح جماحها وإمساكها عما تشتهيه ، وتعويد لها على الصبر واحتمال المشقات . والصائم يصوم صوما عاما بأن يكف بطنه وفرجه عن شهوتيهما ، وقد يصوم صوما خاصا بأن يكف مع ذلك جوارحه عن الآثام ، وقد يصوم صوما أخص بأن يكف مع ذلك قلبه عما سوى الله ـ عز وجل . وأيا كان فهو من العبادات الخفية التى لايعلم تحقيقها إلا الله ، ولهذا أضافه الله

---

(١) سورة الحج ـ الآيات ٢٧ / ٢٩ ورجالا: جمع راجل وهو من يسير على قدميه . كل ضامر : أى كل بعير مهزول من تعب السفر . فج عميق : أى طريق بعيد . ليقضوا تفثهم : أى ليزيلوا أقذارهم مثل قص الشعور وتقليم الأظافر

(٢) سورة البقرة ـ الآيات ١٨٣ / ١٨٧

إلى نفسه ، وإن كانت العبادات كلها لله ، ففى الحديث الشريف : « والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ؛ يقول الله ـ عز وجل ـ إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلى ؛ فالصوم لى وأنا أجزى به » . وإنما أضاف الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصوم إلى نفسه لأمرين(١): أولا ، لأنه كف وترك ، فهو فى ذاته سر ليس فيه عمل مشهود من الخلق كسائر الطاعات، فالصوم لا يراه إلا الله ؛ لأنه عمل فى الباطن بالصبر المجرد . وثانياً ، لأن الصوم يقهر الشيطان ، فإن وسيلة الشيطان هى الشهوات ، والشهوات تقوى بالأكل والشرب ، ولذلك قال النبى ﷺ : « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع » ، فالصوم فيه قمع للشيطان وسد لمسالكه وتضييق لمجاريه ، ولهذا استحق التخصيص بإضافته إلى الله ـ تعالى ـ فإن فى قمع عدو الله نصرة لله . أقول : ولعل فى هذا عبرة لمن يسرفون فى إعداد الموائد ، ويفتنون فى المطاعم والمشارب ، والانتقام من ساعات الحرمان بالنهار بقضاء ساعات الليل فى نشاط دائب إلى التهام ما لذ وطاب، والتنقل بين صنوف الطعام والشراب ، وليس هذا هو الصوم الذى يهذب النفس ويرقق الحس ويدنى العبد من رضوان الله .

ورمضان خير كله ، فهو شهر الصيام ، وشهر القيام ، وشهر القرآن، وفيه ليلة القدر ، وهى خير من ألف شهر ، وقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال : « لو يعلم الناس ما فى رمضان من اليمن والبركة لتمنوا أن يكون حولا كاملا » ، وقال : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين » ، وقال : « لو أذن الله للسموات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة » ، وقال : « من صام رمضان إيمانا واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » . ولعل الناس فى رمضان يكونون أكثر ميلا إلى ذكر آداب الدين ، فيكونون أدنى إلى إحسان العشرة وإحسان المعاملة، وأسرع

---

(١) إحياء علوم الدين ـ كتاب أسرار الصوم .

إلى البذل والسخاء والجود والعطف على البائسين والأخذ بيد المعوزين ، وأقرب إلى فعل الخير والبر والتقوى .

١٠ – وهذه الرواية التي تقرؤها قدمت حج البيت على صوم رمضان ، وفي رواية أخرى قدم صوم رمضان على حج البيت ، وهذا من الرواة ، فمن قدم الحج نظر إلى أنه عبادة ظاهرة كالصلاة والزكاة ، والصوم عبادة باطنة. ومن قدم الصوم نظر إلى سبق وجوبه ، وإلى أنه يتكرر كل عام بينما يجب الحج مرة واحدة في العمر .

وفي كلتا الروايتين أثبتت الشهادة بالصلاة فالزكاة . والصلاة - كما بينا - عماد الدين وغرة الطاعات ، وتشتد حاجة المسلم إليها لتكررها خمس مرات كل يوم ، والزكاة قرين الصلاة في أكثر مواضعهما ذكراً في القرآن وفي السنة النبوية بهذا الترتيب .

الحديث الرابع

خلق البشر

عَنْ أبي عَبدِ الرحمنِ عبدِ الله بن مَسعود — رَضى اللهُ تعالىَ عنهُ — قال: حدثنا رَسولُ الله — صلىّ اللهُ عليه وسلم وهُوَ الصادِقُ المَصدُوقُ: «إن أَحدَكُم يجْمعُ خلقُه في بَطنِ أُمّه أرْبَعينَ يوَما نطفةً، ثُمّ يكُونُ علَقةً مثل ذلك، ثُم يكُونُ مُضغَةً مِثلَ ذلك، ثُمّ يرسَلُ إليهِ المَلَكُ فينفُخُ فيهِ الرُّوحَ، ويُؤمَرُ بأربعِ كلِماتٍ: بِكتبِ رزقِهِ، وعمله، وأجله، وشقى أو سَعيد. فوَ الذى لا إله غيرهُ إن أحدكُم ليعملُ بعملِ أهل الجنة حتى مايكُون بينهُ وَبينَها إلا ذراع فيَسبِقُ عليه الكِتابُ فيعمَلُ بعملِ أهلِ النارِ فيدخُلها وإنّ أحدكُم ليعمل بعملِ أهلِ النارِ حتىّ مَايكُون بينَهُ وبينَها إلا ذراعٌ فيَسبِقُ عليهِ الكِتابُ فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجَنةِ فيَدخلها». رواه البخاريّ ومسلم.

راوى الحديث:

هو عبد الله بن مسعود، الصحابى الجليل، وسادس من أسلم، وأمين سر الرسول وصاحب وسادته ونعليه وطهوره فى السفر. وأبوه مسعود بن غافل ابن حبيب بن شمخ بن فارس بن مخــــزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث ابن تيم بن سعد بن هذيل. وكان ابن مسعود عندما أسلم راعيا لعقبة بن معيط

ولقى العنت من المشركين ، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين ، وبعد هجرته إلى المدينة آخى الرسول بينه وبين الزبير بن العوام . وشهد ابن مسعود بدراً وسائر المشاهد مع رسول الله ، وفى بدر أتيح له أن يجهز على أبى جهل بعد أن سقط جريحا .

كان ابن مسعود شديد السمرة ، خفيف اللحم ، قصير القامة ، دقيق الساقين ، وكان من أجود الناس ثوباً ، وأطيبهم ريحا وقد لازم الرسول الكريم منذ إسلامه ، حتى قال فيه أبوموسى الأشعرى : رأيت رسول الله وماأرى إلاأن ابن مسعود من أهل بيته .

وكان ابن مسعود يكثر من الصلاة ويقل من صيام التطوع ؛ فسئل فى هذا ، فأجاب : لأنى إذا صمت ضعفت عن الصلاة .

وكان ابن مسعود يقرأ القرآن ، وشهدله الرسول بحسن القراءة ، فقال فيه : « من سره أن يقرأ القرآن رطبا كماأنزل فليقرأه على قراءة ابن مسعود » ، وهو أول من جهر بالقرآن من الصحابة ، وذاك أنه عندما نزلت سورة الرحمان دعاه النبى إلى قراءتها على قريش ، فذهب إليهم وافتتح بها القراءة ، فقام أبوجهل إليه ، ولطمه ، وشق أذنه ، وأدماه . وقد شغل ابن مسعود بالقرآن ومواطن نزوله وأسبابه ، وقال فى هذا : (والله الذى لا إله غيره مانزلت آية من كتاب الله إلاوأناأعلم أين نزلت وفيم نزلت ، ولوأعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منى تناله المطية لأتيته) .

وهذا الفخر المشوب بالتواضع ، إلى جانبه مثل من الحفاظ على الكرامة البشرية ، فقد خرج يوما يمشى ، فتبعه ناس ، فالتفت إليهم قائلا : ألكم حاجة؟ قالوا : لا : ولكن أردنا أن نمشى خلفك ، قال لهم : ارجعوا ؛ فإنه ذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

ولاه عمر بن الخطاب قضاء الكوفة وبيت مالها ، وأبقاه عثمان عليهما ،

ثم سار ابن مسعود إلى المدينة ، ودخل عليه عثمان فى مرض موته . فسأله : ما تشتكى ؟ أجاب ابن مسعود : أشتكى ذنوبى . فسأله : وماتشتهى ؟ قال: أشتهى رحمة ربى . قال عثمان: ألا آمر لك بالطبيب . قال ابن مسعود : الطبيب أمرضنى . قال عثمان : ألا آمر لك بعطاء ! قال : لا حاجة لى به . قال عثمان : يكون لأولادك من بعدك : قال ابن مسعود : إنى لا أخشى عليهم الفقر بعد ما علمتهم سورة الواقعة يقرءونها كل ليلة .

وتوفى - رضى الله عنه - سنة ٣٢ هـ عن بضع وستين سنة . ورووا عنه أكثر من ثمانمائة حديث ، وممن روى عنه الخلفاء الراشدون الأربعة وكثير من الصحابة .

شذور لغوية :

حدثنا : أصله أنشأ لنا حديثا ، والحديث الخبر والجديد ، وهو عند الجمهور بمعنى أخبرنا وأنبأنا ، وبعض المتأخرين يخص حدثنا بما سمعه وأخبرنا بما قرىء عليه وأنبأنا بما أجازه .

الصادق المصدوق : اسما فاعل ومفعول من الصدق . والصدق الخبر المطابق للواقع ، ومحمد رسول الله هو الصادق أى الآتى بالصدق ، وهو المصدوق بمعنى المصدق فيما أتى به ، فالله - جل شأنه - يصدقه فى دعواه الرسالة بإظهار المعجزات على يديه ، والخلق يصدقونه فيما يقول ، وجبريل يأتيه بالصدق من عند الله .

أحدكم : أى الواحد منكم ، ولذلك استعملت فى الثبوت كما تستعمل فى النفى ، بخلاف (أحد) التى للعموم فلا تستعمل إلا فى النفى مثل قولنا : لا أحد فى المنزل . وأصل أحد (وحد) قلبت الواو المفتوحة همزة على غير قياس (بخلاف المضمومة كوجوه فقلبها همزة مقيس ، فلك أن تقول فيها أجوه ، والمكسورة

كوشاح فقلبها همزة إلى إشاح سماعي أو قياسي على خلاف) والضمير في أحدكم لخطاب الجمع، وهم بنو آدم .

يجمع خلقه : يجمع من الجمع وهو ضم ما شأنه الافتراق والتنافر ، وتقريب الأشياء بضم بعضها إلى بعض ، ويقتضي الحفظ . والخلق في الأصل التقدير والإبداع والاختراع على غير مثال ، والمقصود بجمع الخلق هو جمع مادة الخلق وهو المني .

بطن أمه : البطن الجوف وخلاف الظهر ، والأكثر تذكيره . وتأنيثه لغة كما في الصحاح . والأم هنا الوالدة .

نطفة : النطفة المني ، وأصلها الماء الصافي القليل ، يقال : نطف الماء قطر ونطفت القربة قطرت ، وسمي المني نطفة لقلته ، وقيل : لسيلانه ، من قولهم: ماء ناطف أي سائل .

ثم يكون : يكون بمعنى يصير ، وثم (بالضم) حرف يقتضي غالبا التشريك في الحكم والترتيب والمهلة . وقد تتخلف عن ذلك كله أو بعضه كما في قوله - تعالى - في سورة التوبة : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا » . فإن اعتبرت ثم زائدة لم تفد التشريك في الحكم . وكما في قوله تعالى في سورة السجدة: « وبدأ خلق الإنسان من طين ۝ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ۝ ثم سواه ونفخ فيه من روحه » ، فإن اعتبرت التسوية ونفخ الروح للانسان لا للنسل ولا الماء لم تفد ثم ترتيبا . وكما في قولك : أعجبني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب ، لأن ثم لترتيب الإخبار ولا تراخي بين الإخبارين .

علقة : العلقة الدم الغليظ المتجمد ، سمي بذلك لعلوقه أي ارتباط بعضه ببعض ، أو لأنه لرطوبته يعلق بما يمر عليه فإذا جف لم يسم علقة . والتاء

للوحدة وجمعها علق ، وجاء جمعا فى قوله تعالى : « خلق الإنسان من علق » لما فى الإنسان من معنى الجمع .

مثل ذلك : أي مقداره ، والمشار إليه فى الموضعين هو الزمان الذي مر فى قوله: (أربعين يوما) .

مضغة : المضغة القطعة بمقدار ما يمضغ من اللحم وغيره ، والمضغ اللوك بالسن .

يرسل إليه الملك : حقيقة الإرسال البعث، والمراد بإرسال الملك هنا أمره بالتصرف . والملك هنا هو الملك الموكل بالرحم - وتؤيده رواية أنس - فاللام للعهد .

ينفخ فيه الروح : الروح هى التى بها يحيا الإنسان ، ونفخها فيه المراد به إدخالها فى بدنه ، وحقيقة النفخ إخراج ريح من النافخ يتصل بالمنفوخ فيه . وقال بعضهم : إن نفـخ الملك فى الصورة سبب لايجاد الله — تعالى — فيها الروح والحياة .

أربع كلمات : أى أربع قضايا ، والكلمات جمع كلمة وهى فى الأصل اللفظة ، ويتوسعون فيها فيطلقونها على الكلام ، والمسألة ، والقضية ، والقصيدة .

كتب رزقه : كتابته ، والكتب حسى أو معنوى ، قيل : يكتب على جبهته أو بين عينيه أو بطن كفه أو فى صحيفة تعلق بعنقه ، ونميـل إلى أن الكتب معنوى بمعنى حكاية التقدير أو التسجيل . والرزق (بالكسر) ماترزقه، وكتبه أى كتب مقداره وصفته ومصدره .

أجله : الأجل (بالتحريك) مدة الحياة ، أو منتهاها وهو

الوقت الذى قدر الله فى الأزل انتهاء الحياة فيه . وكتبه أى كتب مقداره وزمانه ومكانه .

عمله : العمل (بالتحريك) الفعل ، ويطلق على المهنة ، وكتبه أى كتب صفته .

شقى أو سعيد : كلاهما فعيل صفة مشبهة أو بمعنى مفعول من الشقاوة ومن السعادة . وهما نقيضان على الأظهر . وتعنى الشقاوة الشدة والعسر والتعب ، وتعنى السعادة الراحة واليسر واليمن والرخاء والطمأنينة .

الجنة (بالفتح) : دار النعيم فى الآخرة ، سميت باسم الجنة وهى الحديقة ذات الشجر والنخل ، وسميت الحديقة بهذا الاسم لما فيها من شجر يجن الأرض أى يسترها .

النار : دار العقاب فى الآخرة . سميت باسم نار الدنيا ، وألف النار أصلها الواو .

مسائل نحوية :

وهو الصادق المصدوق : جملة اعتراضية فلا محل لها من الأعراب ، أو حالية من فاعل حدثنا فهى فى محل نصب ، وترجح البلاغة الاعتراضية على الحالية ، لأنها كجملة اعتراضية تدل على أن ذلك دأبه وديدنه وعادته ، أما الحالية فتوهم اختصاص ذلك ببعض الأحوال .

إن أحدكم : جاءت الرواية بكسر همزة (ان) وفتحها ، فالكسر على حكاية لفظه ﷺ والفتح على تقدير أن مصدرية ، تؤول هى وما بعدها بمصدر يقع مفعولا لحدث .

يجمع خلقه : الفعل مبنى للمفعول ، وبعده نائب الفاعل .

أربعين يوما : ظرف ليجمع ، ويوما تمييز العدد .

نطفة : حال من نائب الفاعل ، أى يجمع خلقه حال كونه نطفة أى منيا .

يكون علقة مثل ذلك : علقة خبر يكون ، ومثل نعت لمحذوف يقع ظرفا ، والتقدير يكون علقة زمانا مثل ذلك الزمان الذى مر أى مثل الأربعين يوما . ونظير هذه الجملة فى الإعراب جملة (يكون مضغة مثل ذلك) .

يرسل إليه الملك : الفعل مبنى للمفعول ، والملك نائب الفاعل .

يكتب رزقه . . . : بدل من أربع باعادة الجار . وفى رواية (فيكتب) للفاعل أو للمفعول فالجملة عطف : وفى رواية «يكتب رزقه» للمفعول فالجملة استئناف .

شقى أو سعيد : خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : وهو شقى أو سعيد . ودخل سعيد فى حيز الخبر مع وجود العطف ؛ لأن هذا العطف بأو الدالة على التفصيل .

فو الذى لا إله غيره : الفاء واقعة فى جواب شرط مقدر ، وتسمى الفاء الفصيحة ، والتقدير ، إذا كان كل الشقاوة والسعادة مكتوبا فأقسم بالله الذى لا إله غيره ، والواو واو القسم ، والمقسم به محذوف ، والذى نعت لهذا المقسم به ، وصلته الجملة بعده ، وجواب القسم : إن أحدكم ليعمل .

ولا إله : لا النافية للجنس واسمها ، أما خبرها فمحذوف تقديره موجود أو فى الوجود : وغير مرفوع على البدلية من الضمير المستكن فى الخبر المحذوف .

ليعمل بعمل : اللام للابتداء ، ويعمل فعل ، وفاعله الضمير المستكن ، والجملة تقع خبرا لإن . والفعل مضمن معنى يتلبس ولذا عدى بالباء ، فإن أبقيته على معناه الأصلي فالباء مزيدة ، وما بعدها مفعول به أو مفعول مطلق .

حتى ما يكون : ورد الفعل مرفوعا ومنصوباً . فالرفع على الاستئناف مع حتى الابتدائية ، فإن اعتبرتها غائية فالرفع جائز على تقدير الفعل حالا بتأويل . والنصب مع حتى الغائية واجب إن قدرت الفعل مستقبلا حقيقة وجائز إن قدرته مؤولا بالحال .

إلا ذراع : إلا أداة استثناء ملغاة لوقوعها فى استثناء مفرغ . وذراع مرفوع بيكون فيعرب فاعلا إن قدرت الفعل تاماً واسما إن قدرت الفعل ناسخاً .

أسرار بلاغية :

فى بطن أمه : أى رحمها ، مجاز مرسل علاقتـــه الكلية ، ذكر الكل وأراد الجزء .

ينفخ فيه الروح : الفعل مسند إلى ضمير الملك، وفى هذا مجاز عقلى ، لأن الفعل من أفعال الله كالخلق .

رزقه : أبهم الرزق ليشمل الكم (قليلا أو كثيراً) والصفة (حلالا أو حراما أو مكروها) والنوع (مادة كالمطعوم والمشروب والملبوس وغير مادة كالذكاء والعلم) .

شقى أو سعيد : فيهما عدة أمور : ١ — عدل عن أن يقول (وسعادته أو شقاوته) ليحكى صورة ما يكتب ٢ — عطفهما بأو للاشعار بأنه يكتب له واحد منهما ولا يكتبان معا، ولهذا جعلا الكلمة الرابعة أى القضية الرابعة

ولو أرادهما اثنين لقال (ويؤسر بخمس كلمات) ٣ — قدم الشقاوة على السعادة ليعلم أن كلا من عند الله .

فو الذى لا إله غيره: أقسم لتقوية الأمر فى النفوس . وفى جملة الجواب تأكيد على تأكيد للسبب نفسه .

ما يكون بينه وبينها إلا ذراع (وزاد البخارى : أو باع) : تمثيل — أى كناية — لشدة القرب .

. . . فيسبق عليه الكتاب: مثل الكتاب كما مثل العمل بشخصين ساعيين، أحدهما وهو الكتاب يظفر بالسبق .

فكرة الحديث :

يبين الحديث أحوال خلق الإنسان ورحلة تكوينه فى داخل جسم الأم وما يقدره الله له من الرزق والأجل والعمل ومن الشقاوة أو السعادة، ويضع الحديث عمل الإنسان أمام القـــدر ، فلا يتكل الإنسان على عمله ولا يعجب به ، لأنه لا يدرى ماتكون الخاتمة .

الإيضاح والبيان :

١ — حدث الرسول الكريم أن الإنسان يتم تكوينه جنينا فى بطن أمه — أى فى رحمها — على النحو الآتى : يجمع المنى نطفة مخلقة فى مـدة أربعين يوما ، تتحول بعدها إلى علقة مدة أربعين يوما ثانية ، وفى الأربعين يوما الثالثة تتحول إلى مضغة ، حتى إذا صار للجنين مائة وعشرون يوما نفخ الله فيه الروح التى بها الحياة والحركة ، وكتب رزقه وأجله وعمله وحال معاده من الشقاوة أو السعادة كما هو مقـــدور له فى الأزل ويمضى الإنسان فى رحلة حياته لا يدرى ماتكون الخاتمة ، قد يرى أنه من أهل السعادة فتأتى خاتمة حياته سعادة كما توقع ، وقد يرى أنه من أهل الشقاوة فتأتى

خاتمة حياته شقاوة كما توقع ، وقد يرى — ويرى الناس — أنه من أهل السعادة ثم تختم حياته بالشقاوة على نقيض ما توقعوا ، وقد يرى — ويرى الناس — أنه من أهل الشقاوة ثم تختم حياته بالسعادة على نقيض ما توقعوا ، فمن الغباء أن يتكل الإنسان على ظاهر عمله ويعجب به ويظنه موصلا إلى مبتغاه ، بينما القدر يخبيء له خاتمة تتفق مع فساد سريرته وخبث طويته .

٢ — وهذا الذى حدث به الرسول الكريم له جانبان : جانب غيبي لا نستطيع إلا التسليم به ، وجانب علمي يمكن عرضه على ضوء الكشف والمشاهدة .

وعلم الأجنة يصور تكوين الجنين فى بطن الحامل على الوجه الآتى :

تظل بويضة المرأة قائمة فى البوق (وهو قناة خارج الرحم موصلة بين تجويف الرحم وتجويف البطن) تنتظر الإخصاب ، فإذا أصابها ماء الرجل حتى اليوم الرابع عشر إلى السادس عشر من بدء الحيض أخصبت ، وإذا لم يصبها ماء الرجل فى هذه المدة تليفت البويضة وضمرت ولم تصلح للاخصاب . ويبدأ إخصابها بامتزاجها بماء الرجل امتزاج الخلية المتكاثرة ، واتحادهما فيما يسمى (زيجوت ZYGOTE) ويأخذ هذا الزيجوت فى الزحف نحو تجويف الرحم ، وعند وصوله إلى تجويف الرحم تبدو فيه أهداب قادرة على الدخول فى جدار الرحم بينما هذا الجدار يلتف حولها ، وتتكاثر خلايا الزيجوت حتى الأسبوع الخامس ، وحينئذ تظهر فيه تجويفات مبطنة بالأنسجة تختلف من موضع إلى موضع بحسب صور الأعضاء ، ومن مراكز هذه التجويفات تبرز نتوءات أشبه ببراعم الزهرة تتحول فيما بعد إلى أعضاء البدن ، ومنها الأعضاء الظاهرة كالرأس وأعضاء الوجه ، والأطراف وأعضاء باطنة كالأمعاء والجهاز الصدرى والعظام ، وهذه العظام تتشكل على هيئة غضاريف ، ثم تترسب مادتها وتأخذ فى النمو والاستطالة من مراكزها ، وتكسى لحما وجلدا . وينتهى هذا التشكيل فى الأسبوع

السادس عشر ، حين يأخذ الجنين فى الحركة ، وتحس الأم بحركه فى هذا التاريخ إذا لم يكن هذا هو حملها الأول ، أما إن كانت تحمل أول حمل فإن إحساسها بحركة الجنين يمتد فى الغالب حتى الأسبوع العشرين . وقد أمكن علم الأجنة أن يستكشف مواضع هذه التجويفات والنتوءات اعتبارا من الأسبوع العاشر .

٣ — والحديث الشريف أجمل هذه الأطوار ، بينما زادتها الآيات فى سورة (المؤمنين) تفصيلا ، قال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين،ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين،ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما،فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (١) . وكان ابن عباس — رضى الله عنهما — يقرأ هذه الآيات ويقول: خلق ابن آدم من سبع. ومعنى« أنشأناه خلقاً آخر نفخنا فيه الروح .

وانفقه معا قول الله — عز وجل — فى مجادلة المرتابين فى أمر البعث: « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم . ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم . ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » (٢) خلقناكم من تراب أى خلقنا آباكم آدم ، وخلقناكم من نطفة أى خلقنا ذريته ، والمضغة المخلقة وغير المخلقة ، عن ابن عباس أنها التامة الخلق والناقصة الخلق وعن مجاهد أنها المصورة وغير المصورة وهذه تصير سقطا . وعن ابن مسعود أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها الملك

---

(١) سورة المؤمنين — الآيات ١٢/١٤

(٢) سورة الحج — آية ٥

وسأل ربه : يارب، مخلقة أو غير مخلقة ، فإن قال : غير مخلقة — قذف بها فى الرحم دما ، وإن قال : مخلقة — سأل الملك : أذكر أم الأنثى ؟ أشقى أم سعيد ؟ ما الرزق ما الأجل ؟ وبأى أرض تموت ؟ فيقال له . اذهب إلى أم الكتاب تجد فيها كل ذلك . فيذهب ، فيجدها ، فينسخها ، فلا تزال معه حتى يأتى إلى آخر صفته .

٤ — ونعود إلى علم الأجنة فنجده يكشف عن اشتراك الذكر والأنثى فى تكوين الحمل على وجه ما ، ونراه يعد للخلية التناسلية مما يسميه (الكروموزوم CHROMOSOM) أربعة وعشرين للذكر ومثلها للأنثى ، وتحمل ستة وأربعون منها (مقسومة بالتساوى) عوامل الوراثة من مثل الطول ولون الجلد والعين والشعر ، ويحمل الاثنان الباقيان عامل النوع أى الذكورة والأنوثة والكروموزوم الباقى للانثى يرمز له بحرف (X) والكروموزوم الباقى للذكر قد يجىء مماثلا للانثى الحامل فالحمل أنثى ؛ وقد يجىء مغايرا للانثى الحامل ويرمز له بحرف (Y) فالحمل ذكر .

ومن الواضح أنه لاحيلة للانسان فى تعيين نوع الحمل ، واقرأ قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شىء عنده بمقدار » (١) ، وقوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما فى الأرحام » (٢) .

٥ — يتكون الحمل على هذا الترتيب ، وينمو فى أطواره المختلفة هذا النمو، ويستوعب هذا الزمان الذى استوعبه . والله — جلت قدرته — قادر على إيجاده كاملا فى لحظة ، ولكن الله يعلم عباده أن يتأنوا فى أمور حياتهم، وأن يتهيئوا لها حتى لاتشق عليهم ، كما يشق على الأم أن تجد نفسها فى لحظة منتفخة البطن ثقيلة الحمل .

---

(١) سورة الرعد — آية ٨

(٢) سورة لقمان — آية ٣٤

٦ — والروح (١) تطلق على معنيين أحدهما مادى ، والآخر غير مادى ، فهى كمادة جسم لطيف منبعه تجويف القلب الانسانى ، يدفع بأثره فى الحياة والحس والحركة إلى أجزاء البدن بوساطة العروق الضوارب فى هذه الأجزاء . والروح بالمعنى الثانى لطيفة ربانية روحانية هى حقيقة الإنسان التى بها إدراكه وعلمه ومعرفته، ويتعلق بها خطابه وطمأنينته وألمه وسعادته وشقاوته .

ويغلب على الظن — أن الروح مخلوقة قبل البدن ، وهذا رأى ابن حزم، والحديث يقول : إنها تنفخ فى المضغة ، والنفخ غير الخلق . ولعل الروح بمعناها المادى هى التى تتصل بالبدن بعد تصويره . أما الروح بمعناها غير المادى فإن أمر اتصالها بالبدن وكيفيته وزمانه ومكانه لا يعلمه إلا الله — سبحانه وتعالى — وقد قال : « ويسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »(٢). والروح التى هى من أمر الله لها(٣) نواميس عليا تناسب طبيعتها النورانية ، فلا تخضع لنواميس المواد الأرضية وليس لسلطان الفناء والاضمحلال سبيل عليها، فإذا غلب سلطانها على سلطان الجسم بالرياضة والصفاء ظهرت خصائصها وسادت نواميسها ، والروح التى هى من أمر الله هى التى تطلع على عجائب الملكوت ، وتتعرف أسرار الربوبية ، وتدرك جمال صنع الله ، وقدرة المبدع الحكيم وما هو عليه من صفات الجلال والكمال .

---

(١) إحياء علوم الدين — كتاب شرح عجائب القلب .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٥ .

(٣) سبيل السعادة للشيخ يوسف أحمد نصر الدجوى ص ٤٣ وما بعدها مطبعة النهضة الأدبية — ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .

٧ – والكلمات – أى القضايا – التى تكتب للانسان أربع : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أوسعيد .

(ا) ورزق الإنسان هو ماساقه الله إليه فانتفع به ، مادة كالمطعوم والمشروب والملبوس ، وغير مادة كالعلم والمعرفة. (وقال المعتزلة : إن الرزق هو المملوك مطلقا ، انتفع به أم لم ينتفع) . وكتابة الرزق تشمل: مقداره ، وصفته ، ومصدره .

(ب) وأجل الإنسان مدة حياته ، أو منتهاها وهو الوقت الذى قدر الله فى الأزل انتهاء الحياة فيه . وكتابة الأجل : تشمل مقداره أى مسافة طوله، وزمانه ، ومكانه ، وفيها الإجابة عن هـــذه الأسئلة : كم العمر ؟ ومتى ينتهى ؟ وأين ؟

وظاهر الآية الكريمة : « لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون(١) » ونحوها(٢) أن الأجل محدود معدود لا يقبل نقصا ولا امتدادا . وظاهر قوله تعالى : « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب » (٣) ان الأجل يزيد وينقص ونميل إلى الأخذ بظاهر الآية الأولى وحقيقتها ؛ وعلى هذا يجب أن نفقه الآية الثانية على أن الضمير فى « عمره » بدل من (ال) العهدية وليس عائدا على «معمر» ، والتقدير « ومايعمر من معمر ولا ينقص من العمر إلا فى كتاب » ويجب أن نفقه أن الزيادة فى العمر التى يشير إليها الحديث الشريف : « من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى عمره فليصل رحمه » إنما هى الزيادة بمعنى البركة ، أو السعادة،

---

(١) سورة الأعراف – آية ٣٤

(٢) يونس ٤٩ وهود ٣ و ١٠٤ وابراهيم ١٠ والنحل ٦١ وطه ١٢٩ والحج ٥ وفاطر ٤٥ والزمر ٤٢ والمنافقون ١١ ونوح ٤

(٣) سورة فاطر – آية ١١

أو الذكر الجميل ، أو التوفيق للطاعة ، أو صيانة الوقت من الضياع ، والهدف من ذلك هو الترغيب فى صلة الرحم . وربما كانت الزيادة أو النقص فى الأجل بحسب ما يبدو للملائكة فى اللوح المحفوظ محوا أو إثباتاً ، قال تعالى . « يمحو الله ما يشاء ويثبت » (١) ، فالمحو والإثبات يقعان فى اللوح المحفوظ وعنه ينقل الملائكة . ويقينى أن الله — سبحانه وتعالى — قدر هذا المحو وهذا الإثبات منذ الأزل ، فوقوع المحو ليس جديداً عليه — جل شأنه — وإن بدا جديداً على الملائكة .

(ج) وعمل الإنسان كل ما يصدر عنه من فعل . وكتابته تشمل صفته ونوعه .

(د) وشقاوة الإنسان أو سعادته أمران يوصف بهما حاضر الإنسان، أو يوصف بهما معاده ، أو يوصف بهما حاله فى آخر أيامه بالدنيا قبل موته .

وهناك رأيان فى الشقاوة والسعادة . أولهما يعتبر الشقاوة هى الكفر والسعادة هى الإيمان ، فالشقى هو الكافر والسعيد هو المؤمن ، وعليه يتصور أن الشقى قد يسعد بأن يؤمن من بعد كفر ، وأن السعيد قد يشقى بأن يكفر من بعد إيمان وعلى هذا الرأى أيضاً تكون الشقاوة والسعادة غير أزليتين ، لأن إمكان تغير كلتيهما إلى الحالة الأخرى يبعد عنهما هذه الأزلية ، لأن أمور الأزل لا تتبدل ولا تتغير .

والرأى الآخر أن الشقاوة هى الموت على الكفر والسعادة هى الموت

---

(١) سورة الرعد - آية ٣٩

على الإيمان ، فالشقى من علم الله فى الأزل موته على الكفر وإن تقدم منه إيمان ، والسعيد من علم الله فى الأزل موته على الإيمان وإن تقدم منه كفر ، فهذا الشقى لا يتصور أن يسعد، وهذا السعيد لا يتصور أن يشقى ، إذأن مايظهر منهما خلاف ذلك لا يصور حقيقة حاليهما ولا يعتد به . وعلى هذا تكون الشقاوة والسعادة أزليتين مقدرتين فى الأزل لا تتغيران ولا تتبدلان .

والحديث يشير إلى أن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا مقدار ذراع — وهذا تمثيل لشـــدة القرب — فيسبق عليه الكتاب — والكتاب هو اللوح المحفوظ أو ما سبق فى بطن الأم أو علم الله سبحانه وتعالى — فيعمل هذا الإنسان بعمل أهل النار فيدخل النار أى يتحقق المكتوب عليه فى اقتضاء الشقاوة . والصورة المقابلة : يعمل أحدكم بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا مسافة قريبة فيسبق عليه الكتاب فيعمل هذا الإنسان بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة أى يتحقق المكتوب عليه فى اقتضاء السعادة .

هناك إذن تعارض بين العمل الذى يقتضى السعادة والمكتوب الذى يقتضى الشقاوة فى الصورة الأولى ، وتعارض بين العمل الذى يقتضى الشقاوة والمكتوب الذى يقتضى السعادة فى الصورة الثانية . وعبر الحديث عن ذلك بالسبق فقال: « فيسبق عليه الكتاب» ويقتضى هذا تحقيق المكتوب لأنه هو السابق ، والسابق يحصل مراده دون المسبوق .

ولا تعارض بين اعتبار الشقاوة والسعادة أزليتين وكتابتهما على الجنين فى بطن أمه ؛ فإن هذه الكتابة إنما تسجل المكتوب فى الأزل ولا تنشىء تقديراً جديداً .

ويقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر

من أحسن عملا »(١) ،وظاهره قبول العمل الصالح ، فهذا وعد الله،ووعدالله لا يتخلف . وينبغى أن نفقه ن عدم إضاعة أجر من أحسن عملامترتب ومتوقف ومعلق على شرط القبول وحسن الخاتمة ، فعلى الإنسان ألا يتكل على عمله وألا يعجب به،لأنه لايدرى أهو مقبول أم غير مقبول؟ ولايدرى ما الخاتمة ؟ .

والناس طوائف أربع :

- طائفة خلقت لخدمة الله وجنته ، وهم الأنبياءوالصديقون والأولياء والصالحون وسائر المؤمنين ؛ عاشوا مؤمنين وختم الله لهم بالإيمان .

- وطائفة خلقت لا للخدمة ولا للجنة ، وهم الكفار ؛ عاشوا على الكفر ويموتون على الكفر .

- وطائفة خلقت لخدمة الله دون جنته،وهم الذين عاشوا عاملين بطاعة الله ثم مكر بهم فطردوا من بابه وماتوا على الكفر .

- وطائفة خلقت لجنة الله دون الخدمة ، وهم الذين عاشوا كفارا ثم تاب الله عليهم فختم لهم بالإيمان كسحرة فرعون .

وأشار الحديث إشارة صريحة إلى الطائفتين الأخيرتين .

ولقد يقول القائل : (أنا مؤمن إن شاء الله) فلا يقبله منه أصحاب الرأى الأول الذين يرون الشقاوة هى الكفر والسعادة هى الإيمان ؛ لأنه بالنظر إلى الحال يجب الجزم فى أمر الإيمان، ولاجزم فى أمر الإيمان مع التعليق بالمشيئة ، ولكن أصحاب الرأى الثانى الذين يرون الشقاوة فى الموت على الكفر والسعادة فى الموت على الإيمان يقبلون مثل هذا القول ، لأنهم ينظرون إلى المآل والمآل مجهول ولا يعلمه إلا الله .

---

(١) سورة الكهف - آية ٣٠

٨ - والسعادة التى تكلمنا فيها هى سعادة الدين، أما سعادة الدنيا فشىء آخر ، وهى نوع من أنواع الخير ، يراها الفلاسفة أحيانا فى صحة البدن واعتدال المزاج وسلامة الحواس ، وأحيانا فى الثروة والجاه ، وأحيانا فى حسن الأحدوثة والذكر الجميل ، وأحيانا فى النجاح وتمام المأمول ، وأحيانا فى سلامة الاعتقاد والبراءة من الزلل والخطأ . والسعادة بهذه الاعتبارات من الأمور النسبية ، ولكنها فى الدين حقيقة واحدة تتصل بالإيمان ، ففيها الخير كله ، وفيها رضا الله وثوابه وجنته ، وفيها النعيم المقيم .

الحديث الخامس

رفض البدعة

عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من أحدثَ فى أمرِنا هذا ماليس منه فهو ردّ » . رواه البخارى ومسلم .

وفى رواية لمسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرُنا فهو رد » .

راوية الحديث :

هى أم المؤمنين السيدة عائشة،زوج الرسول - صلى الله عليه وسلم - وابنة الصديق أبى بكر خليفة الرسول الكريم وصاحبه ، وأمها السيدة أم رومان بنت عامر بن عويمر بن شمس . خطبها الرسول لنفسه بمكة قبل الهجرة وكانت فى سن السادسة ، وبنى بها بالمدينة إثر انصرافه من (بدر) وهى فى سن التاسعة . وكانت أول امرأة يعقد عليها الرسول بعد وفاة السيدة خديجة - رضى الله عنها - كما كانت السيدة عائشة الوحيدة من بين نسائه التى تزوجها بكرا . ولم تنجب،وإنما كنيت بأم عبدالله باسم عبدالله بن الزبير وهو ابن أختها السيدة أسماء ذات النطاقين ، كناها الرسول الكريم عندما سألته ذلك تطييباً لخاطرها .

عاشرت السيدة عائشة الرسول الكريم ، ورأت من فعله ، وسمعت من قوله مالم يتسن لغيرها من النساء والرجال ، ونزل الوحى على الرسول وهو فى بيتها عدة مرات . وقال فيها الرسول : « خذوا دينكم عن هذه الحميراء» . وكان أصحاب الرسول يسألونها عما أشكل عليهم فيجدون دائما عندها العلم والمعرفة .

افترى المنافقون بالمدينة عليها حديث الإفك، وأنزل الله القرآن ببراءتها، وشهد لها بأنها محصنة مؤمنة طيبة(١) . وقد عاشت صوامة قوامة كريمة معطاءة ، حتى توفيت سنة (٥٨هـ وقيل سنة ٥٧هـ) عن ستة وستين عاما(٢) .

وروى عنها أكثر من ألفي حديث .

شذور لغوية :

أحدث : تقول : أحدثت الشيء إحداثاً فحدث الشيء (من باب دخل) حدوثا ، أي أوجدته بعد أن لم يكن فوجد ، فالإحداث هو الإيجاد ، والحدوث هو الوجود ، والحادث الجديد ، والحديث الجديد والخبر . وأحدث فى معنى أنشأ واخترع وأبدع ، فالحادث هو البدع والبدعة .

أمرنا : يقصد الدين وتفسره رواية (من أحدث فى ديننا) . والأمر هو الشأن ومنه قوله تعالى : « وما أمر فرعون برشيد » . ويطلق على القول كما فى الآية : « إذ يتنازعون بينهم أمرهم » ، وعلى الخبر كما فى الآية : « وإذا

(١) اقرأ فى سورة النور الآيات ١١ — ٢٦ .

(٢) تزوج الرسول إحدى عشرة امرأة ، توفى فى حياته منهن اثنتان : خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة ، وتوفى هو عن تسع : عائشة ، وميمونة ، وصفية بنت حيي ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وهند ، وزينب بنت جحش ، وجويرية ، ورملة ، وسودة . وهن جميعا أمهات المؤمنين ، قال تعالى فيهن : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم » — الأحزاب ٦ — فهن كالأمهات فى المهابة والتجلة والتوقير ، وحرمن كالأمهات على الرجال بنص الآية : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا » — الأحزاب ٥٣ .

جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » ، وعلى الوحى كما فى الآية: « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ، وعلى العذاب كما فى الآية: « وغيض الماء وقضى الأمر » ، وعلى القيامة كما فى الآية: « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » . والأمر ضد النهى .

رد : أى مردود ، من إطلاق المصدر على المفعول ، كالخلق بمعنى المخلوق والنسج بمعنى المنسوج . وتقول : رددت الشىء صرفته ولم أقبله ، ورددته على صاحبه خطأته فيه ولم أقبله .

مسائل نحوية :

الحديث جملة شرطية ، وأداة الشرط (من) ، وفعل الشرط (أحدث) فى الرواية الأولى و (عمل) فى الرواية الثانية ، والجواب جملة (فهو رد) وهى جملة اسمية ولذا اقترنت بالفاء ، والرابط (هو) هذا الضمير الواقع مبتدأ ، وعائد الرابط هو الفاعل السابق فى فعل الشرط ، فهو رد بمعنى أنه مردود مطرود غير مقبول ، أو العائد هو المفعول السابق وهو (ما ليس منه) فى الرواية الأولى و (عملا) فى الرواية الثانية ، فهو رد بمعنى أنه مردود على صاحبه غير مقبول منه .

أسرار بلاغية :

من أحدث — من عمل عملا : فى الرواية الثانية عموم ، لأن العمل يشمل ما يحدثه المحدث وما يحدثه غيره فيعمل هو به .

أمرنا هذا : الإشارة قريبة ، ونزل الأمر أى الدين منزلة المحسوس المشاهد ، فهو يحضر فى ذهن السامع على هذه الصورة ليتميز عنده أكمل تمييز .

فكرة الحديث :

ينبه الحديث إلى ضرورة المحافظة على الدين والاستناد إلى الشرع، وينبه إلى أن ابتداع ماليس من الدين مرفوض غير مقبول،وهو مردود على من ابتدعه فلا يقبل منه .

الإيضاح والبيان :

١ — أوضح الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - أن ما ابتدع فى الدين مرفوض ومردود وغير مقبول، والبدعة مااستحدث بعد عهد الرسول ولم يعهد فى زمنه .

وينبغى أن ينصب الحكم بالرفض والرد وعدم القبول على البدعة التى يدل الشرع على حرمتها ، بألا تستند إلى شىء من أدلة الشرع ، أو بأن تستند إلى شىء ليس من الشرع . وقد نجد فى الشرع الدليل على حرمة المستحدث لذاته كالصلاة من غير ركوع ، أو لأمر خارج عنه لازم له كالصلاة من غير طهارة ، أما إن كانت الحرمة لأمر خارج عنه غير لازم له كالصلاة فى أرض مغصوبة،فلا تكون الصلاة باطلة وليس معنى ذلك شرعية الغصب ، وهكذا سائر العبادات إذا أديت على خلاف مقتضى الشرع صارت بدعاً . والمعاملات إذا أنشئت بعقود فاسدة صارت باطلة .

٢ — وذهب بعض الأئمة إلى أن البدعة تجرى عليها الأحكام الخمسة :

(ا) فهى واجبة فى المسائل التى يتوقف عليها فهم الشريعة ، كتعلم علوم العربية ومعرفة غريب الكتاب والحديث .

(ب) ومحرمة إذا صادمت أصلا من أصول الشرع ، كالأخذ بمذهب المجسمة .

(ج) ومندوبة كإنشاء المدارس وبناء الجسور ، ففيها وفى مثلها صالح العباد واستقامة العمران .

(د) ومكروهة كزخرفة المساجد ، ففيها ما يشغل عامة الناس عن العبادة الحقة .

(هـ) ومباحة كالمصافحة عقب الصلاة ، ففيها المودة والتآلف .

وعلى هذا تكون البدعة المرفوضة هى البدعة المحرمة ، فهى إثم ، وصاحبها آثم ، ويستحق ما أوعد به فى قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله » ، وقوله : « لا يقبل الله لصاحب بدعة صلاة ولا صوماً ولا صدقة ولا حجاً ولا عمرة ولا جهاداً ولا صرفاً ولا عدلا . يخرج من الدين كما تخرج الشعرة من العجين » .

٣ - والإسلام لا يحجر على المسلمين ذوى الرأى أن يجتهدوا فى أمور دنياهم بما لا يصادم الدين ولا ينقض أصلا من أصوله . وهذا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يضع لنا لبنة فى هذا الموضوع ، فقد قدم الشام على معاوية ابن أبى سفيان ، فوجده اتخذ الحجاب والمراكب النفيسة والثياب الفخمة وسلك مسالك الملوك ، وسأله عمر عن ذلك ، فأجابه معاوية : إنا بأرض نحن فيها محتاجون إلى ما ترى ، فقال عمر : لا آمرك ولا أنهاك - ومعنى هذه المقالة من عمر : أنت أعلم بحالك ؛ فإن كنت بحاجة إلى مثل هذا فهو حسن ، وإلا فهو غير حسن .

٤ - وعلى المسلمين أن يفقهوا عاشرة الوصايا التى دعا الله إليها فى سورة الأنعام . قال تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (١) » .

---

(١) سورة الأنعام - آية ١٥٣ .

وصية جامعة تحدد وضع الإسلام ونظمه من الشرائع الوضعية ، وتقرر هذه الوصية أن شريعة الإسلام هى صراط الله المستقيم ، فعلى المسلمين أن يتبعوه ، لتستقيم دنياهم وآخرتهم ، وتتحد كلمتهم ، فإذا اجتهدوا جعلوه إمامهم وأمامهم ، ورصدوا تعاليمه ، ولم يتخلوا عنه . أما إن اتبعوا السبل - سبل الضلال - مخدوعين بما فيها من بريق ، وبما يأتيهم من غير المسلمين من تشريعات ونظم ، فإنهم يختلفون ، وتذهب ريحهم ، ويضلون سبيل الله .

٥ — وإثم المبتدع فى الدين ما ليس منه لا يقف عنده، وإنما يشمله ويشمل من اتبعوه ، ويحمله أوزاراً مثل أوزارهم ، إذ كان لهم جميعاً من عقولهم ما ينير لهم طريق الخير والهدى ، ولكنهم تنكبوا ذلك ، فاستحقوا ما أوعدوا به، أما إمامهم فى الضلالة فقد سعى فى إغوائهم وصرفهم عن الحق، وفى حديث أبى هريرة يقول الرسول الكريم : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

ولا تعارض بين هذا وما قررته الآية الكريمة : « ولا تزر وازرة وزر أخرى(١) » ، لأن هذا الداعية إلى الضلالة إنما يؤخذ بجريرة نفسه ولا يؤاخذ بجريرة غيره ، فقد خالف عن أمر الله - تعالى - فيما يجب من الهدى والدعوة إلى الهدى ، فالقصاص منه يوم القيامة سيكون جزاء ما قدم فى دنياه ، ولولا إمامته هذه فى الضلالة ما ضل القوم « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»(٢) .

---

(١) سورة النجم — آية ٣٨ .
(٢) سورة الكهف آية ١٠٤ .

الحديث السادس

الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات

عنْ أبي عبْدِ الله النعمان بنِ بَشِير - رضى اللهُ عَنْهُمَا - قال : سمعتُ رسولَ الله - صَلىّ اللهُ عليهِ وآله وسَلم - يَقُولُ : « إن الحلالَ بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما أمورٌ مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهاتِ فقد استبرأ لدِينه وعِرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحِمى يوشك أن يرتع فيه . ألا وإن لكل ملكٍ حمى . ألا وإن حمى الله محارمُه . ألا وإن فى الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسدُ كله ، ألا وهى القلب » ، رواه البخارى ومسلم .

راوى الحديث :

هو أبو عبد الله النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة من بنى الخزرج ، وأمه عمرة بنت رواحة ، وهى أخت عبد الله بن رواحة . ولد على رأس أربعة عشر شهرا من هجرة الرسول إلى المدينة ، وهو أول مولود يولد للأنصار بعد هجرة الرسول (١) . وتوفى الرسول وللنعمان نحو من تسعة أعوام ، وهذا يعنى أنه تحمل الحديث وهو صبى مميز وأداه بعد بلوغه . تولى قضاء دمشق وحمص ،

(١) وأول مولود يولد للمهاجرين بالمدينة بعد الهجرة هو عبد الله بن الزبير ابن العوام ، وولد فى العام الثانى للهجرة كالنعمان بن بشير .

ثم ولاية الكوفة زمن معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد ، ودعا النعمان لعبد الله بن الزبير حين خرج ؛ وكان النعمان من الخطباء المعدودين فى عصره ؛ واضطهده بنو أمية لذلك ، وشجعوا على قتله غيلة حوالى سنة ٦٥ هـ ، وتوفى عن بضع وستين سنة .

وروى له أكثر من مائة حديث .

شذور لغوية :

الحلال (كسحاب وبكسر) : الذى لا ريبة فيه وضد الحرام . وفعله من باب جلس .

بين : ظاهر وهو فيعل من بان بمعنى ظهر ، فالحلال بين أى ظاهر متضح منكشف لايخفى حاله ، وكذلك الحرام .

الحرام (كسحاب) : الذى فيه ريبة وضد الحلال ، وفعله من باب كرم وفرح .

مشتبهات : جمع مشتبهة اسم فاعل من اشتبه ، وروى بهذا اللفظ المفرد ، وروى بصيغة الجمع أسماء فاعلين : مشبهات (من أشبه) ومشبهات (من شبه بالتشديد) ومتشبهات (من تشبه) ومتشابهات (من تشابه) ، وروى مشبهات (اسم مفعول من شبه بالتشديد) . والاختلاف فى اللفظ من الرواة . وكلها ترتد إلى الشبهة ، والشبهة هى الالتباس والإشكال ، والشبهة أيضاً هى ما يخيل أنه حجة وليس كذلك ، وجمع الشبهة الشبهات ، وجاء فى الحديث فى قوله : « فمن اتقى الشبهات » والمراد بها المشتبهات أو نظائرها .

اتقى : بمعنى حذر . افتعل من الوقى والوقاية ، بمعنى الصيانة والحفظ ،

قلبت الواو تاء وادغمت فى التاء ، واتقى الشيء توقاه وحذره أي صان نفسه وحفظها منه ، والاسم التقوى .

استبرأ : استفعل من البراءة : تقول برأ من الدين ومن الجرم ومن المخالفة براءة أى خلص منه وسقط طلبه عنه . واستبرأ بمعنى بالغ فى البراءة كقوله تعالى: « ومن كان غنياً فليستعفف » أو بمعنى طلب البراءة من الشبهات من أجل دينه وعرضه لأنه إذا أوقع نفسه فى الشبهة تطاول الناس باتهامه ونسبوه إلى الحرام ، أو بمعنى تأكد من البراءة من قولهم :(استبرأ الجارية) إذا علم براءة رحمها من الحمل ، فأطلق العلم بالحصول وأراد الحصول .

عرضه : العرض (بالكسر) : النفس ، وجانب الانسان الذى يصونه من نفسه وحسبه أن ينتقص ، سواء كان فى نفسه أم سلفه أم من يلزمه أمره ، وموضع المدح والذم منه ، وما يفتخر به من حسب وشرف ، والخليقة المحمودة ، ويطلق أيضاً على الجسد ، وعلى كل موضع يعرق منه ، وعلى رائحته طيبة كانت أو خبيثة .

الراعى : الذى يرعى الماشية أى يسرحها ويرقبها ويباشر رعيها ، وهذه الماشية رعيته . ومنها أخذ الراعي للحاكم والرعية للعامة لقيامه بتدبيرهم وسياستهم .

الحمى (وزان إلى) : كل ما حمى ، والمكان المحظور على غير مالكه . وتقول : كلأ حمى أى محمى . وأحميت هذا المكان جعلته حمى لا يقرب ولا يجترأ عليه ، قال الشاعر :

ونرعى حمى الأقوام غير محرم ··· علينا ، ولا يرعى حمانا الذى نحمى

وتقول أيضاً : أحميت المكان أى وجدته حمى .

يوشك : مضارع أوشك فعل ناقص مضارعه أكثر استعمالا من ماضيه ، يدخل على الجملة الاسمية فيفيد قرب معنى الخبر من مسمى الاسم . وخبره

جملة فعلية فعلها مضارع يقترن بأن غالباً . ومن غير الغالب قول الشاعر :

يوشك من فر من منيته — فى بعض غراته — يوافقها

وقد يستعمل تاما فى مثل (أوشك أن يسافر) فيعرب المصدر المؤول فاعلا .

يرتع فيه : مأخوذ من رتعت الماشية (من باب خضع) أكلت وشربت ماشاءت فى خصب وسعة ، والمرتع موضع الرتوع . وفى أساس البلاغة : من المجاز رتع القوم أكلوا ما شاءوا فى رغد ، ورتع فلان فى مال فلان أكل منه ما شاء فى رغد .

ألا (بفتح الهمزة والتخفيف) : حرف استفتاح . قال ابن هشام فى « مغنى اللبيب » : تكون للتنبيه فتدل على تحقق ما بعدها . وإفادتها التحقيق من جهة تركيبها من الهمزة ولا . وهمزة الاستفهام إذا دخلت على النفى أفادت التحقيق (أى الثبوت ويأتى من توجيه الهمزة التى للانكار على النفى . ونفى النفى إثبات) . وقال الزمخشرى : ولكونها بهذا المنصب من التحقيق لاتكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم نحو قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

محارمه : محارم الله : وهى معاصيه ، وتدل له رواية (حمى الله معاصيه) ورواية (حمى الله المعاصى التى حرمها) وسميت المعاصى محارم ، لأن الله حرم (أى منع) الناس أن يقعوا فيها ، لأنه حرمها عليهم أى جعلها محرمة عليهم

مضغة : قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ .

صلح (من باب دخل وكرم) صلاحا ضد فسد . والصلاح الخير والصواب

فسد (من باب دخل وجلس وكرم) فساداً ضد صلح والفساد الجدب والخطأ .

القلب : قطعة اللحم الصنوبرية الموجودة فى التجويف الصدرى. والقلب هو الفؤاد - وقيل أخص منه - ويطلق على اللب وعلى العقل .

مسائل نحوية :

سمعت رسول الله يقول : انظر إعرابها ص ١٩ .

بينها أمور مشتبهات لايعلمهن كثير : بينها أمور جملة اسمية خبر ومبتدأ، ومشتبهات نعت أمور . وجملة لا يعلمهن كثير نعت ثان . ويجوز أن تعرب حالا لتخصيص صاحبها بالنعت ، والرابط (هن) فى الموقعين .

من اتقى الشبهات فقد استبرأ : جملة شرطية ، واقترنت جملة الجواب بالفاء لبدئها بقد .

من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام : جملة شرطية . وفى رواية البخارى «ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى ، فتكون من موصولة وخبرها (كراع) . كالراعى يرعى: جملة يرعى حالية أو مستأنفة، وفى رواية البخارى تقع نعتا

يوشك أن يرتع فيه : إذا قدرت يوشك ناقصة فاسمها ضمير يعود على الراعى وأن يرتع فى موقع الخبر ، وإذا قدرتها تامة فأن يرتع فى موقع الفاعل . ومذهب ابن مالك أنها ناقصة وأن يفعل تسد مسد معموليها (الاسم وهو فى محل رفع والخبر وهو فى محل نصب) ، قيل : ولا مانع من ذلك لوجود محلين مختلفين لشىء واحد باعتبارين فى نحو أعجبنى كونك مسافراً

ألا وإن لكل ملك حمى (ونظائرها) : ألا استفتاحية ، وإن ... عطف على محذوف مقدر ، والتقدير ألا أن الأمر كما ذكر وإن ..إلخ .

مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله : جملة الشرط تقع نعتا لمضغة ، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، وكله توكيد معنوى للجسد .

أسرار بلاغية :

سمعت رسول الله : راجع بلاغتها فى ص ١٧

إن الحلال بين وإن الحرام بين : جملتان خبريتان الغرض منهما إفادة السامع الحكم الذى تضمنتاه ، ومقتضى ظاهر حاله عدم التأكيد له لأنه غير شاك ولا ريبة عنده فى انكشاف الحلال وانكشاف الحرام ، ولكن أكدت الجملتان بإن لإعطائهما مسحة من اليقين الذى يجلو الحكم فيتمكن لدى السامع . وبين الجملتين وصل ، لاتحادهما فى الخبرية لفظاً ومعنى وبينهما مناسبة الاتفاق فى المسند .

لايعلمهن كثير من الناس : كناية عن أن الذى يعلمهن أى يعلم حكمهن قليل ، وهم العلماء الراسخون فى العلم ، الذين يرجعون إلى النصوص ويستنبطون الأدلة .

فمن اتقى الشبهات : الشبهات هى المشتبهات ، وقلنا : إنهما يرتدان إلى الشبهة . وفى رواية (فمن اتقى المشتبهات) فأعاد اللفظ ولم يضمره للتنبيه على خطر المشتبهات وضرورة اجتنابها والحذر منها — ومثل هذا الداعى نجده فى قوله : (ومن وقع فى الشبهات) — وفى العبارتين تقييد بالشرط لبيان أن حكم الجزاء لايحصل حصولا مطلقاً وإنما يترتب حصوله على حصول مقدماته وأسبابه التى يتضمنها فعل الشرط . وجاء الجواب فى صورة الماضى لتصويره فى صورة الذى حصل فعلا فهو متحقق الحصول كلما تحققت مقدماته وأسبابه .

كالراعى يرعى حول الحمى . . . تشبيه تمثيلى شبه حال الواقع فى الشبهات يجره فعله إلى الوقوع فى الحرام فيستحق عقاب الله ، بحال الراعى يرعى حول

الحمى فيجره فعله إلى اقتحام الحمى نفسه فيستحق عقاب من يحميه ، وهذا من ضرب المثل بالمحسوس لتدرك النفس خطر الأمر ، ولتفطن إلى حاجتها للتأدب مع الله كما تتأدب مع أرباب النفوذ فى الأرض .

ألا : كررت للتنبيه إلى فخامة شأن مدخولها فى كل مرة وعظم موقعه . ومثل هذا التكرار فى مجال الدعوة والدعاوة (الدعاية) من شأنه أن يبدد أية شبهة تراود الناس وأن يجذبهم إلى دائرة الاقتناع بما يدعون إليه، وجاء مدخولها مؤكداً بإن لمزيد من الرغبة فى الاقناع ومزيد من طلب الاقتناع، وليس بعدهما إلا التسليم بالحكم واستبعاد العوامل التى تناهضه .

ألا وهى القلب : جاءت بيانا وتفسيراً لما قبلها من بعد طول التشويق بالحديث عن المضغة التى فى الجسد وتأكيد صلاحه بصلاحها وفساده بفسادها .

فكرة الحديث :

يحث الحديث على ممارسة الحلال وتعاطيه ، وعلى ترك الحرام واجتنابه، وعلى الاحتياط – من أجل سلامة الدين وسلامة العرض – بالورع والبعد عن الأمور المشتبهة ، ودرء الاتهام بالظنة وبالباطل .

ويبين الحديث دور القلب فى الاتجاه إلى فضائل الأعمال أو الانصراف إلى الدنايا ، ويدعو إلى الإعلاء من شأن القلب ، والاهتمام بصلاحه ، واستقامة أعماله .

الإيضاح والبيان :

١ - حدث الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن الحلال بين والحرام بين ، فكلاهما ظاهر واضح منكشف ، لا يخفى أمره على من فقه الدين وعرف الشريعة .

وفى صفة الحلال والحرام رأيان :

رأى بأن الحلال ماورد دليل بحله ، والحرام مالم يرد دليل بحله .

ورأى بأن الحلال مالم يرد دليل بتحريمه ، والحرام ماورد دليل بتحريمه

والرأى الأول : يضيق دائرة الحلال ويوسع دائرة الحرام ، والرأى الثانى على العكس يوسع دائرة الحلال ويضيق دائرة الحرام ، وبعبارة المناطقة: الرأى الأول أخص من الرأى الثانى فى الحلال وأعم منه فى الحرام . وثمرة الخلاف تظهر فى المسكوت عنه الذى جهل أصله ، فعلى الرأى الأول هو حرام لأنه ليس مما ورد دليل بحله ، وعلى الرأى الثانى هو حلال لأنه مما لم يرد دليل بتحريمه ، ولعله مما يعضد اعتباره من الحلال قوله - صلى الله عليه وسلم - « إن الله - تعالى - فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » .

٢ - والحلال حلال : إما لصفة فى عينه كالماء الذى يأخذه الإنسان من المطر ، وإما لسلامة التصرف فى تملكه كالمال المأخوذ عن طريق البيع والإجارة والشركة والشفعة والصلح والهبة والوصية والصدقة والميراث والنفقة والفىء والغنيمة والزكاة والكفارة .

٣ - والحرام حرام : إما لصفة فى عينه كالخمر والخنزير والنجاسة ،

وإما الخلل فى جهة اكتسابه كالمال المحصل عن طريق الربا والظلم ، وكالمال المأخوذ عن طريق العقود الفاسدة .

٣ — والأمور المشتبهات أمور بين الحلال والحرام ، لا يعلمها كثير من الناس، ولا يدرى كثير من الناس أمن الحلال هى أم من الحرام[٢]. وسميت بذلك لأنها تشتبه عليهم وتلتبس فى أذهانهم وتختلط فى أنظارهم ، بينما يعلمها قليل هم أهل العلم والرأى حين يهتدون إلى الدلائل التى يعرفونها بها .

وحاول العلماء أن يصفوا هذه المشتبهات ، وتعددت فيها آراؤهم وتنوعت ، فمن قائل : إن المشتبهات هى المكروهات لأنها عقبة بين الحلال والحرام . وقائل : إنها ما اختلف فى إباحته وحرمته كالخيل محرمة عند الإمام مالك ومباحة عند غيره ، وقائل : إنها ما لم يرد فيها نص بتحليل أو تحريم كالدخان . وقائل : إنها معاملة من فى ماله شبهة أو خالطه حرام . ومع هذا التصوير للمشتبهات يجتمع الرأى حول أساس أخلاقى واحد فيها ، وهو أن الورع فى تركها أو اجتنابها .

ونذكر أمثلة من هذه المشتبهات وكيف اتقاها السلف الصالح :

(ا) اعتكف الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى المسجد ، وجاءته أم المؤمنين السيدة صفية تزوره ، وعندما انصرفت ودعها الرسول إلى باب المسجد ، وحينئذ مر رجلان ، فسلما على الرسول حين رأياه ، وأسرعا فى حياء حين لمحا السيدة ، فاستمهلهما الرسول قائلا : على رسلكما فليس شيئاً تكرهانه إنما هى صفية ، فشق عليهما ذلك وقالا : سبحان الله . وهل نظن بك إلا خيراً . قال الرسول : ما أقول لكما هذا أن تكونا تظنان شراً ، ولكن قد علمت أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شراً ، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم .

---

(١) وهذه رواية الترمذى .

(ب) أرق الرسول ليلة ، فقال له بعض نسائه : أرقت يارسول الله ، فقال : أجل ؛ وجدت تمرة فأكلتها ، فخشيت أن تكون من الصدقة .

(ج) شرب أبو بكر الصديق لبنا كسبه غلام له ، ثم سأله عنه ، فقال الغلام : تكهنت لقوم لم يسلموا فأعطونيه ، فأدخل أبو بكر إصبعه فى فمه وجعل يقيء حتى كادت نفسه تخرج ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء .

(د) مر عمر بن الخطاب برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق ، فعلاه بالدرة ، فقال الرجل . إنها امرأتى ياأمير المؤمنين . قال عمر : هلا حيث لايراك أحد من الناس .

(هـ) خرج أنس بن مالك لصلاة الجمعة ، فرأى الناس راجعين منها ، فدخل محلا بحيث لايرونه . وقال فى ذلك : من لايستحي من الناس لايستحي من الله .

(و) احتفر الظلمة نهراً ، فامتنع بشر بن الحارث عن مائه ؛ لأنه رأى فى حفرهم إياه عصيانا لله .

٤ - وجعل الغزالى للشبهات عدة مثارات ، أطال فى بيانها وتفريعها . ومن هذه المثارات(١) .

(ا) الشك فى السبب المحلل والمحرم . بأن يكون التحريم معلوما من قبل ثم يقع الشك فى المحلل . فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الاقدام عليها ، ومثاله أن يرمى إلى صيد فيجرحه ويقع الصيد فى الماء فيصادفه ميتا ولا يدرى أمات بالجرح أم بالغرق .

(ب) الشك الذى منشؤه الاختلاط بأن يختلط الحرام بالحلال ويشتبه

---

(١) إحياء علوم الدين - كتاب الحلال والحرام .

الأمر ولا يتميز ، كاختلاط رضيعة بعشر نسوة ويستبهم من أرضعتها منهن ، وكأموال المرابين والغاصبين والسارقين .

(ج) أن تتصل بالسبب المحلل معصية فى قرائنه كالبيع على بيع الغير والسوم على سومه والبيع وقت النداء للصلاة من يوم الجمعة . أو معصية فى لواحقه كابتياع العنب من الخمار . أو معصية فى مقدماته كالأكل من شاة رعت فى مرعى حرام أو علفت بعلف مغصوب .

(د) الاختلاف فى الأدلة ، بسبب قيام التعارض بين أدلة الشرع . ومن رأى الغزالى الإمساك ورعاً عن الأكل من الذبيحة والصيد عند ترك التسمية لورود قوله — صلى الله عليه وسلم — : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ليس السن والظفر » ، مع قوله : « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر » . أو بسبب قيام التعارض بين العلامات الدالة على الحل والحرمة ، كأن ينهب نوع من المتاع فى وقت ويندر وقوع مثله من غير النهب فيرى مثلا فى يد رجل من أهل الصلاح فيدل صلاحه على حله ويدل نوع المتاع وندوره من غير المنهوب على حرمته فيتعارض الأمران .

وينتهى الغزالى إلى الأخذ بمبدأ استفتاء القلب حيث أباح المفتى . أما حيث حرم فيجب الامتناع . « ثم لا يعول على كل قلب . فرب موسوس ينفر عن كل شىء ، ورب شره متساهل يطمئن إلى كل شىء . ولا اعتبار بهذين القلبين ، وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال ، وهو المحك الذى يمتحن به خفايا الأمور وما أعز هذا القلب فى القلوب . فمن لم يثق بقلب نفسه فليلتمس النور من قلب بهذه الصفة ، وليعرض عليه واقعته » .

٥ — والشبهات يجب أن تتقى وتتوقى . وفى اتقائها وتوقيها استبراء للدين

والعرض كما قال الرسول . وفى هذه التقوى وهذا التوقى التحرز عن مخالفة الله . وقد مر بنا قول الرسول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم » . وقال بعض الصالحين : التقوى أن يتقى العبد ربه بترك بعض الحلال، مخافة أن يكون حراما .

٦ - ويقول الرسول الكريم : « ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام » . وهو يحتمل أمرين : أحدهما أن من أكثر من ممارسة الشبهات وتعاطيها وقع فى الحرام وهو لا يشعر أنه وقع فيه . والآخر أن من أكثر من ممارسة الشبهات وتعاطيها قارب أن يقع فى الحرام ، إذ المخالفة تسول للمخالف أن يقع فيما هو أكبر منها ، وهكذا . . يتدرج به الأمر حتى يقع فعلا فى الحرام . والشواهد دالة على ذلك : فقليل الشراب يجر إلى تعاطى كثيره ، وتدخين « لفافة تبغ » من شأنه اعتياد التدخين ، والقبلة باب المواقعة الجنسية ، وخلوة الرجل بامرأة أجنبية توسوس بالغواية .

قال هشام : كنت أسير خلف العلاء ، وكان ممن يتوقى الطين ، فدفعه رجل مرة ، فوقعت فى الطين رجله فخاضه ، ثم قال لى : أرأيت يا هشام . كذا المسلم يتوقى الذنوب فإذا وقع فيها خاضها .

وفى الحديث : « لعن الله السارق : يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده » أى أنه يتدرج من البيضة والحبل إلى نصاب السرقة .

وعلى المسلم العاقل(١) أن يتحرى سلامة قوله ، ونزاهته ، ونقاءه

---

(١) التعريف بالحديث الشريف للدكتور محمد السعدى فرهود - ص ١٠٩ - دار الطباعة المحمدية - ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م .

من الفسوق والشتائم والظنون السيئة والمطاعن والمغامز ، وأن يتحرى سلامة فعله ، فلا يطعم ولا يشرب إلا ما يطمئن إليه وما تسكن إليه نفسه . وعلى المسلم العاقل ألا يسعى فى الشر وألا يدل عليه وألا يساعد فيه . وعلى العموم عليه أن يبتعد عن مواطن الريبة والظنة والشبهة ، وإلا وضع نفسه فى موضع التهمة . وخليق بالمسلم أن يتقى الشبهات حتى يستبرىء لدينه وعرضه .

٧ — والرسول الكريم يشبه الواقع فى الحرام بسبب وقوعه فى الشبهات بالراتع فى الحمى بسبب رعيه حوله ، وفى هذا التشبيه جعل الواقع فى الشبهات يقع فى الحرام وليس يوشك أن يقع فيه ، وجعل الراعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه وليس راتعا فيه ، لأن حمى الله معقول لا يدركه إلا ذوو البصيرة فيكثر وقوع كثير من الناس فيه ، أما حمى الناس فمحسوس يدركه كل ذى بصر فيمكنه أن يتحاشاه ويتحرز عنه .

٨ — ومحارم الله هى معاصيه وهى الأشياء التى حرمها ، وقد حماها الله إذ جعل لها حدا لا يجوز اجتيازه ، ومنع الناس من الوقوع فيها ، وأوعد من يتعاطاها العذاب وسوء المنقلب ، ووعد من يجتنبها ويتورع عنها جنته ونعيمه المقيم .

ويقول الغزالى(١) :

الورع عن الحرام أربع درجات :

(١) ورع العدول ، وهو الذى يجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة

---

(١) إحياء علوم الدين - كتاب الحلال والحرام .

به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه ، وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء .

(ب) ورع الصالحين ، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم ولكن المفتي يرخص فى التناول منه بناء على الظاهر ، فهو من مواقع الشبهة على الجملة ، ويصدق عليه قول الرسول : « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » ، ومثاله الامتناع من الاصطياد خوفا من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان وأخذه وملكه .

(ج) ورع المتقين ، وهو الامتناع عما لا تحرمه الفتوى ولا شبهة فى حله ولكن يخاف أن يؤدى إلى محرم ، كما روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وصله مسك من البحرين ، فقال وددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لى هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين . قالت امرأته عاتكة : أنا أزنه لك فأنا جيدة الوزن . قال : لا ، لأنى أخشى أن تمسحى به عنقك وصدغيك ، فأصيب فضلا من المسلمين .

(د) ورع الصديقين ، وهو الامتناع عما لا بأس به أصلا ولا يخاف أن يؤدى إلى ما به بأس ، ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية الاستعانة به على عبادته ، أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية . ومن ذلك ما روى عن ذى النون المصرى أنه كان محبوسا ، فبعث إليه بعض الصلحاء طعاما على يد السجان ، فلم يصب منه بالرغم من جوعه ، وقال فى ذلك : جاءنى الطعام على طبق ظالم - يعنى أن اليد التى أوصلت إليه الطعام لم تكن طيبة .

٩ - والذى يقع فى الحلال أو فى الحرام أو فى الشبهة - أولا - هو القلب ، لأنه مبدأ الإرادة ، ثم تمارس الجوارح والأعضاء تحقيق ما أراده القلب . ولهذا أوضح الرسول الكريم أن فى صلاح القلب صلاح الجسد كله وفى فساده فساد الجسد كله ولا ريب فى هذا ،

فالقلب محل التمييز ، وهو الذى يهتدى إلى الله ويعرفه ويعبده ، وهو الذى يجنح إلى المعاصى والآثام ويستسلم للشيطان والهوى ، فهو فى الأولى يحيا حياة الإيمان وفى الآخرة يغفل عن حياة الإيمان ، ومن هذه الحياة أو من هذه الغفلة تسرى آثاره إلى الجوارح والأعضاء ، ففى رياضة القلب على التقوى والصلاح تهذيب لهذه الجوارح والأعضاء وسلامة لتصرفاتها ، وفى مقارفة القلب للذنب إيحاء لها بالمخالفة عن أمر الله وبالتمرد على ناموس الفطرة السليمة .

وجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة صنوف(١) : أولها الإرادة وهى التى تبعث على جلب النافع الموافق كالشهوة أو على دفع الضار المنافى كالغضب ، وثانيها القدرة وهى المحركة للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد وهى جنود مبثوثة فى سائر الأعضاء ولاسيما العضلات والأوتار ، وثالثها العلم والإدراك عن طريق قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس . ومن استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل اشبه بالملائكة . ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية فهو يأكل كما تأكل الأنعام انحط إلى حضيض أفق البهائم . وفى ارتفاعه إلى مستوى الملائكة يشرق قلبه وينير بالحق ويضوء بالشرع ، وفى انحطاطه يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ، ولهذا العمى أسباب ، منها : كدورة المعاصى ، وكثرة الشهوات ، والعدول عن جهة الحقيقة المطلوبة ، والحجاب باعتقادات تقليدية عن إدراك الحقائق ، والجهل . والقلب — بأصل الفطرة — يقبل آثار الهداية الالهية ويقبل آثار الشيطان قبولا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين بالإعراض عن الشهوات ومجاهدتها وبالتشبه بأخلاق

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين — كتاب شرح عجائب القلب ، وقد أطال ونختصر .

الملائكة ، أو باتباع الهوى والإكباب على الشهوات . وأهـــل التقوى لا يتعذر عليهم أن يسدوا أبواب الشيطان . وما أكثر هذه الأبواب، ومنها : الغضب ، والشهوة ، والحسد ، والحقد ، والغل ، والكبر، والرياء ، والمكر ، والسخط ، والحرص ، والطمع ، والبخل ، والتعصب للأهواء، وسوء الظن. وعلاج القلب فى سد هذه المداخل بتطهيره من هـــذه الصفات المذمومة وأمثالها ، وذلك بالعكوف على الطاعة ، وبمراقبة الله ، وبقراءة القرآن وتدبره ، وبمجالسة الصالحين ، وبتحرى الكسب الحلال .

وعن الترمذى أنه قال : حياة القلوب الإيمان ، وموتها الكفر ، وصحتها الطاعة ، ومرضها الإصرار على المعصية ، ويقظتها الذكر ، ونومها الغفلة .

وقال تعـــالى « إنما يتقبل الله من المتقين »(١) . والتقوى فى القلوب، وانعكاساتها وصداها فى الجوارح والأعضاء وسائر القوى . والقلب أطيب شىء إذا طاب وأخبث شىء إذا خبث ، وربما شاركه اللسان فى هاتين الصفتين :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

---

(١) سورة المائدة — آية ٢٧

الحديث السابع

الدين النصيحة

عن أبي رقيّة تميم بن أوس الداري – رضي الله تعالى عنه – أن النبي – صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الدينُ النصيحةُ » قلنا : لمن ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامّتهم » . رواه مسلم .

راوي الحديث :

هو تميم بن أوس بن حارثة بن سويد بن خزيمة بن ذراع بن عدى بن الدار بن هانئ ، وينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان . وإلى جده الدار بن هانئ هذا ينسب ، أو أن هذه النسبة إلى (دارين) موطنه الأصلي . وكني باسم ابنته رقية لأنها وحيدته .

كان قبل إسلامه نصرانياً ، وأسلم في جماعة من قومه في السنة التاسعة للهجرة . وأقام بالمدينة ، وتولى تزويد مسجد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالقناديل وإضاءتها .

كان كثير التهجد ، حسن القراءة للقرآن وهو يرفع بها صوته .

تولى القضاء في مسجد الرسول في عهد عمر بن الخطاب وبإذن منه ، وانتقل إلى بيت المقدس بعد مقتل عثمان بن عفان . وتوفي سنة ٤٠هـ ودفن في (بيت جبرين) من قرى الخليل في فلسطين .

وروى له ثمانية عشر حديثاً، وليس له في الصحيحين إلا هذا الحديث .

شذور لغوية :

الدين : هو الإسلام وما شرعه الله لعباده من الأحكام . ويطلق الدين

على معان أخر : منها الملة كقوله تعالى : « ورضيت لكم الإسلام دينا » أى ملة ، والجزاء كقوله تعالى : « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » أى جزاءهم ، والقهر والخضوع ومنه تقول العرب (دنته فدان) أي قهرته فخضع ، والحساب ومنه قول لبيد :

حصادك يوما ما زرعت وإنما   يدان الفتى يوما بما هـــو دائن

النصحية : الاسم من نصح الشيء أى خلص وصدق وأصبح نقيا لاغش فيه وسليما لا خلل فيه . وقال ابن الأثير : النصحية كلمة يعبر بها عن جملة ، هى إرادة الخير للمنصوح له ، فليس يمكن التعبير عن هذا المعنى بكلمة غيرها. ومن استعمالها بمعنى الخلوص قولهم : عسل ناصح أى خالص مصفى من الشمع، وبمعنى الصدق قول النابغة :

نصحت بنى عوف ، فلم يتقبلوا   رسولى ، ولم تنجح لديهم وسائلى

أى صدقتهم ولم أكن كاذبا معهم .

وبمعنى النقاء قول النابغة أيضاً :

أبلغ الحارث بن هنـــد بأنى   ناصح الجيب باذل للثواب

أى نقى الصدر فلا غش فيه ولا دخل .

وبمعنى السلامة قولهم : نصح الغيث البلاد إذا أحيا نبتها فى كل مكان فاتصل بحيث لم يترك فضاء ولا خللا ، وهذا المعنى مأخوذ من قولهم : نصح الناصح الثوب أى خاطه الخائط بالنصاح وهو الخيط أو بالمنصح أو بالمنصحة وهى الإبرة (فإذا غلظت فهى الشعيرة) .

والتوبة النصوح تجمع المعانى كلها ، فهى خالصة وصادقة ونقية وسليمة .

أئمة المسلمين : أئمة جمع مسموع لإمام ، والإمام من تأتم به من رئيس أو غيره ، ويطلق على الخليفة، وعلى قيم الأمر المصلح له، وقائد الجند، والدليل،

والأنموذج ، والطريق . وقالوا : الإمامة أربعة : وحى وهى النبوة ، ووراثة وهى العلم ، وعبادة وهى الصلاة ، ومصلحة وهى الخلافة .

عامتهم : العامة خلاف الخاصة . وجمعها العوام مثل الخاصة والخواص.

مسائل نحوية :

الدين النصيحة : جملة اسمية ، مبتدأ وخبره .

لمن — لله : كلاهما خبر لمبتدأ محذوف تقديره هى ؛ أى لمن النصيحة ؟ والنصيحة لله .

أسرار بلاغية :

الدين النصيحة : عبارة تفيد القصر عن طريق تعريف ركنى الإسناد ، وهو قصر موصوف على صفة ، قصر حقيقى بالادعاء والمبالغة أى بفرض أن الدين محصور فى النصيحة فغيرها لايعتد به ، واللام فى النصيحة لام الحقيقة أى أن الدين هو حقيقة النصيحة ، والنصيحة من جملتها الإيمان بالله ورسوله وطاعتهما والعمل بالكتاب والسنة وإحسان هذا العمل ، وليس وراء ذلك من الدين شىء إلاوهو يندرج تحت النصيحة بهذا المفهوم . ويجوز أن نقدر فى العبارة مجازا بالحذف ، والتقدير : عماد الدين النصيحة ، وتدل له رواية الطبرانى : « رأس الدين النصيحة » .

وتستعمل النصيحة فى الدين على سبيل تشبيه الأمور المعنوية بالأمور الحسية ، فتخليص القول والفعل من الغش أشبه بتخليص العسل من الشمع، وفعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح ولم شعثه أشبه بلم الخياط خلل الثوب وضم بعضه إلى بعض .

وسؤال السامعين « لمن » : يشعر أن رسول الله أجمل القول الأول ، ليتشوفوا إلى مزيد من التفصيل فيسألوا .

لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم : جاءت اللام أولا مذكورة على أصلها لتحقيق جواب السؤال . وكررت بعد ذلك ثلاث مرات للتنبيه على ضرورة الاهتمام بالنصيحة للكتاب وللرسول وللأئمة والعامة . قالوا : ولم تكرر اللام فى قوله (وعامتهم)لأنهم لا استقلال لهم إذ هم أتباع للأئمة . ومن رأيى أن الرسول الكريم ينبه بهذا إلى أن النصح لجماعة المسلمين يشمل الأئمة والعامة معاً ، فلا ينبغى أن يوجه النصح للأئمة بعيداً عن العامة ولا للعامة بعيداً عن الأئمة . وهذا الرأى تدعمه رواية « الدين النصيحة ، لله ولكتابه ولرسوله والمؤمنين » .

فكرة الحديث :

يقرر الرسول الكريم فى هذا الحديث أن هذا الدين مبنى على النصيحة ، أى على إخلاص الرأى والقول والفعل ونقائها من الغش والتدليس ، وعلى جمع الكلمة واستقامة الأمر ، ويظهر ذلك فى أداء حق الله من الإيمان به وطاعته والامتثال له ، وحق القرآن الكريم من الإيمان به وتعظيمه والانتصار له ، وحق الرسول من الإيمان به وطاعته واتباع سنته ، وحق أئمة المسلمين وعامتهم من إرشادهم إلى ما يصلح دينهم ودنياهم وإظهار الحق لهم وعدم غشهم .

الإيضاح والبيان :

١ - هذا الدين هو النصيحة - هكذا يقرر الرسول - ﷺ - فالدين محصور فى النصيحة أو معتمد عليها .

والنصيحة فى حقيقتها هى الإخلاص عينه، وهى الصدق عينه، وهى النقاء عينه، وهى السلامة عينها؛ يستوى فى ذلك ما يأخذ به الإنسان نفسه فى علاقته بالله - تعالى - وبكتابه المجيد، وبرسوله الكريم، وما يبذله الناصح للخلق من رأى ومشورة، يجتهد فى إيضاحهما على مقتضى الشرع. فهو دائماً يتحرى طاعة الله ورضاه، ويتطلب ثوابه، ويتوقى ملاحظة الخلق ورياءهم، ولا يبالى مدحهم وذمهم مادام يقيم وجهه للدين حنيفاً ويهدف إلى إعلاء كلمة الشرع والتبصير بالطريق إلى الله. فالناصح مخلص وصادق ونقى من الغش وسليم من الخلل، أو هكذا يجب أن يكون. والمستنصح طالب للإخلاص والصدق ومبتغ نقاء نفسه وسلامة يقينه، فإذا أفاد مما نصح به اكتسب الخلوص والصدق والنقاء والسلامة.

٢ - وجاءت هذه العبارة: (الدين النصيحة) مجملة، فصلها الرسول الكريم بعد ذلك حين أوضح من تتجه إليه النصيحة فقال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

ويجب أن نفصل بين النصيحة لله والنصيحة للعباد، فالله - سبحانه وتعالى - غنى عن النصيحة، غنى عن أن ينصح له ناصح، كما هو غنى عن العبادة وغنى عن أن يعبده العابدون، وإنما النصيحة لله ترجع فى حقيقتها إلى الإنسان نفسه فى نصحه نفسه، أو كما قيل: النصح لله هو تقديم حق الله على حق الخلق. أما النصيحة للخلق فهى إخلاص الرأى من الغش وهى الاجتهاد فى المشورة. ولعل النصيحة لكتاب الله - ومحورها الانتصار له - تقرب فى وجهها من النصيحة لله. ثم النصيحة للرسول - ومحورها طاعته وموالاة سنته - قريبة من النصيحة لله من وجه، ولكنها فى حياة الرسول - ﷺ - قد تبدو من بعض وجوهها شبيهة بالنصيحة للخلق، ومثالها ما روى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نزل فى غزوة بدر منزلا،

فسأله الحباب بن المنذر بن الجموح : أهذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ . قال الرسول: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. قال الصحابى : إذن تمضى بنا إلى أعلى الماء حتى نستق وندفع عنه عدونا . وأخذ الرسول بهذه النصيحة .

٣ - والنصيحة لله تعنى : الإيمان بالله، وإخلاص الاعتقاد فى وحدانيته فى ذاته وصفاته وأفعاله وخلقه ، ووصفه بصفات الكمال الالهية ، ونعته بنعوت الجلال الربانية ، وتنزيهه عن كل عيب ونقيصة ، ونفى الشريك والزوجة والولد عنه ، وعبادته حق العبادة، وطاعته حق الطاعة ، وإحسان العبادة والطاعة له ، وعدم الانحراف فيهما ، ومراقبة الله فى السر والعلن ، والحرص على طاعاته وموالاة من يطيعه ، واجتناب معاصيه ومجافاة من يعصيه ، والاستقامة على طريق الحق والخير ، والاعتراف بنعم الله، وشكره عليها ، والثناء عليه بما هو أهله ، والائتمار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، والتوكل عليه، والاعتماد عليه وحده فى تحقيق الغايات، والضراعة إليه وحده، وإحسان الظن به ، وتوقع الخير لديه ، والاطمئنان إلى عدله وتوفيقه وثوابه ، والإيمان بقضائه وقدره ، والرضا بما يتراءى من آثارهما، والاعتقاد أن إرادته - سبحانه وتعالى - تجرى بالقضاء والقدر لخير هذا العالم ونفعه ، وقد تجرى بما يخفى علينا معه وجه النفع فى بعض الأحوال أو بما لانحبه لحكمة لا نعلمها ، والدفاع عن دين الله ، والدعوة إليه ، والجهاد لنشره ، وبذل النفس والمال فى سبيله .

٤ - والنصيحة لكتاب الله - أى القرآن الكريم - الإيمان به، والتصديق بأنه كلام الله أنزله على عبده ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وبأنه المعجزة الكبرى للرسول الكريم ، تحدى به الخلق أن يأتوا بمثله أو بمثل عشر آيات منه أو بمثل سورة منه ، فعجزوا وأفحموا .

وتعنى النصيحة لكتاب الله: الإخلاص فى قراءته، وتلاوته حق تلاوته، واستدامة هذه التلاوة، والتأدب بآدابها(١)، والاستماع إليه فى وعى وانتباه، وتدبر معانيه، والعمل بما فيه، ورب تال للقرآن والقرآن يلعنه — كما قال بعض السلف — وهذا هو القارىء الغافل المعرض عما فيه، وربما لايسقط منه حرفا ولكنه يسقط العمل به. وتعنى النصيحة لكتاب الله تفهم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه وأخباره، والتفكر فى عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم بما تشابه منه، والبحث عن عمومه وخصوصه، وعن ناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعوة إليها وإلى العمل بمقتضاه. وفى حديث عثمان بن عفان — رضى الله عنه —: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وتعنى النصيحة لكتاب الله تعظيمه وتوقيره، وتعظيم أهله وتوقيرهم، ففى حديث أنس — رضى الله عنه — «أهل القرآن أهل الله وخاصته». وعلى المسلم الدفاع عن كتاب الله ومواجهة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه.

وفى حديث أبى موسى الأشعرى: «تعاهدوا هذا القرآن، فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من صدور الرجال من الإبل فى عقلها»، فالرسول الكريم يأمرنا بتعاهد القرآن. والتعاهد فى حقيقته تجديد العهد به، وهذا يقتضى ملازمته، وملازمته فى تلاوته والنظر فيه والعمل بما جاء به، وحياطته وصيانته. وينذرنا الرسول بانفلاته وتفصيه كما تنفلت الإبل من عقلها إن لم يتعاهده المسلمون، وهذا التعاهد يستلزم امتلاء الصدور من القرآن، واستيعابه، ووعيه، وفقهه، واجتلاء أسراره(٢).

---

(١) أفاض الغزالى فى بيان آداب التلاوة الظاهرة والباطنة ـ راجع احياء علوم الدين ـ كتاب آداب تلاوة القرآن.

(٢) شرح هذا الحديث فى كتابنا: فى رحاب الهدى النبوى — ص ٧٥

ونحن - المسلمين - فى نهضتنا الحاضرة أحوج ما نكون إلى الرجوع إلى القرآن الكريم ، والاستناد إليه فى شئون التشريع ، وتنظيم المجتمع ، وتربية الأفراد ، وتوجيه السلوك ، وسنجد فيه حتما تفصيل عقيدة الإيمان، وأسس المعاملات الاقتصادية ، ونظم الزواج والطلاق والميراث وما إليها من حاجات الهيئة الاجتماعية ، وعلاقة المسلمين بعضهم ببعض . وعلاقتهم بغيرهم فى السلم والحرب ، والحدود التى تلتزم ؛ صيانة للأرواح ، ووقاية للأموال ، وصونا للأعراض ، ودرءاً للمفاسد .

٥ - والنصيحة لرسول الله « محمد » - صلى الله عليه وسلم - الإيمان به ، والتصديق بما أتى به من عند الله ، وبأن رسالته هى الرسالة الخاتمة ، وطاعته فيما أمر به وفيما نهى عنه ، واتباع سنته ، وإحياء طريقته ، وبث دعوته ، والتفقه فى الحديث . ونشر علومه ، وتعليمها ، والإمساك عن الكلام فيها وفى الحديث بغير علم ، وإجلال الرسول ، وتوقيره ، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه، ومحبته ، ومحبة أهل بيته وصحابته ، وإعظام أهل الحديث .

٦ - والنصيحة لأئمة المسلمين : تشمل الأئمة الرؤساء والحكام وأولى الأمر ، والأئمة العلماء فى الدين .

فأما النصيحة للأئمة الرؤساء والحكام وأولى الأمر فهى : معاونتهم فى نشر الحق ، ومساندتهم فى تأييده ونصرته ، ومساعدتهم على إقامة أحكام الشريعة ، وردهم إليها إن جاوزوا حدودها ، وتذكيرهم بما فيه منفعة المسلمين، وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه من أمورهم ، والسمع لهم والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره(١) ، وتأليف الناس لطاعتهم ، والامتثال لهم فى غير

---

(١) وفى حديث عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال : « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره، =

معصية الله ، وترك الخروج عليهم طالما كانوا يوفون بما عاهدوا الله عليه ، والثناء عليهم بما يستحقون .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر درجات(١) : التعريف ، فالوعظ ، فالتخشين في القول ، فالمنع بالقهر . ولا يجوز مع الأئمة الرؤساء والحكام وأولى الأمر إلا التعريف والوعظ . أما المنع بالقهر فليس يجوز لآحاد الرعية ، لأنه يحرك الفتنة ويهيج الشر ، وأما التخشين في القول فإن كان الناصح لا يخاف معه إلا على نفسه فجائز بل هو مندوب إليه(٢) ، وإن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز . أقول : وفي البلاد التي تأخذ بالنظام النيابي يملك الشعب سلاحا قوياً يرفعه في وجه الحاكم ، وهو حجب الثقة عنه وحبس التأييد له ، وهذا كفيل برشاد الحاكم وسلامة تصرفه واستقامة أمره .

٧ — وأما النصيحة لأئمة علماء الدين فهي قبول ما يروونه ، والعمل بما يفتون وما يقررون من أمور الدين ، وتقليدهم في الأحكام الشرعية — إن كان المرء في دور التقليد — ونشر مناقبهم ، وإحسان الظن بهم .

وقال سهل بن عبد الله : لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعالم ، فإذا عظموهما أصلح الله دنياهم وأخراهم ، وإذا حقروهما أفسد الله دنياهم وأخراهم .

٨ — والنصيحة لعامة المسلمين تعني إرشادهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم ،

= وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » . والسمع قبول ما جاء به ، والمنشط ما يسرع الإنسان إلى عمله راغباً فيه ، والمكره ما يعمله الانسان كارها ، والأثرة التفضيل والتقديم .

(١) إحياء علوم الدين للغزالي — كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(٢) ولعل هذا من الجهاد الذي أشار إليه الرسول عندما سئل : أي الجهاد أفضل ؟ قال — صلى الله عليه وسلم — : « كلمة حق عند سلطان جائر » .

والتوفر على مصالحهم ، والسعى فى خيرهم ، وقضاء حاجاتهم فى المحضر وفى المغيب ، وزرع المحبة والمودات بينهم . واستحسان مايظهرون من الرشد ، وتشجيعهم على الازدياد منه . واستهجان مايبدون من الغواية ، وصرفهم عنها ، والبراءة إلى الله منها ، وأن يحب لهم ما يحبه لنفسه ، وأن يكره لهم ما يكرهه لنفسه ، وأن يصون اللسان عن عيبهم ، ويكف اليد عن أذاهم ، ويحمى أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، ويسد خلتهم ، ويعاونهم على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان ، ولا يغشهم ، ولا يسكت عن بيان مايخالفون عن أمر الله ، وأن يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويفى لهم ، ويصدق فى معاملتهم ، ويزكى عن علمه ، بتعليم جاهلهم ، وطب مريضهم ، والمحاماة عن مظلومهم . . الخ .

٩ — وخص الحديث المسلمين أئمتهم وعامتهم بالنصيحة دون أهل الذمة ، قيل : لأن أهل الإسلام أقرب إلى الإجابة من أهل الذمة ، وقيل : لأن النصيحة الكاملة تكون للمسلمين بخلاف الذميين إذ لا يؤمرون بالطاعات التى يؤمر بها المسلمون ، وقيل : ذكر الحديث المسلمين من باب التغليب فأهل الذمة توجه النصيحة إليهم بأن يسلموا وأن يحتكموا إلى كلمة سواء هى كلمة التوحيد .

١٠ — وهذه المعانى التى أوردناها للنصيحة فرض عين فى جنب الله ، لأنها صنو الإيمان بالله . وكذلك النصيحة لكتاب الله ولرسول الله بمعنى الإيمان بهما . أما البحث فى القرآن ومدارسته ففرض كفاية ، وأما التفقه فى السنة ونشر علومها ففرض كفاية وفرض العين — كما هو معلوم — واجب التزامى على كل مسلم بالغ عاقل ، وفرض الكفاية واجب كفائى إذا قام به بعض المسلمين سقط الواجب عن الباقين .

١١ — والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم فرض كفاية فيما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير

ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون »(١) ، فالآية توجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتبين أن الفلاح منوط بذلك ، ولكن على سبيل فرض الكفاية لا على سبيل فرض العين ، فإنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل : (كونوا كلكم آمرين بالمعروف)، بل قال : (ولتكن منكم أمة) ، فإذن مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين ، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لامحالة(٢) . وأما قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا ، عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم »(٣) فخير بيان له هو قول أبي بكر الصديق — رضى الله عنه — فى إحدى خطبه : إنكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها ، وإنى سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « ما من قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » . وقد قال الرسول الكريم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » .

١٢ — وإن وجود الرأى العام لدى المسلمين وقوة هذا الرأى العام كفيلان بسلامة المجتمع الإسلامى ، رعاته ورعاياه ، أئمته وعامته . وإذا عرف كل واجبه وأداه - وأدى حق الله عليه - استقام المجتمع على الجادة ، وأظله لواء العدالة ، وانتظمت شئونه ، وانتفت منه الفوضى والشرور والجرائم .

---

(١) سورة آل عمران — آية ١٠٤ .

(٢) إحياء علوم الدين — المرجع السابق (٣) سورة المائدة الآية ١٠٥

١٢ — وقال تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»(٤). وفي هذه الآية الحكيمة يرشد الله رسوله إلى أن يدعو إلى الإسلام مستعيناً بالحكمة أي الحجة القاطعة والدليل الظاهر الصحيح ، ومستعينا بالموعظة الحسنة أي النصيحة الخالصة ، وإلى أن يجادل — إذا جادل — بالتي هي أحسن ، أي بأحسن طرق المجادلة والنقاش ، وهي التي تعتمد الإقناع والبرهان ، وتستند إلى الرفق واللين .

وإذا كان الرسول — وهو الداعية الرباني — يسلك هذه الطريق القويمة في الدعوة إلى سبيل الله فغير الرسول من الدعاة والمصلحين الذين ينهضون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليهم أن يهتدوا بمثل هذا الهدي ويأتسوا بالرسول الكريم .

والواقع أن ليس كل الناس ينصبون أنفسهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنما الذي ينصب نفسه لذاك هو القادر عليه ، البصير بوجوه الأمر والنهي .

ويحتاج الداعية — مع القدرة والعلم - إلى الورع ، وحسن الخلق ، والتلطف ، والترفق ، والتحلم ، والصبر ، ونبذ الرياء والسمعة ، فهذه الصفات كفيلة له ولما يدعو إليه بالسمع والطاعة والإقبال . وقد يحتاج الداعية إلى تخير الأوقات واللحظات للوعظ . وقد يجد الوعظ سراً أفيد من وعظ العلن ، ومما نقل عن الإمام الشافعي : من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه .

ولنا في العترة النبوية خير أسوة ، فقد روى أن الحسن والحسين —

---

(٤) سورة النحل — آية ١٢٥

رضى الله عنهما ـ أبصرا شيخا يفسد وضوءه، فاتفقا على أن يرشداه بطريقة خاصة ، فقال له أحدهما : أيها الشيخ الجليل ، إنا نريد أن نتوضأ بين يديك، حتى تنظر إلينا وتعلم من يحسن منا الوضوء ومن لا يحسنه ، فلما فرغا من وضوئهما قال الشيخ لهما : كلاكما أحسن وضوءه ، وأنا الذى لم أحسن الوضوء . فجزاكم الله ـ أهل البيت ـ عنا خير الجزاء .

الحديث الثامن

هـذا الدين بالغ غايته

عن ابن عُمرَ - رضى الله تعالى عَنهمَا - أن رَسولَ الله - صلى الله تَعالى عَليه وَعَلى آله وَسلم - قالَ . «أمِرْتُ أن أقاتِلَ الناس ، حَتى يَشهَدوا أنْ لا إله إلا الله وأن محمداً رَسول الله ، ويُقيموا الصلاَة ، وَيؤتوا الزكاة ؛ فإذا فعلوا ذلك عَصَموا منى دماءَهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وَحسابُهم عَلىَ اللهِ تعالى» ، رواه البخاري ومسلم .

راوى الحديث :

سبق التعريف بابن عمر - رضى الله عنهما - عند الكلام على الحديث الثالث ص - (٥٩) .

شذور لغوية :

أمرت : من الأمر بمعنى الطلب ، والفعل من باب نصر ، ويتعدى إلى مفعولين ثانيهما بالباء الجارة . وقد يستعمل الفعل متعديا إلى مفعول واحد بمعنى أشار ، قال الشاعر :

ألم تر أنى لا أقول لصاحب إذا قال: مرنى - أنت ما شئت فافعل
ولكننى أفرى له فأريحه ببزلاء تنجيه من الشك فيصل

(مرنى بمعنى أشر على ، وأفرى له بمعنى أعد له رأيى ، والبزلاء المشورة والرأى الجيد) .

أقاتل : مضارع قاتل ، والصيغة فى أصلها مفاعلة من القتل . والقتل الإماتة وإزهاق الروح بضرب أو حجر أو سم أو علة ونحوها . وسيأتى فى الإيضاح مزيد من القول فيه .

الناس : المراد الإنس وهم ذرية آدم. وفى اللغة يطلق الناس على الإنس والجن بدليل قوله تعالى : « الذى يوسوس فى صدور الناس * من الجنة والناس ». فالناس الأولى مفسرة بالجنة والناس ، وسمى الجن ناساً كما سموا رجالا فى قوله تعالى : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن » وكانت العرب تقول : رأيت ناساً من الجن . والناس اسم وضع للجمع كالقوم والرهط وواحده إنسان من غير لفظه لأن الناس من النوس وهو التحرك والإنسان من الأنس أو من النسى أى النسيان ، وقيل أصله أناس حذفت الهمزة تخفيفا . وقيل حذفت الهمزة وعوض عنها ال ، ويرده أن ناسا استعملت بدون ال ومن الواجب بقاء المعوض أو العوض ولا يجوز الخلو منهما معا . وقال صاحب « القاموس المحيط » : أناس جمع إنس وهو جمع عزيز . والنحويون لايذكرون (فُعال) جمعاً وإنما يذكرونه اسم جمع غير تكسير ، وبعضهم قال : إنه ورد جمعاً نادراً فى كلمات محصورة نظمها ناظمهم فى قوله :

ما سمعنا كلما غير ثمان هن جمع وهى فى الوزن فعال
فرباب ، وفرار ، وتؤام ، وعرام ، وعراق ، ورخال
وظؤار جمع ظئر ، وبساط جمع بسط . هكذا فيما يقال(١)

---

(١) الرباب جمع ربى (وزان حبلى) وهى الشاة إذا ولدت والشاة الحديثة النتاج والإحسان والنعمة والحاجة والعقدة المحكمة . والفرار جمع فرير (وزان عليل) وفرار (وزان غراب) وفرور (وزان صبور) وهو ولد الظبية أو النعجة أو البقرة الوحشية. والتؤام جمع توأم وهو من جميع الحيوان المولود مع غيره فى بطن من الاثنين فصاعدا ذكراً أو أنثى أو مختلطا والعرام جمع عرم محركة وهو سواد يختلط ببياض فى أى شىء ، والعظم أكل لحمه، وجمع عرم (وزن نسر) الدسم وبقية القدر . والعراق جمع عرق (وزان نسر) العظم أكل لحمه . والرخال جمع رخل ورخلة (بالكسر) ورخل (ككتف) =

يشهدوا : الشهادة الإخبار عن أمر متيقن .

يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة : تناولنا فى ص (٣٢) الصلاة وإقامتها والزكاة وإيتاءها، و(ال) فى الصلاة والزكاة للعهد أي الصلاة المفروضة والزكاة المفروضة .

عصموا : من العصمة وهي المنع والوقاية والحفظ والاكتساب، والفعل من باب ضرب .

دماءهم : الدماء جمع دم .ولامه ياء ، فأصله (دمى) ، واستعمل المفرد من غير لام ، وتعاد فى المثنى فيقال دميان أو يستغنى عنها كالمفرد فيقال دمان . وتعاد فى الجمع ثم تقلب همزة لتطرفها واقعة بعد ألف زائدة .

أموالهم : الأموال جمع مال ، والمال ما ملكته من كل شيء ،فيشمل النقد وكل ما يقوم به من الأنعام والمواشي والعروض وغيرها .

= الأنثى من الضأن.وظؤار جمع ظئر (بالكسر) وهى العاطفة على ولد غيرها المرضعة له فى الناس وغيرهم . وبساط جمع بسط (بكسر أو بضم أو بضمتين) الناقة المتروكة مع ولدها لاتمنع. هذه ثمانية جموع ، وقد جمعت ثمانية أخر وهى : الجمال جمع جمالة (مثلثا) وهى الخيل والقطيع من النوق لاجمل فيها . والدحال جمع دحل (بالفتح) المصنع يجمع الماء و نقب ضيق فمه متسع أسفله حتى يمشى فيه،والخرق فى بيوت الأعراب يجعل لتدخله المرأة ونحوها إذا دخل البيت أحد . والدقاق جمع دق (بالكسر) أى دقيق وهو الفتات . والرجال جمع راجل وهو الماشي على رجليه ليس له ظهر يركبه . والرذال جمع رذيل وهو الخسيس الدون من كل شيء ويقال للواحد أيضا رذال . والرقاق جمع رقاقة وهى الخبز الرقيق . والركاب جمع راكب. والكسار جمع كسر أو كسرة (بالكسر) ما تكسر من الشيء ودق . فإذا أضفت إليها الأناس حصل لك سبعة عشر جمعاً ، وربما زدتها مما تقرؤه وتطلع عليه

حق الإسلام : الحق واحد الحقوق ، والإسلام المقصود به الدين

حسابهم : الحساب المحاسبة ، وأصلها أن تعدلمن تحاسبه ماله وماعليه . والحساب يقتضى الجزاء والمكافأة ، ثوابا أو عقابا .

مسائل نحوية :

أن اقاتل الناس : المصدر المؤول فى موقع المجرور بالجار المحذوف . ويكثر حذف الحرف الجار مع أنْ وأنّ إذا أمن اللبس . وجوز بعض النحاة أن يكون المصدر المؤول فى محل النصب على نزع الخافض إذ يضعف حرف الجر عن أن يعمل محذوفا .

حتى يشهدوا : الفعل منصوب بعد حتى ، وحتى تفيد الغاية أو تفيد التعليل . وكلا المعنيين منظور فى الحديث .

أن لا إله إلا الله : سبق إعرابها فى ص (٣٨) ، والمصدر المؤول فى موقع المفعول به للفعل السابق .

أسرار بلاغية :

أمرت : طوى ذكر الفاعل — وهو الله سبحانه وتعالى — لشهرته وتعينه إذا لا آمر لرسول الله إلا الله .

الناس : ربما قصد عموم الناس منذ البعثة الشريفة إلى أن تقوم القيامة ليعد كل ذى أمر نفسه لهذا العمل ، وربما قصد عبدة الأوثان ونحوهم من الكافرين وفيه — إذن — تخصيص العام ، ومنه ماورد فى القرآن الكريم من إطلاق الناس على أهل مكة فى قوله تعالى فى سورة الإسراء : « وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » . وعلى بنى إسرائيل كقوله فى سورة المائدة : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » . وعلى المؤمنين كقوله فى سورة البقرة : « والذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله

والملائكة والناس أجمعين » . وعلى النبي كقوله في سورة النساء : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » .

وأن محمداً رسول الله : حقه أن يقول « وأني رسول الله » بالاضمار - وقد وردت بهذا رواية - فأظهر لحكاية الصيغة المطلوبة ، ولبيان أن الأمر لايتعلق به كشخص وإنما يتعلق به كرسول من رب العالمين .

يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة : راجع ما قلناه فيهما ص (٤٠) .

فإذا فعلوا ... : عبر بإذا الدالة على التحقيق مع أن فعلهم يدخل في إطار الممكن فالموضع لإن ، وذلك للتفاؤل بحصول الفعل أو للاشارة إلى تيقنه من حصوله ولو على المدى البعيد . فإن قلت : إن الفعل تحقق من بعض دون بعض - أجبت بأن « البعض » الفاعل استحق التنويه بهذا الفعل .

دماءهم : أي أنفسهم من إطلاق الجزء على الكل على سبيل المجاز المرسل .

فكرة الحديث :

يقرر الرسول الكريم - ﷺ - أن أمر هذا الدين بالغ غايته إذا عمل المسلمون على نشره ودفعوا عنه ، حتى تسود كلمة الله ، وتعلو راية الحق ، وإنه ليكفي في إظهار أمر الإسلام النطق بكلمتي الشهادة وإقامة الصلوات الخمس المفروضة وإيتاء الزكاة الواجبة ، فإذا تحقق ذلك قبل ولي الأمر من المسلمين ما أظهروه ، وحموا أنفسهم وصانوا أموالهم واطمأنوا إلى قيام الدولة بهذه الحماية وهذه الصيانة ، إلا إذا عصوا وخالفوا عن أمر الله واقتضى عصيانهم ومخالفتهم المساس بهذه الأنفس والأموال . حينئذ يجب أن تؤخذ حقوق الإسلام منهم . وفي الحكم على مدى إيمانهم وسلامة يقينهم يترك الله - سبحانه وتعالى - هذا الأمر وحسابهم على الله .

الإيضاح والبيان :

١ - يقول رسول الله - ﷺ - : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » .

ونتعرف - أولا - إلى المأمور به في هذا الحديث . والمأمور به هو قتال متقل فما المقصود من القتال ؟ .

القتال والمقاتلة فعل يدل على المفاعلة من القتل ، والمفاعلة نسبة الحدث في الفعل الثلاثي إلى الفاعل واقعاً على المفعول صراحة ونسبته إلى المفعول واقعاً على الفاعل ضمنا ، فهما مشاركان في الحدث فكل منهما فاعل له من وجه ومفعول له من وجه ، فعبارة مثل عبارة (يقاتل خالد عدوه) ومؤداها أن خالداً وعدوه كليهما يفعل القتل بصاحبه ويقع عليه القتل من صاحبه ، فسبيل هذا الفعل وأمثاله أن يكون بين اثنين بقصد المشاركة ، وهذا هو الغالب ، تقول : شاركت محمداً ونادمت هشاما وجادلت عصاما وقاومت اللص وجاذبت الحبل . ومن غير الغالب أن يكون من الواحد كالثلاثي مثل سافرت بمعنى سفرت ودافعت عن الواطن بمعنى دفعت عنه وقد يتعلق بالمفعول من غير قصد المشاركة كقولك راجعت الكتاب وعاودت الأمر . وفي لسان العرب : ليس كل قتال بمعنى القتل ، يقال : قاتل الله فلانا أي عاداه ، وفي الحديث « قاتل الله اليهود » أي قتلهم أو لعنهم أو عاداهم ، وفي حديث المار بين يدى المصلي : « قاتله فإنه شيطان » - بصيغة الأمر - أي دافعه عن قبلتك .

والذي أرتضيه - بعد هذه السياحة اللغوية - هو هذا المعنى الأخير (الدفاع والمدافعة) ، فقوله ﷺ - : « أمرت أن أقاتل الناس . . » معناه - والله أعلم - أمرت بأن أدافع الناس عما في نفوسهم من الشرك

والكفر والمعصية حتى ينتهوا إلى الوحدانية والاعتراف برسالة محمد والطاعة المتمثلة فى الصلاة وفى الزكاة، فهذه الأمور يقوم بها دين الله فى الأرض وتعلو بها كلمته . والمدافعة قد تكون بالدعوة والنصيحة والعظة ، وقد تكون بالمحاجة والاقناع ، وقد تكون بالحرب والجهاد .

على أننى لا أمنع أن يوجه الأمر إلى المقاتلة أى المحاربة ، فهى إحدى طرق نشر الاسلام ، أذن للرسول فيها بعد هجرته النبوية الشريفة ، فهى مقاتلة من أجل الانتصار لدين الله ، أى من أجل فكرة ، ولا بد لكل فكرة من أن تكون لها قوة تحميها وشوكة تذود عنها حتى لا تتبدد الفكرة وحتى لا تستشرى دعوة الباطل . والقرآن والسنة على أنه لا إكراه فى الدين ، قال تعالى: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »(١) ، وقال مخاطباً الرسول الكريم : «ولو شاء ربك لآمن من الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »(٢). وبيان ذلك (٣): أن الإكراه والإيمان نقيضان لا يجتمعان ، فالحرب للدعوة إلى الإسلام ليست لإكراه الناس على الدخول فيه ، بل هى لتمكين الدعاة إليه من مواجهة الشعوب ودعوة أفرادها ، فمن حال بين الدعوة وأن تصل إلى الشعوب وجب قتاله ، لأنه ظالم لرعيته ، وهو يحارب الإسلام فى داخل بلده فيقتل من يسلم فيكون معتديا ابتداء بمنع الدعوة ومعتديا فى الواقع لأنه يقتل المسلمين ويفتنهم عن دينهم . والرسول ﷺ - بعد ما تبين له أن البلاد القريبة علمت بالدعوة الإسلامية اتجه إلى الملوك والحكام يدعوهم إلى الاسلام ، ويبين لهم أنهم إن لم يسلموا فعليهم

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٥٦ .

(٢) سورة يونس - آية ٩٩ .

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : الجهاد - من بحوث المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية . رجب ١٣٨٨هـ/ سبتمبر ١٩٦٨ م .

إنهم رعاياهم الذين لم تصل إليهم الدعوة لأنهم يحاجزون بين هؤلاء الرعايا وهذه الدعوة أن تصل ، وأكثر هؤلاء الملوك والحكام لم يردوا بالقول الكريم أو غير الكريم ، فكان لا بد من القتال أو يتخلى الرسول عن الدعوة التى أمر بتبليغها بقوله تعالى « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (١). أما من لم يمنعوا الدعوة الإسلامية فلا يقاتلهم الرسول، إذ يدخلون فيمن منع من قتالهم بقوله تعالى : « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (٢) وهذا السلم يتضمن فى معناه ألا يحولوا بين الناس والاسلام ، فلا سلم ممن يحارب الدعوة الاسلامية ، وإن الرسول ـ ﷺ ـ لم يتقدم إلى الشعوب ابتداء بل تقدم لرؤسائها ليمكنوه، فلما لم يمكنوه حمل السيف فى وجوههم .

وفى أول أمر الاسلام بمكة كان الرسول مأموراً بالانذار فقط ، قال تعالى : « يأيها المدثر قم فأنذر » (٣) ، وقال: وأنذر عشيرتك الأقربين » (٤) وكان جماعة من أصحاب الرسول بمكة يقولون له ـ وقد أصابهم الجهد والبلاء من أذى قريش ـ : يارسول الله ، كنا فى عز ونحن مشركون ، فلما صرنا إلى الإسلام صرنا إلى مذلة فأذن لنا فى قتال هؤلاء فأنهم قد آذونا ، فيقول الرسول لهم : كفوا أيديكم عنهم فانى لم أومر بقتالهم . وتحمل الرسول ومن معه من المسلمين الأولين الأذى فى سبيل الدعوة ، حتى يفسح المجال لاعتناق الإسلام عن رغبة فيه لا عن طريق القهر والإرهاب .

---

(١) سورة المائدة ـ آية ٦٧ .

(٢) سورة النساء ـ آية ٩٠

(٣) سورة المدثر ـ آية ١ و ٢ .

(٤) سورة الشعراء ـ آية ٢١٤ .

وبعد الهجرة أذن للرسول - ﷺ - فى القتال . وكان فى أول أمره لرد عدوان المعتدين وكف أذاهم أى لقتال من ابتدءوا بالقتال، قال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله(١) » ، وقال: « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين • واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين • فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم • وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين • الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين »(٢) . وفى هذه الآيات البينات أقر الشرع مبدأ حرمة المسجد الحرام والشهر الحرام ؛ لا يقاتل المسلمون فيهما إلا إذا قوتلوا فيهما(٣) .

٣ - والآمر للقتال هو الله - سبحانه وتعالى - إذ لا آمر لرسول الله إلا الله .

ونتساءل : أهذا الأمر خص به الرسول أم أنه يشمل كل ذى أمر إلى شئون المسلمين ؟ والذى تطمئن إليه النفس شموله أولياء أمور المسلمين ، فإن تقاعسوا عنه وجب على عقلاء الأمة أن ينصحوا لهم . وقد دعا

---

(١) سورة الحج - آية ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سورة البقرة - الآيات ١٩٠ - ١٩٤ .

(٣) واقرأ الآيات : البقرة ٢١٧ والتوبة من ٥ إلى ٣٦ .

الرسول إلى الإسلام على ما أشرنا وجاهد من أجله حتى لقي ربه ، ودعا الصدر الأول من المسلمين إلى الإسلام وجاهدوا من أجله ، وكان على المسلمين بعد ذلك أن يمضوا في الطريق ، ولئن أصابتهم السياسة والأهواء بالعجز والتقاعس لقد حق عليهم أن ينشطوا اليوم — قبل الغد — للدعوة، ويبثوا الدعاة في أرجاء العالم ، قال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر(١) » ، وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم بذنوبكم من لا يخافكم ولا يرحمكم » . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية إذا انتبذت له طائفة تصلح له وأدته على وجهه أجزأت عن سائر المسلمين وإلا أثم المسلمون جميعاً . والجهاد من أجل هذا واجب المسلمين جميعاً ، والآيات والأحاديث متضافرة فيه(٢) . ومما روى عن الرسول الكريم أنه قال : « إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا ، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم » ، وقال : « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » .

٣ — فهؤلاء الناس الذين يدعون إلى الإسلام ويوجه الجهاد إليهم هم جميع الناس منذ عهد الرسول إلى يوم القيامة . وقيل إنهم هم عبدة الأوثان ونحوهم . والذين يقولون بهذا يستندون إلى الإطلاقات الخاصة للفظ الناس التي ذكرناها قريباً(٣) ، ويستندون إلى أن قيام الكتابيين بإعطاء الجزية يسقط

---

(١) سورة آل عمران . آية ١٠٤ .

(٢) اقرأ : البقرة ٢١٦ والنساء ٧٤ والأنفال ٦٠ والتوبة ٣١ و ١١١ ، والحج : ٧٨ .

(٣) في الأسرار البلاغية ص (١٣٠) .

عن المسلمين قتالهم ؛ فإن القتال — كما أوضحنا — وسيلة إلى إعلاء كلمة الله، ويتحقق ذلك بالدخول فى الإسلام ، وبالمعاهدة وإعطاء الجزية إن آثر الكتابيون دينهم ، أما إن أبوا هذا وذاك فلا مناص من قتالهم . أقول: وربما جاء الحديث فى شأن القتال سابقاً فى زمنه الأمر بقبول الجزية من الكتابيين وسقوط القتال بإعطائها .

٤ — وقد جاء القتال أو الأمر به كمقدمة لنتيجة حتمية ، وهى أن يشهد الناس أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة .

٥ - والشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تعنى الإخبار بيقين عن ربوبية الله وحده ورسالة محمد رسوله إلى العالمين ، فالشهادة فى شقها الأول تعترف بالله رباً واحداً لاشريك له،وفيها الإقرار بأنه المنفرد بالحكم وبالتدبير،وأنه الفعال لما يريد المتصرف فى ملكه كما يشاء فلا معقب لحكمه،وهو السميع البصير المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص ومحال. والشهادة فى شقها الثانى فيها الإقرار برسالة رسول الله محمد — صلى الله عليه وسلم — والتصديق بما بلغ به من شرع الله والأخذ به والعمل بمقتضاه(١) .

ولما كان الإيمان بمضمون الشهادة من بواطن الأمور التى لايطلع عليها إلا الله جعل الإسلام منوطاً بالنطق وحده . وتدل لهذا رواية «أمرت بأن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» ، فالمقالة فى الشهادة كافية فى اعتبار الإسلام وقبوله ممن يدخل فيه .

---

(١) راجع ما لخصناه فى الصفحات ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ .

وهذه الرواية تفتح باباً من البحث فى أمر الاكتفاء بالشهادة (بأن لا إله إلا الله) وحدها فى اعتبار الإسلام. وقد روى أن الرسول الكريم قال لعمه أبى طالب. «قل: لا إله إلا الله؛ أشهد لك بها يوم القيامة»، وروى أنه — ﷺ — قال: «من كان آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة».

والحق الذى لا مرية فيه أن الشهادة بوحدانية الله موجبة للاسلام كله وللايمان كله، فهى موجبة للشق الثانى من الشهادة برسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — وهى موجبة لإقامة الصلاة، وموجبة لإيتاء الزكاة، وموجبة كذلك لكافة أمور الإسلام والإيمان، من صوم، وحج، وتصديق بكتب الله، ورسله، وملائكته، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وموجبة لسائر الطاعات التى فرضها الله ورسوله، فإن من يقر بربوبية الله إقراراً ويوقن بوحدانية الله يقيناً يبصر بقلبه أمر رسالة محمد وماجاء به من عند الله، فذكر الشق الأول من الشهادة يغنى عن ذكر الشق الثانى ويشعر به ويستتبعه.

وبعض الشارحين يقول: إن الحديث تكرر وروده بألفاظ مختلفة بالزيادة والنقص فى عدة حالات. فرواية «حتى يقولوا: لا إله إلا الله» فى حالة دعوته — ﷺ — عبدة الأوثان الذين لا يقرون بالتوحيد. ورواية «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله»، فى حالة دعوته أهل الكتاب الذين يقرون بالتوحيد ويحاجون فى نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — عموما وخصوصاً. ورواية «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة»، فى حالة من دخل فى الإسلام فشهد بالتوحيد وبالنبوة وأحجم عن الصلاة وعن الزكاة.

وبحث العلماء فى أمر التلفظ بالشهادتين بهذه الصيغة: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أهو على سبيل الوجوب أم على سبيل الجواز؟. قال

بالوجوب بعضهم ، واكتفى آخرون بأى صيغة تدل على الاعتراف بوحدانية الله ورسالة محمد . وإلى هـذا الرأى الأخير أميل ، فللداخل فى الإسلام أن يقول مثلا : لا إله إلا الرحمن - الله واحد - الله أحد - لا أشرك بالله - لله الوحدانية ، ويقول مثلا : أحمد رسول الله - محمد خاتم الرسل - لمحمد الرسالة - نبى العرب رسول الله .

وبحث العلماء فى أمر ترتيب الشهادتين فى النطق كما وردتا فى هذا الحديث وفى غيره . وظاهر رأى الجمهور أن الترتيب لا يشترط ، وهو عندى رأى وجيه .

وبحثوا فى أمر القول بهما على الفور . وهو الأنسب لمن شرح الله صدره الإسلام .

وبحثوا فى أمر مد ألف « لا » النافية من قوله : (لا إله إلا الله) . ولهم فيه ثلاثة أقوال : قول بضرورة المد ليستشعر القائل نفى الألوهية عن كل موجود سوى الله ، وقول بضرورة القصر خشية أن يموت قبل أن ينطق بلفظ الجلالة ، وقول بالقصر إن كان ذلك أول كلامه للاعلان عن الإسلام وبالمد فيما بعد ذلك(١) .

٦ - والصلاة والزكاة اللتان يقاتل عنهما ويكون فى أدائهما عصمة الدماء والأموال ودفع القتال هما الصلاة المفروضة والزكاة المفروضة - وليستا أى صلاة وأى زكاة .

وفى الصلاة امتحان المسلم فى روحه ، وفى الزكاة امتحان له فى ماله ، وكلتاهما من مكونات شخصيته الإسلامية .

والصلاة فريضة الخشوع لله ، « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين « الذين

---

(١) والمد لا يجاوز حركة ١٤ إصبعا تثنى أو تفتح متتالية .

يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون » (١) . فيها يلقى الإنسان ربه، ويقف بين يديه خمس مرات فى اليوم، ليتخلص من دنياه، ويسحق وساوس الشيطان فى نفسه ، ويناجى الله ، ويقر له بالعبودية ، فيقر بذاك عيناً ، ويستقيم على طريق الهدى ، وينتهى عن الفحشاء والمنكر؛ «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (٢) » .

والزكاة فريضة التكافل الاجتماعى فى الإسلام ، تؤخذ من الأمة فى شخص أغنيائها ، وترد إلى الأمة فى شخص فقرائها ، لسد العوز والحاجة أينما كانا ، والإسهام فى إرساء العدالة ، وتقريب الفوارق بين الدخول ، والإنفاق منها على نشر الدعوة الإسلامية ، وعلى تحرير الأرقاء والعبيد ، وعلى الدفاع عن الإسلام والدولة الإسلامية ، ولمواجهة أعباء المصالح العامة للمجتمع الإسلامى . وقد جعلها الله حقاً معلوماً للسائل المحروم(٣) . وسلك القرآن الكريم مسلكا جميلا لتخليص نفس المسلم مما فى يده من مال ، حتى يسمح به ويجود ، ولا يشح به ولا يبخل ، إذ جعل هذا المال مال الله استخلف فيه عباده ، فإذا أنفق منه فكأنما يقرض الله قرضا حسنا ، يرد على صاحبه ثواباً وحسنات مضاعفة(٤) وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يجمع الزكاة ممن بحضرته من المسلمين ، امتثالا لقوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها(٥) » ، ولما توفى الرسول رأى أبو بكر - رضى الله

---

(١) سورة البقرة - آية ٤٥ و ٤٦

(٢) سورة العنكبوت - آية ٤٥

(٣) اقرأ الذاريات ١٩ والمعارج ٢٤ و ٢٥ .

(٤) اقرأ النور ٣٣ والحديد ٧ و ١٠ و ١١ و ١٨ والبقرة ٢٤٥ والتغابن ١٧ والمزمل ٢٠

(٥) سورة التوبة - آية ١٠٣

عنه - أن يقاتل من امتنعوا عن أدائها، وروى عنه أنه قال فى هذا : (والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه) .

٧ - وبالمقارنة بين أركان الإسلام ودعائمه فى هذا الحديث ونظائرها فى الأحاديث الأخر(١) - نلحظ أن الأركان هنا ثلاثة : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة . وتزيد الأحاديث الآخر صوم رمضان وحج البيت الحرام . فلماذا؟

قالوا : لم يذكر صوم رمضان وحج البيت فى هذا الحديث ، لأن الرسول لم يؤمر بالقتال على تركهما. فتارك الصوم يعزر بالحبس والتجويع، وتارك الحج يوعظ حتى يحج ، إذ إنه يجب على التراخى (٢) .

ومما قيل فى ذلك : إن صوم رمضان وحج البيت لم يكونا فرضا حتى هذا الحديث : ومعنى هذا أننا نستطيع أن نعين تاريخ هذا الحديث بالفترة من قبيل الهجرة إذ فرضت الزكاة(٣) ، إلى شعبان من السنة الثانية للهجرة إذ فرض صوم رمضان ، أما الحج ففرض فى السنة السادسة للهجرة على أظهر الأقوال . وربما يصادم ذلك القول أن الرسول - ﷺ - بعث معاذ بن جبل - رضى الله عنه - إلى اليمن فى السنة التاسعة من الهجرة بعد غزوة تبوك وقبل حجة الوداع ، وعين له مايدعو إليه أهل اليمن ، لحصره فى ثلاثة الأركان : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، وهذا حديث الرسول من رواية ابن عباس - رضى الله عنهما - كما أثبتها الإمام البخارى فى صحيحه : « قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : إنك ستأتى قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن

---

(١) انظر الحديث الثانى (ص ٣١) والثالث (ص ٥٩) .

(٢) اخترنا القول بوجوبه على الفور عند الاستطاعة ، انظر ص ٧٠

(٣) فرضت الزكاة قبل الهجرة ، وقننت فى السنة الثانية من الهجرة .

يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب » .

وأقول : إن القرآن الكريم أمر بكل ركن من هذه الأركان الخمسة وحث على أدائه وطاعة الله فيه ووعد الطائعين رضوانه وجنته ونعيمه المقيم . أما عند الانصراف عن أدائها وعن طاعة الله فيها فإن آيات الزجر والوعيد والتخويف والمقت والنعت بالكفر وما إلى ذلك تنصب كثيراً على ترك الأركان الثلاثة الأولى : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة(١) .

٨ — ونعود إلى الحديث ، يقول الرسول الكريم : « فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى » . أى : فإذا أدوا ذلك المذكور من الشهادة بالله وبرسوله وإقامة الصلاة على وجهها وإيتاء الزكاة مستحقيها ، حفظوا أنفسهم فلا تسفك دماؤهم ، وحفظوا أموالهم فلا تؤخذ ولا تصادر ، إلا أن يرتكبوا جرما فى حق الإسلام يستوجب القصاص من هذه الأنفس أو الاقتضاء من هذه الأموال . هذا فيما يبدون ويظهرون ، أما ما يخفون ويبطنون من المخالفة عن أمر الله فتروك إلى الله تعالى .

---

(١) اقرأ عن ترك الإيمان بالله ورسوله : النساء ١٤ والأنفال ١٣ ، ٢٠ ، ٢٧ والتوبة ٥٤ ، ٦٣ والأحزاب ٣٦ والفتح ١٣ والجن ١٣ . وعن ترك الصلاة : النساء ١٤٢ والمائدة ٥٨ ، ٩١ والتوبة ٥٤ والروم ٣١ و ٣٢ والماعون ٥ ، وعن ترك الزكاة : آل عمران ٩٢ والنساء ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ والتوبة ٣٤ ويس ٤٧ ولم يرد شىء فى ترك الصوم ـ أما فى ترك الحج فجاء ختام الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

(ا) والتعبير بفعلوا ذلك ينص على أن المطلوب ـ الذى سبق الأمر بقتال الناس له أو من أجله ـ هو الفعل . وهذا الفعل واقع فى إيتاء الزكاة ، لأن هذا الإيتاء فعل لاغير ، فالمزكى يؤتى الزكاة مستحقيها مباشرة وصلة بينهم وبينه ، أو يؤتيها ولى الأمر ليتولى إيتاءها من يستحقونها . وهذا الفعل أساس فى إقامة الصلاة ، لأن الإقامة فعل وقول ، وكلاهما لا يكفى وحده من دون الآخر ، بل من الحتم اقترانهما ، والفعل هـو الحركات الظاهرة البادية ، والقول يمكن أن يبدو ويظهر ولكن معظمه يصبح سرا بين المصلى وربه . أما فى الشهادة فالفعل فعل اللسان أى نطقه وقوله ، فإن أعان فقد بدا وظهر ، وإن أخفى فقد بطن واستتر . ولما كان من الحتم أن ندرك هذه الأفعال ـ وإدراكها فى الصلاة والزكاة ميسور ـ لزم إعلان النطق بالشهادة حتى يجوز لنا الحكم بإسلام من أسلم .

(ب) ويعصم الداخلون فى الإسلام دماءهم وأموالهم بالشهادة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فلقد صاروا مسلمين ، فلاتصادر أنفسهم ولا أموالهم ، فأنفسهم مصونة فلاتسفك ، وأموالهم محمية فلاتؤخذ . وهذا كله من المعنى اللغوى للعصمة وهو المراد . أما العصمة بمعناها الشرعى فهى صفة أو ملكة توجب لصاحبها الامتناع عن العصيان والفجور والمخالفة ، وهذه عصمة الرسل والأنبياء ، وهى غير واردة هنا ولا وجه لإرادتها هنا .

(ج) وفى قول الرسول فى الحديث «عصموا منى» ـ نعيد ما أوضحناه قبلا أن الأمر لم يخص به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده ، وإنما يشمله ويشمل كل من يتولى أمور المسلمين ، لأن الدعوة إلى الإسلام باقية الى آخر أيام الدنيا .

(د) وهذه العصمة للدماء والأموال ليست مطلقة . وإنما هى مشروطة ، أشار الرسول الكريم إلى شرطها فى قوله « إلا بحق الإسلام » . هـذه العصمة ليست مطلقة ، وإلا سادت الفوضي ، إذ يتكل الناس على أن دخولهم

فى الإسلام يعصم أنفسهم وأموالهم ، فيخالفون عن أمر الله فى غير ما يبدو منهم من الشهادة والصلاة والزكاة ، ويجنون على حقوق الله الأخرى ، ويعصون ، ويعربدون ، وليس هذا من الإسلام فى شيء . هذه العصمة ليست مطلقة ، وإنما هى مشروطة بالحفاظ على حق الإسلام ، وفى هذا تربية للضمير الشخصى للمسلم ، وتربية للضمير الاجتماعى للمسلمين ، فمن خالفوا عن أمر الله جانبية أو جنوا أو ارتكبوا جرما كالردة والبغى وقطع الطريق وكالقتل والزنا والسرقة وكترك صلاة الجمعة وكالامتناع عن رد الديون مع القدرة والامتناع عن الانفاق على من تجب عليهم نفقته مع الاستطاعة. أولئك وأمثالهم من سائر المخالفين والعصاة والجناة عليهم حق القصاص من الأنفس إن كان الأمر يستوجبه ، وعليهم حق الاقتضاء من الأموال إن كان الأمر يتطلبه . وهذا وذاك حق الإسلام يتولاه صاحب الولاية العامة لصالح المجتمع المسلم ، وإن بدا أحيانا ومن بعض الوجوه أن أفراد المجتمع هم المنتفعون .

والعصمة تنصب على الدماء والأموال كليهما ، ومن الواضح أن اقتضاءهما معا ليس حتما ، فقد يقتضيان معاً كما فى حالة تصميم المرتدين على الكفر ، وقد تقتضى الأنفس وحدها كما فى القتل العمد والزنا من المحصن ، وقد تقتضى الأموال وحدها كما فى قضاء الديون والنفقات .

(هـ) يقول الرسول الكريم : «وحسابهم على الله تعالى» . أى وحسابهم لله أو إلى الله ، أى متروك له — سبحانه — إن شاء حاسبهم وإن شاء لم يحاسبهم ، وهذا مساير لرأى الجمهور فى أن الحساب غير واجب على الله ، إذ لا يجب عليه شيء . والمعتزلة يرون وجوب الحساب بما أوجبه الله على نفسه ، ولفظ الحديث هنا يظاهرهم .

وقضية الحساب قضية ذات وجهين : وجه ظاهر موكول إلى الرسول وإلى من يقوم مقامه من أولياء أمور المسلمين ، وهو ما أوضحه الحديث من عصمة

دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، فهم يستحقون واجب الحياطة بطاعتهم واستقامتهم على سواء السبيل ، ويستحقون العقاب بعصيانهم ومخالفتهم عن أمر الله .

والوجه الآخر من الحساب باطن ، موكول إلى الله - تعالى - فيما يبطنون هم من الإيمان وسلامة اليقين أو من الكفر والمعصية ، وهذا هو مضمون قول الرسول : « وحسابهم على الله تعالى » . ثم إن هذا القول يريح الرسول وولى الأمر من أمر المنافقين ، الذين يراءون الناس ، فيظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، أو يظهرون الطاعة ويبطنون المعصية ، أو يظهرون العبادة ويبطنون النيات الخبيثة . فالرسول - ومثله ولى الأمر - يقبل ماظهر منهم ، والرسول - ومثله ولى الأمر - يترك سرائرهم إلى الله ، فإن حسابهم على الله . وقد روى أبو سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن الرسول الكريم يقول : « ماأمرت أن أشق عن قلوب الناس ولا عن بطونهم » .

الحديث التاسع

مسالك النجاة

عن أبى هريرة عبد الرحمن بن صخر - رضى الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتُكم به فأْتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين مِن قبلكم كثرةُ مسائلهم واختلافُهم على أنبيائهم» رواه البخاري ومسلم.

راوى الحديث:

هو الصحابى الجليل أبو هريرة - رضى الله عنه - وهو عبد الرحمن ابن صخر الدوسى. ولد قبل البعثة المحمدية بحوالى سبع سنوات، وكان اسمه فى الجاهلية عبد شمس وكنيته أبا الأسود، فلما أسلم فى السنة السابعة من الهجرة سماه الرسول الكريم عبد الرحمن وكناه أبا هريرة عندما رآه يحمل فى كمه هرة صغيرة تلازمه نهاره.

نشأ أبو هريرة يتيما واشتغل خادماً لبسرة بنت غزوان ورعى لها وحدا ركبها وتزوجها فيما بعد، وعندما قدم المدينة عاش معيشة أهل الصفة ومعهم على الصدقات والهدايا، وهم جماعة أقاموا فى مسجد الرسول فى موضع ظليل فيه، ومعظمهم من الفقراء المهاجرين، وكان الرسول يعطف عليهم ويجالسهم ويرعى أمور معاشهم.

وعن الرسول حدث أبو هريرة كثيرا، وكلموه فى ذلك، فقال لهم: (إنكم تقولون ما بال المهاجرين لا يحدثون عن رسول الله بهذه الأحاديث، وما بال الأنصار لا يحدثون بهذه الأحاديث. وإن أصحابى من المهاجرين

شغلتهم صفقاتهم فى الأسواق ، وأصحابى من الأنصار شغلتهم أراضيهم . وإنى كنت امرأ معتكفا ، وكنت أكثر من مجالسة رسول الله - ﷺ - أحضر إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا) .

وقد بلغ أبو هريرة عن الرسول ماسمع ، تدفعه إلى ذلك - كما قال - آية فى كتاب الله - عز وجل - كان يذكرها لمن كلموه ، وهى قوله تعالى: « إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب - أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا[1] » .

وعاش أبو هريرة يكثر من التسبيح والاستغفار والقيام فى الليل .

استعمله عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - على البحرين ، ثم عزله، فعاد إلى المدينة وأقام فيها ، وأراده عمر أن يعود إلى العمل ثانية ، فأبى . وتوفى حوالى سنة ٥٨ هـ عن ثمان وسبعين سنة قيل : دفن بالمدينة ، وقيل دفن بالبقيع .

وروي عنه أكثر من خمسة آلاف حديث .

شذور لغوية :

نهيتكم عنه : من النهى ، وهو الكف ، وضد الأمر . ويقال : نهى الله عن الشىء أى حرمه .

اجتنبوه : فعل أمر بمعنى اعتزلوه وتنحوا عنه وابتعدوا عنه . وحقيقة الاجتناب جعل الشىء فى جانب بمعزل بعيد عنك . ومثل الاجتناب المجانبة والتجانب .

---

(١) سورة البقرة - آية ١٥٩ ، ١٦٠

أمرتكم به : من الأمر ، وهو الطلب ، والفعل متعد من باب نصر .

فأتوا منه : فعل أمر من أتى ، يأتى لازما ومتعديا من بابى جلس وضرب . يقال : أتى = جاء ، وأتى الأمر (لازما) = تهيأ ، وأتاه = جاءه ، وأتى به = جاء به ، وأتى عصام الأمر = فعله (وفى رواية للحديث « فافعلوا منه ما استطعتم ») ، وأتى فلانا = جازاه ، وأتى هشام أخاه ماله = أعطاه إياه ، وأتى عليه الدهر = أهلكه .

استطعتم : أطقتم وقدرتم ، فالاستطاعة الإطاقة والقدرة ، وقال ابن برى : الاستطاعة للإنسان خاصة والإطاقة عامة للإنسان وغيره ، فتقول : محمد يستطيع السفر ويطيقه ، وتقول : الجمل مطيق حمله - فقط .

أهلك : أمات . مجرده هلك بمعنى مات . يتعدى بالهمزة فتقول : أهلكه بمعنى أماته وأتى عليه ، ومثله استهلكه . وقد يستعمل الثلاثى متعديا .

مسائلهم : المسائل جمع مسألة . والمسألة والسؤال بمعنى الطلب والاستعلام

اختلافهم : الاختلاف التردد ، وضد الاتفاق . واختلف القوم وتخالفوا إذا ذهب كل واحد أو جماعة إلى خلاف ما ذهب إليه الآخرون

أنبيائهم : الأنبياء جمع نبىء أو نبى . وفى الحالة الثانية تكون همزة الأنبياء مقلوبة عن الياء لتطرفها عقب ألف زائدة . والنبى : فعيل بمعنى فاعل من النبأ أى الخبر فهو المنبىء عن الله أى المخبر عنه . والنبى : فعيل بمعنى مفعول من النبوة والنباوة وهى ما ارتفع من الأرض ، فالنبى هو المنبو أى الشخص الذى شرفه الله على سائر الخلق باصطفائه للنبوة . ويجوز أن يكون أصله النبىء فحولت الهمزة إلى الياء وأدغمت فيها الياء . وعلى كل : المختار ترك الهمزة .

مسائل نحوية :

سمعت رسول الله يقول : أعربت هذه الجملة فى ص (١٦) .

ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه : كلتاهما جملة شرطية، والجواب مقترن بالفاء لأنه جملة طلبية .

ما استطعتم : ما مصدرية أو موصولة، والفعل صلة فى الحالين. والتقدير فأتوا منه استطاعتكم أى مقدار استطاعتكم ، أو فأتوا منه ما استطعتموه وقدرتم عليه .

كثرة مسائلهم واختلافهم : كثرة فاعل أهلك،ومفعوله الذين من قبلكم. واختلافهم (بالرفع) عطف بالواو على الفاعل ، ويؤيده أن الاختلاف على الأنبياء ـ قليله وكثيره ـ من أسباب الإهلاك .

أسرار بلاغية :

سمعت رسول الله : لعلك تراجع بلاغتها فى ص (١٧) .

ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم : كلتا الجملتين إنشائية طلبية بصيغة فعل الأمر (اجتنبوا — فأتوا) . والشرط وغيره قيود على فعلى الأمر. والأمر جاء على أصله من الوجوب فى الواجب وجاء على سبيل المجاز للندب فى غير الواجب ؛ فمن الحتم اجتناب ما نهى الرسول عنه ، ومن الحتم إيتاء ما أمر به الرسول على سبيل الوجوب ، أما المكروه فيندب اجتنابه ، وأما المسنون أو المستحسن فيندب فعله .

وقدم (منه) على (ما استطعتم) ؛ للاشعار بأن الإتيان من المأمور به لازم ،ثم جاء ما استطعتم قيداً على ذلك ،وهو قيد يحدد مدى الإتيان ومقدار

مايؤتى بحسب الطاقة والقدرة ولا يمس جوهر الفعل . (ولو عكس فقال : فأتوا ما استطعتم منه — لأفاد معنى جديداً وهو أن الإتيان منصب فقط على المستطاع منه) .

وبين الجملتين وصل: لتوسطهما بين الكمالين مع اتحادهما فى المعنى إنشاء . والجامع بينهما عقلى محوره مابين الطلبين من اتفاق ، وساعد عليه اتجاههما إلى مسند إليه متحد وارتباطهما بقيود متماثلة ونشأتهما عن أمرين بينهما تضاد وهما النهى والأمر ، فضلا عما فى هذا التضاد من جمال التقابل الذى يسهم فى إبراز المعنى .

إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم : أسلوب قصر ، طريقه إنما ، قصر صفة على موصوف، فالمقصور الإهلاك، والمقصور عليه كثرة مسائلهم واختلافهم ، ولهذا أخر الفاعل وقدم المفعول . ويمكن أن يقال : إنه قصر حقيقى ادعائى ، قصد به الرسول الكريم التعريض بمن يلحون عليه فى المسألة ويختلفون عليه أن يصيبهم الله بالهلاك كما أهلك الأمم السالفة .

فكرة الحديث :

يأمر الرسول - ﷺ - المسلمين باتباعه ، وطاعته فى اجتناب ما ينهى عنه ، وفى الاتيان بما يأمر به . ويبين للأمة الاسلامية أنه يريد لها الخير والنجاة والفلاح ، فعليهم أن يسلكوا مسالكها ، ولا يشددوا على أنفسهم بالسؤال عما لا يعنيهم ومن غير ضرورة ماسة.ولا حاجة ملحة ، ولا يختلفوا على نبيهم كما اختلفت الأمم السابقة على أنبيائهم من بعد ماجاءتهم البينات ، فأعنتوا أنفسهم وأعنتوا الأنبياء ، فغضب الله على هذه الأمم ، وأصابهم بعذابه ، وأهلكهم .

الايضاح والبيان :

١ - روت كتب الحديث عن على بن أبى طالب وأنس بن مالك وأبى هريرة - رضى الله عنهم - أنه لما فرض الله الحج وأنزل فى ذلك قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا (١) » ، قام الرسول الكريم خطيباً فى المسلمين ، وكان مما قال لهم : يأيها الناس ، قد فرض عليكم الحج فحجوا . فقام الأقرع بن حابس يسأل الرسول : أكل عام يارسول الله ؟ ، فسكت الرسول ، فأعاد الرجل سؤاله ، فسكت الرسول ، فأعاد الرجل سؤاله فسكت الرسول ، ثم قال : لو قلت : نعم - لوجبت (أى الفريضة فى كل عام) ولما استطعتم . وبعد برهة قال الرسول: اتركونى ما تركتكم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم . قالوا : فجثا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - على ركبتيه وهو يقول : رضينا بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . اللهم لا تفضحنا بسرائرنا ، واعف عنا . فسرى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

٢ - ومن هذه الرواية يتضح أن الخطاب من الرسول باجتناب مانهى عنه وبالاتيان بما أمر به قدر المستطاع موجه أصلا إلى الموجودين فى زمنه . ولست أرى أن هذا الخطاب يقف عند زمان الرسول بحجة أن الشريعة بعده استقرت وأمن من الزيادة فيها ، ومن رأيى أن خطاب الرسول قائم إلى يوم الدين ، فهذا الخطاب يتناول المسلمين جميعاً فى جميع الأزمان ، باعتبارين :

---

(١) سورة آل عمران - آية ٩٧

الاعتبار الأول : هو التساوى بين المسلمين جميعاً فى جميع التكاليف الشرعية ، إذ إنها لا تختص بمكلف دون مكلف ، ولا بزمن دون زمن .

الاعتبار الآخر : أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وطاعة الرسول واجبة بنص القرآن الكريم ، قال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله(١) » جعل الله طاعة رسوله من طاعته هو - جل شأنه - وقال تعالى: « يأيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر(٢) » ، والرد إلى الله هو الرجوع إلى كتاب الله ، والرد إلى الرسول هو الرجوع إلى شخصه - صلى الله عليه وسلم - فى حياته وإلى حديثه الشريف بعد وفاته .

وقال تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم(٣) » ، فهذا الوعيد بالفتنة - أى بالمحنة - فى الدنيا وبالعذاب الأليم فى الآخرة دليل على أن مخالفة الرسول عن أمره وأن عدم طاعته يعدان معصية ، ويلزم من هذا وجوب طاعته واتباع أمره ، وإلا ما توعد الله على مخالفته بالنار . وقال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا(٤) » ، فجعل الله ما يأمر به الرسول واجباً أخذه واتباعه وما ينهى عنه الرسول واجباً أن ينتهى عنه .

---

(١) سورة النساء - آية ٨٠

(٢) سورة النساء - آية ٥٩

(٣) سورة النور - آية ٦٣

(٤) سورة الحشر - آية ٧

وماكان الرسول ليصدر فى حديثه عن الهوى ، فالحديث مصدر أساسى للتشريع بعد القرآن الكريم، ويأتى الحديث مؤكدا للحكم القرآنى، أو مفصلا لما أجمل فى القرآن، أو مفسرا ما احتاج من القرآن إلى تفسير ، أو مخصصا ماجاء فى القرآن عاما ، أو مقيداً ماجاء بالقرآن مطلقاً ، أو معطيا تشريعاً سكت عنه القرآن كما فى زكاة الفطر وميراث الجدة . وقد أقر الرسول — فى حياته — معاذ بن جبل — رضى الله عنه — حين بعث به إلى اليمن ، على القضاء بما فى كتاب الله ثم القضاء بما قضى به الرسول وإلا اجتهد رأيه . وهذا كله مسلم بالنسبة إلى جملة الأحاديث التى تتضمن أحكاما شرعية وإلى الحديث من هذه الأحاديث عند ما تصح نسبته إلى الرسول الكريم على سبيل القطع .

أما الأحاديث التى لاتتضمن أحكاما شرعية والتى يكون قول الرسول فيها أو فعله أو تقريره صادرا عن طبيعته البشرية فيما يختص بمسائل المأكل والمشرب والملبس والحرفة وما إليها ، فإنها — مالم تتضمن حكما شرعياً صريحا — صدرت عن الرسول بحكم العادة والإلف والحاجة الموقوتة كامتناعه — صلى الله عليه وسلم — عن أكل الضب وسماحه فى الوقت نفسه لخالد بن الوليد أن يأكله ، وكنهيه عن تلقيح النخل سنة وسماحه بتلقيحها فى السنة التالية . وعلينا أن نتدبر ما قاله حينئذ : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ، « إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله فخذوا به ، فإنى لن أكذب على الله » (١) .

٣ — دعا الرسول — صلى الله عليه وسلم — المسلمين إلى أن يجتنبوا ما ينهاهم عنه ، وإلى أن يأتوا بما يأمرهم به ما استطاعوا .

---

(١) فى كتابنا التعريف بالحديث الشريف) تلخيص لهذا الموضوع (ص ١٠ — ١٨) .

وبالنسبة لما يجتنب يتحتم الامتثال فى اجتناب الحرام أى فى الممنوع منع تحريم كقوله - صلى الله عليه وسلم - : لاتعذبوا بعذاب الله » - أى بالنار . ويندب الامتثال فى اجتناب المكروه أى فى الممنوع منع كراهة كقوله - ﷺ - « من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مساجدنا ، يؤذينا بريح الثوم » .

وبالنسبة لما يفعل يتحتم الامتثال فى فعل الواجب أى فى المطلوب فعله على سبيل الوجوب كقوله - ﷺ - : « اكفلوا لى ست خصال أكفل لكم الجنة : الصلاة ، والزكاة ، والأمانة ، والفرج ، والبطن ، واللسان » والصفة الجامعة لكفالتها هى حفظها ، وحفظ الثلاث الأولى بأدائها وتوفيتها ، وحفظ الثلاث الباقية بصيانتها ومنعها من مقارفة الحرام . ويندب الامتثال فى فعل المسنون والمستحب كقوله - صلى الله عليه وسلم - : « أكثروا من ذكر الموت ، فإنه يمحص الذنوب ، ويزهد فى الدنيا » . يمحص الذنوب أى يزيلها .

وليس شرطاً أن يأتى كلام الرسول بصيغة النهى الصريح ولا الأمر الصريح .

٤ - ولا يتصور الامتثال فى اجتناب المنهى عنه إلا أن يجتنب جميعه ، فلو اجتنب المسلم بعضه لم يكن ممتثلا ، إلا ما اضطر إليه كأكل الميتة عند الضرورة ، وكشرب الخمر عند الاكراه .

أما الامتثال فى فعل المأمور به قدر الاستطاعة فإنه يتصور فى فعل بعض المأمور به شريطة أن يجزئ ، ففى الصلاة المفروضة - مثلا - الأصل أن تصلى من قيام دون استناد إلى شىء ، فإن لم يستطع صلى فى إحدى هذه الحالات لايلجأ إلى حالة إلا إذا عجز عن الحالة التى تسبقها : يصلى قائما مستندا / فقاعدا / فمضطجعا على جنبه / فمستلقيا على ظهره / فومئا برأسه /

فومئا بأجفانه / فومئا بقلبه . وفى الصيام - مثلا - الأصل أن يصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فإذا قدر على صيام بعض هذا الوقت وعجز عن صيام باقيه لم يعتبر هذا صوماً ولم يجزئه عن صيام اليوم .

٥ - وقال الله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها(١) » . فلماذا قيد الأمر فى الحديث بالاستطاعة دون النهى مع أن الاستطاعة معتبرة فى النهى أيضاً بحكم هذه الآية الكريمة ؟ .

أجيب عن هذا بأن الاستطاعة متصورة فى الفعل عند الأمر ، وليس عدمها متصوراً فى الكف عند النهى ، فإن فعل المأمور به يكون بإخراجه من العدم إلى الوجود ، وهـــذا يتوقف على أسباب وشروط ، فرعايتها ينبغى أن تقيد بالاستطاعة . أما المنهى عنه فتركه عبارة عن استصحاب حال عدمه ، فكل مكلف يقدر على الاستصحاب ،فلا وجه لتقييده بالاستطاعة . ولا يقال : إن هذه القدرة قد تتخلف مثلا فى أكل الميتة عند الاضطرار وشرب الخمر عند الإكراه ؛ لأن الاضطرار والإكراه يرفعان صفة النهى ويقران صفة الإباحة .

٦ - وفى تقديم الأمر على النهى وعكسه روايتان . وهذا من الرواة ؛ فمن قدم الأمر لعله نظر إلى آيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن قدم النهى لعله راعى أن المقام كان لنهى الأقرع بن حابس عن كثرة مسألته، أو نظر إلى خطر المنهيات ؛ بدليل أنه لا يتسامح فى ممارستها - إلا للضرورة كما سبق .

٧ - ويقول الرسول الكريم : « فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » .

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٨٦

نعم أكثرت الأمم السابقة المسألة عما لايعنيهم من غير حاجة ومن غير ضرورة ، فأفضوا إلى العنت والإعنات ، وشددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم . واختلفوا على أنبيائهم ، فعصوهم ولم يطيعوهم ، فعاقبهم الله بعقابه ، وأذاقهم الجوع والخوف ، ومزق شملهم كل ممزق .

ومن أمثلة المساءلات الكثيرة من غير ضرورة ولا حاجة داعية مافعله بنو إسرائيل مع موسى - عليه الصلاة والسلام - حينما وقع فيهم قتيل لم يعرفوا قاتله ، فطلبوا إلى موسى أن يسأل ربه عن القاتل ، فقال لهم موسى : إن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة - وجعلوا يستوصفونها عدة مرات - ولو كانوا عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها لأجزأتهم ، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، حتى ألزمهم ببقرة متعينة اشتروها بملء جلدها ذهبا ، وذبحوها وهم مضطربون ، وضربوا القتيل ببعضها ، فقام - بأمر الله - حيا وأوداجه تشخب دما يذكر اسم قاتله ، ثم سقط ميتاً (١) .

ومن أمثلة الاختلاف على الأنبياء مافعله بنو اسرائيل حينما ذهب موسى لميقات ربه ثلاثين ليلة وأتمها الله له أربعين ليلة ، وكان موسى قد استخلف أخاه هارون فى قومه ، وفى غضون ذلك خالفوا عن أمر الله ولم يبالوا بنصائح هارون فاتخذوا لهم عجلا من الذهب نصبوه إلها وجعلوا يطوفون حوله ، فلما رجع موسى اعتذر إليه أخوه مما صنعوه على رغمه بأنهم مارسوا الشر كدأبهم ، وحاول موسى أن يردهم إلى الصواب فاختلفوا عليه ، ثم - كما فى سفر الخروج - لم يشف هذه الشرور من نفوسهم إلا أن يسلوا سيوفهم ويضرب بعضهم بها رقاب بعض ، حتى سقط منهم نحو من ثلاثة آلاف (٢) .

---

(١) اقرأ سورة البقرة - الآيات ٦٧ - ٧٣ .
(٢) اقرأ سورة الأعراف - الآيات ١٤٢ - ١٥٦ .

ومن أمثلة الاختلاف على الأنبياء بنو اسرائيل أيضاً: أمروا أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة فأبوا إلا طائفة منهم، إذ أرادوا يوم السبت، فشدد الله عليهم، وحرم عليهم صيد السمك فيه، فاحتالوا لأخذه بحفر الحفر فى جوانب البحر، يحجزون فيها السمك دون أن يصيدوه، حتى إذا كان يوم الأحد أخذوه، ونوزعوا فى أمر هذا الاحتيال على شريعة الله، فما ارتدعوا وطال عليهم الأمد وهم سادرون فى عصيانهم، وأملى الله لهم حتى كان زمن داود، مسخهم الله قردة خاسئين(١).

٨ — وينبغى أن نعلم أن ليس كل مسألة موجبا للاهلاك، وأن ليس كل اختلاف موجبا للإهلاك.

(ا) فإنما يوجب الإهلاك كثرة المسائل عما لا يعنى من غير ضرورة ملحة ولا حاجة ماسة، أى عندما تكون المسألة عن أشياء لم يوجبها الله على عباده، خشية أن تترتب على هذه المسألة مشقة بسبب تكليف يحصل. وهذا يفسره قول الرسول - ﷺ - «إن الله - تعالى - فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها» ومعنى سكوت المولى - جل شأنه - عن هذه الأشياء أنه لم ينزل فيها حكما من غير نسيان منه - تعالى الله عن النسيان علواً كبيراً - والحكمة فى ذلك رحمة العباد، إذ أنه لو أوجبها عاقب على تركها، ولو حرمها عاقب على مقارفتها. وتستمر دعوة الرسول للمسلمين فى جميع الأزمان إلى ألا يبحثوا عنها وألا يفتشوا عن أحكامها وإلى ألا يتنطعوا فى الدين، و «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وقال تعالى: «يأيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء، إن تبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا

---

(١) اقرأ سورة الأعراف الآيات ١٦٣ : ١٦٧ .

عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ، عفا الله عنها ، والله غفور حليم ، قد سألها قوم من قبلكم ، ثم أصبحوا بها كافرين »(١)

هذه هي المسائل الموجبة للإهلاك والمقت والعذاب . ولقد يكون للسؤال فرض عين ،وهو سؤال الجاهل عن فرائض الدين ؛ لأنه من طلب العلم الذي أشار به الرسول — ﷺ — في قوله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون(٢)» . ويكون السؤال فرض كفاية وهو سؤال المتفقهين في الدين ، يتعلمون أمور الدين وقضاياه ليبينوا للناس شرع الله ، قال تعالى : فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون (٣) » .

وفي حجة الوداع أوضح الرسول عن ربه أن الله أكمل الدين وأتم على الناس نعمته ورضى لهم الإسلام دينا ، ثم طلب الرسول إلى الشاهد أن يبلغ الغائب بأمر هذا الدين .

(ب) وإنما يوجب الإهلاك اختلاف الناس على أنبيائهم اختلافاً يؤدي إلى الكفر والعصيان . والاختلاف بهذه الصورة أدى في الأزمنة السابقة إلى ضياع كلمة الحق ، وتبديد جهود الرسل والأنبياء ، وشيوع الضلالة ،ومن ثم صب الله غضبه ولعنته وعذابه وعقابه . والاختلاف بمثل هذه الصورة على أحكام الله ورسوله يؤدي إلى مثل ما أدى إليه في الأزمنة السابقة . ويكفي في الدلالة على خطره وشناعته مايصيب المجتمع الاسلامي من تفرقة الجهود ، وتمزيق الروابط ، واضطراب الفكر ، والانصراف عن

---

(١) سورة المائدة - آية ١٠١ و ١٠٢ .
(٢) سورة النحل - آية ٤٣ وسورة الأنبياء - آية ٧
(٣) سورة التوبة - آية ١٢٢ .

دعوة الله وعن نشرها ، وقد قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » (١)

أما الاختلاف فى استنباط فروع الدين ، ومناظرة أهل العلم فى ذاك ؛ بغية ظهور الحق وإظهاره — فغير منهى عنه ، بل إنه اختلاف مرضى عنه، والمسلمون على هذا منذ الصدر الأول فى الإسلام حتى اليوم .

(١) سورة آل عمران آية ١٠٥

الحديث العاشر

الله طيب لا يقبل إلا طيباً

عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إن الله تعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : « يأيها الرسلُ ، كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً » ، وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم » ، ثم ذكر الرجل ، يطيلُ السفر ، أشعثَ ، أغبرَ ، يمدّ يديه إلى السماء : ياربّ يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذى بالحرام ، فأنّى يستجابُ له » . رواه مسلم .

راوى الحديث :

الصحابى الجليل أبو هريرة . وسبق التعريف به (ص ١٤٦) عند الكلام على الحديث التاسع .

شذور لغوية :

طيب : الطيب فى الأصل اللذيذ، وربما كان منه قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » ، ويطلق على الحلال كما فى الآية السابقة وكقوله تعالى « قل لا يستوى الخبيث والطيب » أى لا يستوى الحرام والحلال . وعلى الطاهر كقوله تعالى : فتيمموا صعيداً طيباً » أى طاهرا . وعلى الحسن كقوله تعالى « ضرب الله مثلا كلمة طيبة » أى كلمة حسنة وهى الشهادة ، وكقوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب » أى الكلم الحسن وهو الشهادة،

وعلى المدرك ، تقول : طاب الثمر أى أدرك . وعلى مالا أذى فيه ، تقول: هذا يوم طيب وهذه ليلة طيبة ، أى ليس فيهما مايؤذى من حر أو برد . وعلى المؤمن كقوله تعالى : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » أى يميز الكافر من المؤمن : وعلى الجيد من الحلال كقوله تعالى : « كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » أى حلالا جيدا إذا جعلت الوصف تأسيساً لا تأكيداً .

أمر : سبق فى ص (١٢٦) .

المؤمنـــين ـ الذين آمنوا : من اتصفوا بالإيمان ، وتحدثنا عنه ص (٣٤) .

المرسلين ـ الرسل : جمعا مرسل ورسول ، وكلاهما بمعنى ، وهو فى الأصل كل مرسل فى رسالة ، وخص فى الشرع بمن أرسله الله ـ تعالى ـ ليبلغ الناس شريعة الله .

كلوا : أمر للجمع من أكل ، حذفت الهمزة من كثرة الاستعمال ، وأصل الأكل بلع الطعام بعد مضغه ، فإذا استعمل فى غير الطعام فهو مجاز .

صالحا : خيراً وصواباً من صلح ضد فسد . والصالح كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل أو بدليل الشرع .

رزقناكم : رزق الله عبده أوصل إليه رزقا ، والرزق ماينتفع به ، أو مايملك سواء انتفع به أم لم ينتفع (راجع ماقلناه فى ص ٨٧) .

يطيل السفر : يمده ، والسفر (بالتحريك) الارتحال وقطع المسافة ، من سفر (وبابه جلس) بمعنى سافر .

أشعث . متسخ الرأس مغبره متلبده ، من قلة عنايته بغسله وعدم تعهده بالنظافة ، وفعله شعث (من باب تعب) .

أغبر ذو غبرة ، والغبرة لون الغبار يظهر فى الجسد وفى الثوب ، والغبار من الغبراء وهى الأرض .

يمد يديه إلى السماء : يبسطهما ويرفعهما إلى جهة السماء . والمد الإطالة والبسط . والسماء هذه المظلة للأرض ، وكل عال مظل ومنه قيل لسقف البيت سماء ، والسحاب ، والمطر . والسماء مؤنثة وقد تذكر ، وهى من السمو بمعنى الارتفاع والعلو ، فهمزتها عن واو .

يارب : نداء ، والمنادى الرب ، وإذا عرف الرب بالألف واللام كان من أسماء المولى — جل شأنه — وقد يضاف إلى خلقه فيقال : رب السموات ورب الأرض ورب العرش . وفى غيره - سبحانه وتعالى - لا يستعمل غالباً إلا مضافا بمعنى المالك فيقال : رب المال أى مالكه ، ورب الدين أى صاحبه ، واستعمل بمعنى السيد كقوله تعالى : « أما أحدكما فيسقى ربه خمراً » أى سيده ، ومن أشراط الساعة فى الحديث الثانى (أن تلد الأمة ربها) أى سيدها ، وروى (ربتها) أى سيدتها .

مطعمه — مشربه — ملبسه : الثلاثة مصادر بمعنى المفعول أى مطعومه ومشروبه وملبوسه ، وأفعالها طعم وشرب ولبس (وكلها من باب سمع) . وأصل المطعوم ماساغ من مأكول أو مشـــروب وغلب فى العرف على المأكول . والمشروب المائع من ماء وغيره للإنسان وغيره . وقيل : الأكثر فى الطير استعمال (حسا) وفى ذى الظلف استعمال (جرع) . والملبوس اللباس وكل مايلبس .

حرام : ضد حلال ، والحرام الذى فيه ريبة ، والحرام الذى حرمه الشرع أى منع اقترافه .

غذى : مبنى للمفعول ، ثلاثى مجرد من غذاه بالغذاء يغذوه رباه به ، ويروى مزيداً بالتضعيف لمعنى نفسه ، والغذاء (بالكسر) كل ما به نماء

الجسم وقوامه من الطعام والشراب والغذاء تناول الأكل وهو لا يتقيد بوقت كما يتقيد الفطور والغداء والعشاء . فالفطور في الصباح ، والغداء في الظهيرة ، والعشاء في أول الليل .

أنى . أداة استفهام (وتأتي أداة شرط) لأحد معان ثلاثة : من أين كقوله تعالى : « أنى لك هذا ؟ » أى من أين لك هذا الرزق . وبمعنى كيف كقوله تعالى : « أنى يحيي هذه الله بعد موتها » - قالوا : ويجب أن يليها فعل - وبمعنى متى كقوله تعالى : « فأتوا حرثكم أنى شئتم » أى متى شئتم ، والمعنيان الباقيان صالحان في هذه الآية .

يستجاب : مبنى للمفعول من الاستجابة ، والاستجابة والإجابة بمعنى القبول وبمعنى الإطاعة . وتقول : أجاب الله دعائى واستجابه واستجاب له أى قبله .

مسائل نحوية :

تعالى : فعل ماض ، وفاعله ضمير الجلالة ، والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب ، ووقعت في الحديث ثلاث مرات ، في الأولى اعترضت اسم إن وخبرها ، وفي المرتين الباقيتين اعترضت فعل القول ومنصوبه أى محكيه .

طيب - طيباً : الأولى مرفوعة خبر إن ، والثانية منصوبة مفعول يقبل .

يأيها الرسل - يأيها الذين آمنوا : المقصود بالنداء الرسل والذين آمنوا ، وكلاهما بأل فلا يناديان إلا بصلة ، وأى صلة هذا النداء ، وجمهور البصريين على أن (أى) تعرب منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم ، وتلزمها (ها التنبيه) لتعوضها عما فاتها من الإضافة ، والرسل والذين كلاهما تابع لأى نعتا أو عطف بيان مرفوعا في الرسل وفي محل رفع في الذين ؛ لأنها اسم موصول مبنى ، وجملة (آمنوا) صلة الموصول .

صالحاً : نعت لمفعول محذوف ، والتقدير : اعملوا عملا صالحا . ويجوز إعرابه مفعولا به لاجرائه مجرى الاسم ، كما قال الحطيئة :

كيف الهجاء وما تنفك صالحة
من آل لام بظهر الغيب تأتيني

ذكر الرجل : روى الرجل منصوباً ومرفوعاً ، فعلى النصب يعرب مفعولا به للفعل قبله ، وعلى الرفع يعرب مبتدأ للجملة المحكية وخبره جملة (فأنى يستجاب له) والفاء مزيدة فى الخبر للتحلية ، وسهل زيادتها وقوع جملة الخبر شبه جواب للرجل ذى اللام الجنسية .

يطيل السفر: جملة تقع نعتاً للرجل لأن (ال) الجنسية فيه لاتكسبه التعريف بل تجعله قريباً من النكرة ، على حد ماقالوا فى بيتى الشاعر السلولى :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى فمضيت ، ثمت قلت : لايعنينى
غضبان ، ممتلئا على إهابه إنى - وحقك - سخطه يرضينى

وبعض النحاة يجوز الحالية . وعند التحقيق يجب اختبار المعنى ، ولهذا نجوز الحالية فى عبارة الحديث ، ولا نجوزها فى عبارة الشاعر .

أشعث ، أغبر ، يمد يديه : نعت بعد نعت ، أوحال بعد حال ، ويجوز مع اعتبار جملة يطيل السفر نعتاً أن نعرب (أشعث) وما بعدها أحوالا من الرجل لتخصيصه بالنعت الأول .

يارب : نداء ، والنداء مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة ، وورود بهذه الحروف يجيز تحريكه بالضم وبالكسر وبالفتح ، فالضم على حذف الياء والكسرة ومعاملته معاملة الاسم المفرد فيضم آخره ضمة مشاكلة للمفرد المبنى أى أنه أعطى حكم المفرد المبنى وإن لم يكن منه حقيقة ، قال فى التصريح : إن هذا الوجه يأتى فيما يكثر نداؤه مضافا كالرب تعالى والأب والأم والابن ،

وتشهد له قراءة من قرأ : « ربُّ . السجن أحب إلى » ، والوجه الثانى الكسر بحذف الياء والاكتفاء بالكسرة كقوله تعالى « ياعباد فاتقون » ، والوجه الثالث الفتح بقلب الكسرة فتحة والياء ألفاً وحذف الألف والاجتزاء بالفتحة ومنعه الأكثرون(١) . ويارب الثانية تأكيـــد لفظى الأولى . وعبارة النداء تقع مفعولا به على الحكاية لفعل محذوف والتقدير : يقول أويدعو أوينادى ..

أنى يستجاب له : أنى بمعنى كيف فتعرب حالا ، والتقدير على أى حال يستجاب له ، وله جار ومجرور فى موقع نائب الفاعل .

أسرار بلاغية :

إن الله — تعالى — طيب ، لايقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين : ثلاثة جمل خبرية ، الغرض منها إفادة السامعين مضمونها ، وأكدت ثلاثتها لتقوية الحكم فى أنفسهم ، ولتنبيههم على أن مايذكر لهم عظيم الشأن ، وأضمر الفاعل فى الجملة الثانية رعاية لمقتضى الظاهر ولقربه من العائد ، وأعيد لفظ الجلالة فى الجملة الثالثة — مع أن مقتضى الظاهر إضماره — لمزيد من التقوية والتنبيه وفصلت الجملة الثانية لأنها جاءت بيانا لمعنى الجملة الأولى إذ بينهما تمآلف واتحاد ويسمى هذا الفصل كمال الاتصال . ووصلت الجملة الثالثة لتوسطها مع الأولى بين الكمالين إذ هما خبريتان لفظا ومعنى وقوله:(تعالى) جملة خبرية لفظا إنشائية معنى، وجاءت إطنابا بالاعتراض قصداً إلى تنزيه الله وتقديسه وجملة (لايقبل إلا طيبا) فيها حصر طريقه النفى والاستثناء ؛ حصر القبول من الله فى الطيب ، حصر الصفة فى الموصوف ، واختير

---

(١) وهناك ثلاثة أوجه أخر جائزة فى المنادى المضاف إلى ياء المتكلم ، تقول ياغلامى باثبات الياء ساكنة أومفتوحة ، وياغلاما بقلب الكسرة فتحة والياء ألفا .

هذا الطريق الأقوى من بين طرق الحصر للحرص على إبانة مضمون الجملة وتثبيته في نفوس السامعين ،

يأيها الرسل كلوا — يأيها الذين آمنوا كلوا : كلوا فى الآيتين جملة مفصولة عما قبلها مع اتفاقهما فى الإنشائية ، لأن بينهما شبه كمال الاتصال ، إذ الأمر جواب عن سؤال يفهم من النداء ، فبعد النداء يقدر أن من نودوا سألوا : لم تدعونا يا ربنا ؟ ، فالنداء حل محل السؤال لأنه استلزمه ، والأمر حل محل الجواب ، وبين السؤال وجوابه اتصال شديد ، وبين مايحل محلهما شبه كمال الاتصال .

واعملوا صالحاً : موصولة بما قبلها لتوسطها بين الكمالين ، فهما إنشائيتان لفظا ومعنى ، والمسند إليه فيهما واحد .

يطيل السفر : أشعث ، أغبر . . . كناية عن أن رحلته متعينة لنحو الحج والعمرة وزيارة الأماكن المقدسة ، وغيرها من الطاعات التى تتم بالانتقال والتزام طقوس وشعائر معينة تصرف عن الدنيا وزينتها .

يمد يديه إلى السماء : فيها تشبيه ضمنى ، شبه مثول الداعى أمام مقام الربوبية بمثوله بين يدى أولى الأمر فى دنيا البشر . وفيها كناية عن تطامن الداعى وخضوعه وتذلله ، ورفعة المدعو وجلاله وعلوه .

يارب يارب : النداء فى أصله لطلب الإقبال ، ولا يتصور من الله — سبحانه وتعالى — حسا ، وإنما يتصور فى لازمه من القبول والرضا . وفى العبارة إيجاز بالحذف من وجهين : أولهما حذف سابق وهو حذف العامل الذى وقعت عبارة النداء مفعولا له على الحكاية ، والآخر حذف لاحق وهو حذف المطلوب إلى الله — تعالى — أن يستجيب له ، من مثل : ارحمنى ، واعف عنى ، وأنجح مسعاى ، ولا تعذبنى ، ولا تخيب رجائى ، ولا تؤاخذنى بذنوبى .

ومطعمه حرام . . . بين هذه الجملة وما بعدها وصل ، داعيه المشاركة في الحكم الإعرابي ، حيث لا مانع منه .

غذى بالحرام : جملة فعلية بعد عدة جمل اسمية ، أتى بها لإفادة التجدد والاستمرار بعد إفادة الثبوت ، فهذا العاصى يستديم الحرام من بعد أن أصبح واقعا فيه واستقر أمره عليه ، وهذا على اعتبار أن الفعل (غذى) غير نص فى الزمن الماضى إذ يمكن أن ينسحب إلى ما بعده من الزمن، وحذف الفاعل للإيجاز وليذهب الذهن فى تقديره كل مذهب ، فمن غذاه ؟ وفى ذكر الغذاء بعد المطعم والمشرب تأكيد لمسلك العاصى ، وربما خص المطعم والمشرب بما يتناوله فى الكبر وخص الغذاء بما يتناوله فى الصغر، فيكون ذكر هذا للتنبيه على استواء حالتيه فى الصغر والكبر ، ويساعده أن الواو العاطفة لا تفيد ترتيبا .

أنى يستجاب له : استفهام الغرض منه استبعاد وقوع الفعل وهو إجابة من هذه صفاته وأحواله . وحذف الفاعل عند بناء الفعل للمفعول لأنه متعين يدركه الذهن من أول وهلة ، ويجوز أن الرسول الكريم حجب لفظ الجلالة اصيانة اسمه - تعالى - من أن يقترن بمثل هذا العاصى .

فكرة الحديث :

قرر الرسول - ﷺ - أن الله - سبحانه وتعالى - طيب ، فلا يقبل من عباده إلا أن يتقربوا إليه بالطيب ، الخالص لوجهه الكريم ، الخالى من الغش والرياء والعجب ومن شوائب الحرمة والمعصية والإثم ، وسبيل ذلك أن يتحروا ما أحله الشرع لهم مما يأكلون ويشربون ويلبسون وسائر ما يكسبون وأن يعتادوه ، امتثالا لما أمر الله به عباده الصالحين ، منذ خلق الدنيا وبعث الرسل . وإذا التزم العباد الطيب الحلال أثيبوا واستحقوا

أن يتقبل الله قرباتهم ويستجيب دعواتهم ، أما إن استمروا الحرام واعتادوه فإنهم يباعدون بينهم وبين استجابة الله لهم ، على الرغم مما يقدمون بين يدى نجواهم من قربات وطاعات ، يبذلون فيها الجهد ، ويسلكون بها مسلك من يظهرون الصلاح والتقوى .

الإيضاح والبيان :

١ - يقول رسول الله - ﷺ - : « إن الله طيب ، لا يقبل إلا طيباً » . والله - سبحانه وتعالى - طيب ، أى أنه الكامل كمالا مطلقا ، الزكى الذات والصفات والفعال ، القدوس ، المنزه عن كل نقص وعيب ، البرىء من كل آفة وشائبة ، وهو - جل جلاله - المستلذ الأسماء والنعوت عند العارفين بها المدركين أسرارها . فعلينا - نحن العباد - أن نتقرب إليه بالطاعات والقربات التى تتسامى إلى مقامه ، فالله لا يقبل إلا طيباً . والطيب الذى يقبله الله هو ما جعله الشرع - لا الذوق - طيبا حلالا من قول أو فعل ، قال تعالى : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه »(١) ، فالذين يريدون لأنفسهم العزة يطلبونها عند الله صاحب العزة المطلقة ، والعزة تطلب بالكلم الطيب والعمل الصالح . والكلم الطيب هو الكلم المساوق للإيمان والمؤدى إليه من نحو الشهادة بالله ورسوله والحمد لله والثناء عليه والاستغفار له والدعاء له وقراءة القرآن . والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله أى أنه يحقق الكلم الطيب ويصدقه ويحتويه(٢) . والعمل الصالح هو الخالص لوجه الله - تعالى - الخالى من الشرك ومن المراءة . وقال تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة

---

(١) سورة فاطر - آية ١٠ .
(٢) وهذا أحد وجوه التفاسير فى الآية .

ربه أحداً »(١) ، أى فمن كان يرجو القبول من الله فليقدم بين يدى لقائه عملا صالحاً خالصاً لوجهه ، لا يخلط به غيره ، وليقدم عبادة خالصة خالية من الإشراك والمراءاة بها ، فإن الرياء هو الشرك الأصغر كما ورد بذلك الخبر ، وإنما يتقبل الله من المتقين ، وليس الرياء من التقوى .

٢ - وبالاخلاص تطيب الطاعات والقربات ، وبالاخلاص تطيب الأقوال والأعمال وسائر العبادات . والاخلاص فى حقيقته « إفراد الحق فى الطاعة بالقصد » - كما نقل عن أبى القاسم القشيرى - وهو يقتضى التوقى عن ملاحظة الأشخاص ، ويستدعى أن تكون حركات العبد وسكناته لله وحده ، لا يمازجها شىء من أهواء النفس ولا من ميول الدنيا . وذلك كله لا يؤتاه إلا من رضى الله عنه وأحبه . عن حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن الإخلاص ما هو ؟ فقال : سألت جبريل عن الإخلاص ما هو ؟ فقال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ فقال : سر من أسرارى أودعته قلب من أحبه من عبادى » . والإخلاص شرط فى جميع العبادات ، فعلى العابد أن يبتغى بها ما عند الله ، ويكون باعثه على أدائها التقرب إليه - سبحانه وتعالى - فمن ابتغى بالعبادة عرضاً من أعراض الدنيا كان عاصياً بهذا ، فإن لم يقع به فى الكفر والإشراك ابتعد عن الإخلاص . ومن ابتغى بالعبادة القرب من الله وعرض الدنيا معاً صحت عبادته وإن تكدر بهذا صفوها ، وكان له من الثواب بمقدار ما فيها من الإخلاص ، وبعضهم قال ببطلانها ؛ للحديث القدسى : « يقول رب العزة : من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه ، وفى رواية « . . . فهو له كله ، وأنا منه برىء ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك » .

---

(١) سورة الكهف - آية ١١٠ .

٣ — وأصل الرياء(١) طلب المنزلة فى قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير. والرياء بالأعمال التى ليست من جملة الطاعات أهون منه بالطاعات ؛ لأنه فى الطاعات يحبط العبادة ، ويسبب المقت عند الله . . وما أكثر وسائط الرياء وما أكثر دواعيه . ومن أمثلته الرياء بالبدن كإظهار النحول والمرض إبهاما بأنهما من سهر الليل فى العبادة ومن الفكر فيما بعد الموت ، والرياء بالهيئة كإبقاء أثر السجود على الجبهة واصطناعه . والرياء بالقول كتعمد تحريك الشفتين بالذكر فى حضرة الناس . والرياء بالعمل كاظهار الخشوع فى الصلاة بإطالة الركوع وإطالة السجود ، والرياء بالأشياء الخارجة كاستزارة رجال الدين للمفاخرة والمباهاة بأنهم يودونه .

ومثل الرياء فى إحباط العبادة العُجب . والعجب رضا المرء عن نفسه متعاليا على غيره مستصغراً إياه محتقراً له معتقداً فى نفسه الفضل عليه . والعجب يجر صاحبه إلى الغرور . ويحمله على الاستبداد برأيه ، ويمنعه من الاستماع الى من ينصح له ، وفى الحديث : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » ، وقد ذمه القرآن فى معرض الإنكار على المسلمين حين تواكلوا يوم حنين على بأسهم وكثرتهم وقالوا : ان نغلب اليوم من قلة ، فشق هذا على الرسول ، فأنزل الله عليه : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين (٢) » .

والعجب فى العبادات(٣) استعظامها ، والتبجح بها ، والمن على الله بفعلها ،

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ـ كتاب ذم الجاه والرياء .
(٢) سورة التوبة ـ آية ٢٥ .
(٣) الغزالى : إحياء علوم الدين ـ كتاب ذم الكبر والعجب .

ونسيان نعمة الله بالتوفيق والتمكين منها ، كمن يأمن مكر الله وعذابه ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وما أحكم قول السوسي - وهو من المتصوفة - : الإخلاص هو فقد رؤية الإخلاص ؛ فان من شاهد في إخلاصه الإخلاص احتاج إخلاصه إلى إخلاص . يشير بهذا إلى حاجة العمل إلى أن يصفى من العجب ؛ لأن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا من جميع الآفات .

٤ — وما يقرره الرسول الكريم من أن الله طيب لا يقبل الا طيبا - توطئة وتأسيس للمقصود بالذات من سياق الحديث الشريف ؛ وهو طيب المطعم والمشرب والملبس وسائر حظوظ الدنيا ، هذا الطيب المستلزم لإجابة الدعاء غالبا ، فاستطابة الكسب المادي وسيلة ومفتاح لاستطابة الكسب الروحي وخطوة على طريقه .

٥ — والرغبة في حظوظ الدنيا شيء مركوز في الطباع ، وضرورة من ضرورات الفطرة . وقد عبر الرسول — ﷺ — عن هذا فيما رواه عنه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : سمعت النبي — ﷺ — يقول : «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب»(١) . والإسلام يعترف بحب المال وقيام الدنيا عليه ، ومن أجله نظم العلاقات الاقتصادية ، ووضع التشريعات المالية ، التي تنظم معاملات الناس ، من بيع ، وشراء ، وإجارة ، ومزارعة ، وسلف ودين ، وشركة ، وهبة ، وشفعة ، ورهن ، ووصية ، وغيرها ، وأوصى بحسن المعاملة ، وإيفاء الكيل والميزان ، ورعاية أموال السفهاء واليتامى ، والكسب

---

(١) في كتابنا (في رحاب الهدى النبوي) ص ٢٨ شرح لهذا الحديث .

الحلال(١)، «وأحل الله البيع وحرم الربا»(٢). كما حرم الميسر، والغصب، والسرق، والاحتكار، والغش، وجعل فى أموال القادرين زكاة وصدقات تطهرهم وتزكيهم، وتستدعى احترام الفقراء والمعدمين لهم، وزوال أحقادهم ونوازع الشر من نفوسهم، فلاينتقضون على المجتمع.

والمسلم العاقل هو الذى يتخذ المال وسيلة إلى المعيشة الراضية بما تقتضيه الحكمة، فيطلب المال راشدا، وينمى ثروته عاقلا، ويؤدى حق الله فى ماله وثروته راضياً سمحا، ويجعل دنياه مطية لآخرته. أما من كانت الدنيا همه فإنه يعيش لها، ويحرص على متاعها: وينافس فيها، ويخدع بزخرفها، فيضل إسعيه، ولا يناله من ذلك إلا أن يخسر رضوان الله. ولئن ربح الدنيا لقد ربح ربحا شائلا فى حساب الكسب والخسران يوم القيامة.

والمسلم العاقل يمكن أن يبتغى دنياه وآخرته معا، فلا ينصرف لإحداهما عن الأخرى، ولايضيع إحداهما بتكالبه على الأخرى، وإنما يصيب من دنياه حظه مراقبا فى الآخرة قسطه، فيستقيم له أمرهما على سواء. قال تعالى

---

(١) اقرأ: البقرة ١٩٨ و٢٧٥ - ٢٨٣ والأنعام ١٤١ - ١٤٥ والأعراف ١٠ و٣١ — ٣٣ والحجر ١٩ و٢٠ والنحل ٥ — ١٨ والإسراء ١٢ والكهف ٤٦ والمؤمنين ١٨ — ٢٢ والقصص ٧٣ و٧٧ والروم ٤٦ وسبأ ١٠ و١١ والجاثية ١٢ والجمعة ٩ و١٠ والملك ١٥ والنبأ ١١. وحديث الرسول: «أحل ما أكل المرء من كسب يمينه»، وقوله: «أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح»، وقوله: «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء»، وقوله: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه».

(٢) سورة البقرة — آية ٢٧٥.

فى ذلك - على لسان قوم قارون ينصحونه: - « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد فى الأرض »(١) ، وفى المأثورات المشهورة : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

فالإسلام - إذن - لايهمل مطالب الدنيا وحاجات الأبدان والأجسام، ولايقطع المسلم عن الاشتغال بأسباب الحياة الدنيا ، وإنما يدعو الإسلام - مع ذلك - إلى أن نجعل حظوظنا من الدنيا فى خدمة تطلعاتنا إلى رضوان الله .

والإسلام لايلزم الناس بالرهبانية وتطليق الدنيا ، وفى حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « لارهبانية فى الإسلام » . وإذا كان الإسلام يدعو إلى الزهد فإنه يدعو إلى زهد القادرين لازهد العاجزين، يدعو إلى الزهد عن يسار وكفاية لاعن فاقة وضرورة حاجة .

٦ - ويدعو الإسلام فى المال دعوتين : دعوة إلى ابتغاء الدنيا وبذل النشاط الاقتصادى والسعى فى سبيل الكسب، ودعوة تزجر المسلم عن الشره والطمع ، وتردعه عن الانكباب على طلب الدنيا ، وتصرفه عن الغلو فى الحرص عليها ، « قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى »(٢) . وفيما بين الدعوتين يقف التوسط والاعتدال والتعفف والقناعة والرضا بما قسم الله محور النشاط الاقتصادى للمسلم ؛ إذ « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس »(٣) ، فإقبال المسلم على دنياه يجب أن يكون إقبالا

---

(١) سورة القصص آية ٧٧ .
(٢) سورة النساء - آية ٧٧ .
(٣) شرحنا هـذا الحديث بكتابنا (فى رحاب الهدى النبوى) ص ٣٧ .

مشروعا ، يتيح له أن ينفق منها وينال من حظوظها بما يدنيه من ثواب الله، فإذا أباح الإسلام اقتناء الدنيا رعاية للطبيعة البشرية فبشرط أن يكون اقتناؤها مصدر اللانتفاع بها على الوجه الحلال الطيب ، وبشرط ألا يفتن بها فتنة تصرفه عن الجادة ، وبشرط أن يطلب متاعها أداة للاستقرار المعيشى وللوقاية من حاجات الحياة وللصيانة من الحرمان . ولا يرضى الإسلام أن يطلب متاع الدنيا للطغيان والاسترسال في التطاول والاستغراق فى الشهوات .

ويذكر الغزالى للمال فوائد وآفات دنيوية ودينية (١) ، فمن فوائده الدنيوية : أنه يخلص صاحبه من الفقر ويكفيه ذل السؤال ويكثر أعوانه وإخوانه ، ومن فوائده الدينية : إنفاقه فى العبادة وفيما يقوى عليها كالملبس والمسكن وضرورات المعيشة وفى الصدقات والمروءات وفى صالح المجتمع كبناء المدارس والمساجد والجسور، ومن آفاته الدنيوية : تجشم المصاعب فى كسبه وحفظه والتعب فى دفع الحساد عنه ومعيشة الهم والخوف من زواله. ومن آفاته الدينية: أنه قد يجر إلى اقتراف المعاصى التى يموّلها اليسار والقدرة وأنه قد يجر إلى التنعم فى المباحات فإذا اشتد أنس المتنعم بها فمن المحتمل ألا يقدر على التوصل إليها بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى المراءاة والكذب والنفاق ليتيسر له تنعمه ، وقد يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله . ومن هذا يتبين أن المال محمود بالإضافة إلى المقصود المحمود، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم .

٧ — يقول الرسول الكريم: «وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : (يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) ، وقال : (يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) » .

---

(١) إحياء علوم الدين : كتاب ذم البخل وذم حب المال .

عندما خلق الله الخلق وخلق لعباده ما فى الأرض جميعاً وأباح لهم ما أباح وحرم عليهم ما حرم ، أمر المؤمنين (١) بمثل ما أمر به المرسلين من أكل الطيبات والاستمتاع باللذات الحلال ؛ وبهذا سوت الشريعة منذ القدم بين المؤمنين والمرسلين فى الخطاب بتحرى أكل الحلال وتعاطى صالح الأعمال وإباحة الطيبات من الرزق ، اشعاراً بأن الأصل استواؤهم فى الأحكام ، وهكذا تكون شريعة الله ، فالجميع عباد الله ، فهم أمامه سواء ، إلا ما يحتاج الى تخصيص المرسلين به ، رعاية لمصالح الشريعة أو مصالح العباد .

وجاء خطاب الرسل أولا ، لأنهم أول المؤمنين وقدوتهم ، وجاء خطاب الذين آمنوا بعد ذلك (٢) ، رفعا لشأنهم الى مثل مرتبة الرسل اذا ائتمروا واستقاموا على الطريقة .

أوضحت الآية الأولى أن الله - سبحانه وتعالى - خاطب كل رسول فى زمانه فناداه ليبيح له الأكل من الطيبات ويوصيه بالعمل الصالح ، فإذا علم أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - أن هذا الأمر نودى له جميع الرسل ووصوا به كان حقيقا أن يأخذوا به ويعملوا له اقتداء بالرسل . وقدم أكل الطيبات على عمل الصالح ، للتنبيه على أن الانتفاع بالرزق والاستفادة من حظوظ الدنيا الحلال وسيلة العمل الصالح وسبب فى أدائه . واذا كان العمل الصالح مؤديا للثواب كان تعاطي الطيبات مؤديا للمثوبة اذا قصد به التقوى على الطاعة .

وأوضحت الآية الثانية أن الله - سبحانه وتعالى - خاطب المؤمنين فناداهم ليبيح لهم أن يأكلوا من الطيبات التي أوصلها الله اليهم رزقا لهم .

---

(١) ويشمل - من باب التغليب - المؤمنات .

(٢) الآية الأولى مكية (المؤمنون ٥) والثانيــة مدنية (البقرة ١٧٢) .

وتكملة الآية : « واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » ، وفى هذا إشارة إلى استحقاق الله الشكر على مارزقهم وما أباح لهم من الطيبات إن كانوا حقا يخصونه بالعبادة ويقرون أنه صاحب النعم التى أنعم بها عليهم ، وجاءت الآية بعد ثلاث آيات من قوله تعالى : « يأيها الناس ، كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » ، ففى هذه الآية أباح الله للناس جميعاً أن يأكلوا مما فى الأرض مما أحله الله ومما طهره من الشبهات ، ونهاهم عن أن يتبعوا خطوات عدوهم الشيطان وطرقه فيحرموا حلالا أو يحلوا حراما أو يدخلوا فى شبهة ، فالله - سبحانه وتعالى - أباح للناس أولا أن يطعموا الحلال الطيب ، ثم أباح للمؤمنين أن يطعموه ، أباحه للناس جميعاً لأنه المتفضل صاحب المنة وصاحب الكلمة فى المنح والمنع وليس للشيطان ولا لأنفسهم سبيل فى تحليل أو تحريم ، ثم أباحه للمؤمنين من أجل أن يثيبهم عليه لأنهم يتعاطونه مقترنا بشكر الله على مارزقهم وأباح لهم ، ولأنهم يتحرون أن يكون حلالا فى نفسه طيبا فى جهة اكتسابه. أما الحرام فهو خبيث وهو ذريعة إلى خبث متعاطيه فهو يقتل به نفسه أو يناظر فى حرمته قتل النفس كما تشير إلى هذا الآية : « يأيها الذين آمنوا ، لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم » (١) .

٨ - يقول راوى الحديث : ثم ذكر (أى الرسول) الرجل يطيل السفر ، أشعث ، أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له ! » .

قررنا أن استطابة الكسب المادى وسيلة ومفتاح لاستطابة الكسب

---

(١) سورة النساء آية ٢٩ .

الروحى وخطوة على طريقه ، فتناول الحلال مستلزم لإجابة الدعاء غالباً ، وتعاطى الحرام مانع من إجابة الدعاء غالباً . روى سعد بن أبى وقاص — رضى الله عنه — أنه قال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم —: ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة . فقال له الرسول : «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة. والذى نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً . وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به» .

ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يذكر عابداً يطيع الله فى حج أو عمرة أو زيارة للمقدسات أو لصلة الرحم، ويبذل فى طاعته كثيراً من المشقة والجهد، يسافر السفر البعيد الطويل ، ويقسو على نفسه تنسكا ، فيصير أشعث أغبر، ولا يكف عن إظهار التطامن والمذلة والانكسار والافتقار بمد يديه إلى جهة السماء يدعو الله ، ثم يستبعد الرسول أن يقبل الله منه دعاءه ، لأن مطعمه حرام، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام .

هذا الساعى فى طاعة الله مثل هذا السعى متلبساً بالحرام لا يقبل الله دعاءه . فمن باب أولى لا يقبل دعاء السادرين فى الغواية ، والوالغين فى المظالم ، والمنهمكين فى ملذات الدنيا .

هذا الساعى فى طاعة الله مثل هذا السعى متلبساً بالحرام مفلس، وهو مفلس دينى، وهو مثل هذا المفلس الذى سأل الرسول — ﷺ — أصحابه عنه ، قال : «أتدرون من المفلس ؟» قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال : «إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من سيئاته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار»(١)، فهذا المفلس الدينى يأتى

---

(١) انظر شرحه بكتابنا (فى رحاب الهدى النبوى) ص ٢٢

ربه وقد قدم فى دنياه صلاة ظن أنه هدى بها إلى البر الذى يهدى إلى الجنة، وصياما ظن أنه ملاق جزاءه عند باب الريان ، وزكاة ظن أنها راجحة فى ميزان الحسنات ، ثم يفاجأ يوم القيامة بأنه — فى دنياه — كان أبطل ثوابه، وضيع جهده ، وأفسد صالح أعماله ، بما ارتكب من الخطايا والذنوب والآثام .

وأمثال الساعى فى طاعة الله مثل هذا السعى متلبساً بالحرام يحبطون أعمالهم بما تلبسوا به ، فقد « ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »(١) ، خسروا طاعاتهم وبطل ما كانوا يعملون وجاءوا يوم القيامة يحسبون أنهم قد أحسنوا فى دنياهم الصنيع وقدموا بين يدى أخراهم طاعات ، ثم يجدونها لا تزن عند الله شيئاً .

وأمثال الساعى فى طاعة الله مثل هذا السعى متلبساً بالحرام هم من تحدث الرسول عنهم بقوله : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ . قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكن قاتلت ؛ أن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى يلقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟. قال: تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ؛ ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ، ليقال هو قارىء ، فقد قيـــل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ . قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال :

---

(١) سورة الكهف - آية ١٠٤

كذبت ، ولكنك فعلت ، ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقى فى النار » .

ومثل هذا المرائى بإنفاقه من يبطل صدقته بالمن والأذى ، ولا ينتهى عما نهى الله عنه فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا، لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى»(١).

ومثله من يصل بالحرام رحمه،أو يتصدق بالحرام،أو ينفق الحرام فى سبيل الله، قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:«من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله ، جمع الله ذلك جميعاً ، ثم قذفه فى النار » ، فإن الإنفاق يجب أن يكون من طيب الكسب ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون »(٢) . فمن حجب الطيب وأنفق الخبيث أساء الأدب مع الله إن كان يبغى إرضاءه، إذ لا يجوز إرضاء الله بهذا الخبيث، وأساء إلى نفسه ، وكان قصير النظر إن كان يبغى الثواب بهذا الخبيث .

٩ - قلنا: إن الداعى اتجه إلى جهة السماء يرفع يديه عند الدعاء، وقد ورد أن الرسول رفع يديه فى دعاء الاستسقاء حتى رئى بياض إبطيه . وفى هذه الصورة تعبير عن علو منزلة المدعو وسمو مقامه، وإشارة إلى عزة الله وجلاله. والاتجاه إلى السماء واتخاذها قبلة للدعاء والرجاء أمر مركوز فى طباع الناس

---

(١) سورة البقرة - آية ٢٦٤ والمن ذكر الصدقة والتحدث بها، والأذى إظهارها مع حال من هتك الستر . أو المن أن يستخدم الفقير بعطائه والأذى أن يعيره بالفقر . أو المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه والأذى أن ينتهره ويوبخه بالمسألة .

(٢) سورة البقرة - آية ٢٦٧

وقد رضى عنه القرآن وأجازه . قال تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها»(١) ، وجعلها الله مكان إنزال الكتب والآيات(٢)، وفيها مخزون الأرزاق(٣) ،وهى محل الرحمة والرضا والمقت والغضب(٤)

١٠ — و «الدعاء هو العبادة» و «الدعاء مخ العبادة» كما حدث الرسول -صلى الله عليه وسلم -والعبادة يتقبلها الله إذا كانت خالصة لوجهه،وقال تعالى: «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى ،فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى، لعلهم يرشدون »(٥) ، وقال تعالى : «وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم،إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين»(٦) وقد فسرت دعوة الداعى فى الآية الأولى بطلب الحاجات،وفسرت بالعمل بما أمر الله به وندب إليه،،وعلى هذا التفسير يكون الدعاء هو العبادة كما يفهم من الآية الثانية وكما صرح الرسول -ﷺ- وتكون الإجابة على التفسير الأول هى إجابة الداعى الى ما طلبه،وتكون الإجابة على التفسير الثانى وفاء الله بما ضمنه المطيعين من الثواب .وعن الحسن -رضى الله عنه-قال:(اعملوا وأبشروا، فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ويزيدهم من فضله).وفى الحديث القدسى : «يقول الله — عز وجل — : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ،وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ،وإن تقرب إلى ذراعاً

---

(١) سورة البقرة - آية ١٤٤

(٢) اقرأ النساء ١٥٣ والشعراء ٤

(٣) اقرأ المائدة ١١٢ - ١١٥ والذاريات ٢٢

(٤) اقرأ : الأعراف ٤٠ والأنفال ٣٢ والإسراء ٩٢ والكهف ٤٠

(٥) سورة البقرة - آية ١٨٦

(٦) سورة غافر - آية ٦٠

تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »(١) ؛ أرأيت الله يتقرب إلى عبده كلما تقرب عبده إليه ! أرأيت مسافة القرب كم تكون ! قرب شبر من العبد يكافئه الله من جانبه بالقرب مقدار ذراع ، وذراع من العبد يساوى حركة الله مقدار باع ، والمشى من قبل العبد يستدعى الهرولة من قبل الرب . وليس الأمر أمر شبر وذراع وباع ومشى وهرولة على الحقيقة ، وإنما المقصود التمثيل ، والمعنى — والله ورسوله أعلم — أن كل من يتقرب إلى الله بقليل من الطاعة يجزيه الله عنه كثيراً من الثواب ، وكلما زاد الإنسان فى طاعة الله زاد الله فى ثوابه عن هذه الطاعة ، وإن جاءت طاعة العبد وبره على الأناة فإن رحمة الله وثوابه يأتيانه على السرعة . وهذا هو الذى يقتضيه اعتبار المجاز فى إسناد العندية والمعية والتقرب والهرولة إلى جانب الله .

١١ — وقد وعد الله داعيه بالإجابة، ووعد الله حق، يقول الرسول ﷺ «ما من داع يدعو إلا كان بين ثلاث : إما أن يستجاب له، وإما أن يدخر له، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه» ، فإجابة الدعوة تكون فى واحدة من هذه الصور الثلاث: الإسعاف بالمطلوب، أو ادخار ما قدره الله أفضل مما يطلبه الداعى ، أو أن يحط عنه بعض ذنبه. فإذا دعونا فلم نسعف بالمطلوب فلنثق فيما ادخره الله أو فى تكفير الذنب. ولكن إبراهيم بن أدهم لم يشأ أن يجاوز الواقع حينما سئل : ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ أجاب إبراهيم : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء : عرفتم الله ولم تؤدوا حقه ، وزعمتم حبكم للرسول وتركتم سنته، وقرأتم القرآن ولم تعملوا به ، وأكلتم نعم الله ولم تؤدوا شكرها، وقلتم الشيطان عدوكم ولم تخالفوه ، وقلتم الجنة حق ولم تعملوا لها، وقلتم النار حق

---

(١) شرح هذا الحديث بكتابنا (فى رحاب الهدى النبوى) ص ٥

ولم تهربوا منها ، وقلتم الموت حق ولم تستعدوا له ،وانتبهتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم ، ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .

١٢ ـ ويشير الحديث إلى أن تناول الحلال يستلزم إجابة الدعاء غالباً . وفى المقابل يصبح تعاطى الحرام مانعا من إجابة الدعاء ولكن ليس الحديث صريحا فى منع إجابة العاصى ، فقد يقبل الله منه ؛ لطفا وتكرما ، أو لحكمة متدورة ، كما حكى القرآن عن دعاء إبليس وقبول الله منه ، « قال : أنظرنى إلى يوم يبعثون » قال : إنك من المنظرين »(١) .

١٣ ـ ونحن نؤمن بالقضاء والقدر ولا مرد لما سبق به القضاء والقدر . وهنا ـ إذن ـ سؤالان : أمن الأفضل الدعاء أم السكوت ؟ . وإذا كان الدعاء هو الأفضل فما فائدته ؟ .

(أ) عن السؤال الأول ـ قيل : الدعاء أفضل لأنه عبادة . وقيل : السكوت أفضل لإظهار الرضا والاستسلام لحكم القضاء والقدر . وقيل : يظهر الداعى الدعاء بلسانه وينوى الرضا والاستسلام بقلبه . وقال القشيرى : الأولى أن يستفتى قلبه ، فإن وجد فيه إشارة إلى الدعاء دعا ، وإن وجد فيه إشارة إلى السكوت سكت ويصح أن يقال : الدعاء أولى إذا كان لله فيه حق أو للمسلمين فيه حظ ، والسكوت أولى إذا كان الدعاء لنفسه .

(ب) عن السؤال الثانى ـ يجيب الغزالى(٢) بأن الله تعبد العباد بالدعاء ، ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ، فالدعاء

---

(١) سورة الأعراف ـ الآيتان ١٤ و ١٥

(٢) إحياء علوم الدين ـ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا .

سبب رتبه الله وأمر به ، والتمسك بالأسباب ـ جرياً على سنة الله ـ لا يناقض التوكل ، فهو لا يناقض الرضا بقضاء الله ، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به .

وأقول مع القائلين : إن فى الدعاء إظهارا للافتقار إلى الله الغنى الحميد ، وقد أثنى الله — جل شأنه — على من يدعونه فقال تعالى : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهباً وكانوا لنا خاشعين »(١). والثابت أن رسول الله — ﷺ — كان كثير الدعاء ، وأن الصحابة — رضوان الله عليهم — كانوا يكثرون من الدعاء ، وأن المسلمين على هذا إلى اليوم ، فأصبح الدعاء مما علم من الدين بالضرورة ، فعلينا أن نؤمن به كما نؤمن بالقدر ، وإن عجزنا عن تفسير العلاقة بين الدعاء والقدر .

١٤ — والدعاء له آداب ، لخصها الغزالى فى عشرة ، واستدل لها بكلام الله — تعالى — وحديث الرسول — ﷺ — وعمل الصحابة والصالحين ، وهى (٢) :

(أ) أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة ، كوقت السحر ، ويوم الجمعة ، وشهر رمضان ، ويوم عرفة .

(ب) أن يغتنم الأحوال الشريفة ، كالصلاة ، والصيام ، وعند نزول الغيث . أقول : بشرط ألا يشغله الدعاء عن واجب الفرض .

(ج) أن يدعو مستقبل القبلة رافعاً يديه متجافياً بهما عن ابطيه .

(د) أن يجعل صوته بين الجهر والمخافتة ، قال تعالى : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » (٣) ، قالت عائشة — رضى الله عنها — : معناه ولا تجهر بدعائك ولا تخافت به .

---

(١) سورة الأنبياء ـ آية ٩٠ .

(٢) احياء علوم الدين ـ كتاب الأذكار والدعوات .

(٣) سورة الإسراء ـ آية ١١٠ .

(هـ) أن يدعو بالمأثور من الدعوات، فإذا أتى بكلام من عنده فعليه ألا يتكلف السجع، لأنه لايناسب حال التضرع . أقول: وفى دعائه بالمأثور من الدعوات يجب أن يكون فاهما مايقول بصيراً بما يدعو به وليس مجرد حاك.

(و) أن يبدى الضراعة والخشوع والرغبة والرهبة .

(ز) أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه ، روى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « لايقل أحدكم إذا دعا : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت . ليعزم المسألة ، فإنه لامكره له »، وقال : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، وقال : « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لايتعاظمه شيء » .

(ح) أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا وألا يستبطىء الإجابة ، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لى. فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً، فإنك تدعو كريماً » ، وقال ابن مسعود - رضى الله عنه - : إن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان إذا دعا دعا ثلاثا ، وإذا سأل سأل ثلاثا .

(ط) أن يفتتح الدعاء بذكر الله والصلاة على النبى، ثم يذكر حاجته، ويختم دعاءه بالصلاة على النبى - صلى الله عليه وسلم - أقول : وينبغى أن تشتمل هذه الحاجة على طلب الحلال والمباح والجائز على وجه العادة، وأن يدعو بغرض صالح مع إحسان الخطاب ، فلا يدعو بطلب الحرام، ولا يدعو بالمحال، ولا يدعو بخوارق العادات ، ولا يدعو بالغرض الفاسد كالمال يطلبه للتفاخر ، ولا يسيء فى الخطاب .

(ى) وأهم هذه الآداب الأدب الباطن بالتوبة ورد المظالم والإقبال على الله - عز وجل - بكنه الهمة . ومحور هذا الأدب الإخلاص والصدق .

الحديث الحادى عشر

دع ما يريبك إلى ما لا يريبك

عن أبى محمد الحسن بن على بن أبى طالب سبط رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — وريحانته — رضى الله عنهما — قال : حفظت من رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

رواه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح (١) .

راوى الحديث :

هو الحسن بن على بن أبى طالب — رضى الله عنهما — وابن السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم — ﷺ — .

ولد الحسن فى المدينة المنورة فى منتصف شهر رمضان فى السنة الثالثة من الهجرة ، وبهذا الاسم سماه الرسول ، وكناه فيما بعد بأبى محمد ، ولقبه بالتقى وبالسيد .

والحسن (بفتحتين) والحسين (بالتصغير) لم يعرف لفظاهما علمين

---

(١) أشهر الأقوال أن الحديث الصحيح هو الحديث الذى يتصل إسناده إلى منتهاه بنقل العدول الثقات الضابطين ولا يكون شاذا ولا معللا . والحديث الحسن هو - فيما نرجحه - الحديث المقبول المعمول به سواء أكان صحيحاً تام الصحة أم كان شبيها به قريباً منه وهذا بأن يكون من رواته راو مشهور بالصدق والأمانة ولم يبلغ درجة رواة الصحيح فى الحفظ والإتقان . وحينئذ يمكن أن يوصف الحديث بالحسن الصحيح كما هنا ، إذ لا تعارض بينهما . (كتابنا : التعريف بالحديث الشريف - ص ٤٢) .

قبل الاسلام وعرف الحسن (بضم أو فتح فسكون) والحسين (بفتح فكسر) بوزن الجميل وبمعناه .

نشأ الحسن فى بيت النبوة ، فرضع لبان الخلق الكريم ، وورث المروءة والنزاهة والحكمة وسائر الفضائل ، ومات الرسول - ﷺ - وهو راض عن سبطه محب إياه داع لمن أحبه .

وعاش الحسن متواضعاً مع غناه ، جواداً كثير الصدقات ، ويروون أنه خرج من ماله كله مرتين فى سبيل الله ، وأنه قاسم الله ثلاث مرات . وحج ماشياً خمساً وعشرين مرة ، وكان يقول فى هذا : إنى لأستحيى من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته .

وبعد مقتل أبيه — سيدنا على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين — بايعه بالخلافة أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ، وحجب عنه معاوية ابن أبى سفيان بيعة أهل الشام ، وكان على الحسن أن يخوض قتالا مع معاوية ولما تراءى الجيشان قدر الحسن أن المسلمين جميعاً صائرون إلى فتنة ماحقة ، فعرض على معاوية الصلح ، وفرح معاوية لهذا ونزل عند شروط الحسن ، وكتبا وثيقة صلح خلع فيها الحسن نفسه ، وسلم مقاليد الحكم إلى معاوية ، وسمى العام الذى تم فيه هذا الصلح — وهو العام الحادى والأربعون للهجرة — عام الجماعة ، لاجتماع كلمة المسلمين فيه . وقد مكث الحسن فى الخلافة زهاء ستة أشهر .

وكان من جملة شروط الصلح أن يتولى الحسن الأمر بعد معاوية ، ولكن أطماع الملك دفعت — كما قالوا — يزيد بن معاوية إلى تحريض جعدة بنت الأشعث الكندية زوج الحسن على دس السم له ، فاستشرى السم فى بدنه ، ومرض مرض الموت أربعين يوماً ، وسأله أخوه الحسين عمن يتهمه ،

فأجابه : إن يكن الذى أظن فالله أشد بأسا وأشد تنكيلا ، وإن لم يكنه فلا أحب أن يقتل بى برىء .

وتوفى الحسن لخمس خلون من ربيع الأول فى السنة الخمسين على أظهر الأقوال، ودفن فى (البقيع) إلى جوار والدته الجليلة السيدة فاطمة الزهراء .

روى عن الرسول — ﷺ — ثلاثة عشر حديثاً . وهذا يعنى أن الحسن تحمل الحديث وهو صبى مميز ، وأداه بعد بلوغه . وهذا أمر جائز ، عرفناه أيضاً فى النعمان بن بشير ، وعبد الله بن الزبير بن العوام .

شذور لغوية :

سبط رسول الله : أى ابن ابنته السيدة فاطمة الزهراء . والسبط (بكسر فسكون) ولد الولد ، وفعله سبط (من بابى فرح وكرم) وهو بمعنى طال واسترسل وامتد واتسع وكثر . فالسبط امتداد فى الذرية . ويتعين السبط فى البنين من ولد الولد بخلاف الحفيد ، إذ يطلق الحفيد على البنين والبنات من ولد الولد . ومنهما قوله تعالى: « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » . ويطلق الحفيد أيضاً على الصهر ، وعلى الخادم ، وعلى العون .

ريحانته : الريحانة فى الأصل طاقة الريحان ، والريحان نبت طيب الرائحة ، أو كل نبت كذلك ، أو أطرافه ، أو ورقه . ويطلق على الولد وعلى الرزق وعلى الرحمة . وياؤه عن واو عند الأكثرين بدليل تصغيره على رويحين ، وقال جماعة : الياء أصل بدليل جمعه على رياحين .

حفظت : أصل الحفظ الحراسة والصيانة والرعاية ؛ فإذا اتجه إلى الكلام — كما هنا — انصرف إلى استظهاره ووعيه عن ظهر القلب .

دع : فعل أمر بمعنى اترك . وهو فعل محدود التصريف ، فلم يستعمل

العرب باطراد ماضيه ومصدره واسم فاعله واسم مفعوله ، اكتفاء بمرادفه من مادة ترك. وعبارة بعض اللغويين فى هذا : (إن ماضى يدع قد أميت). والحق أن التعبير بالإماتة مبالغة فى قلة الاستعمال ؛ فقد جاء استعمال الماضى فى قراءة من قرأ « ما ودعك ربك وما قلى » بالتخفيف أى ما تركك وما هجرك ، وهى قراءة شاذة . وجاء فى الشعر :

— ليت شعرى عن خليلى ما الذى
غاله فى الحب حتى ودعه

— وثم ودعنا آل عمرو وعامر
فرائس أطراف المثقفة السمر

وجاء المصدر فى الحديث : « لينتهين قوم عن ودعهم الجماعات » أى تركهم الجماعات ، وسمع على قلة وادع ومودوع أى تارك ومتروك .

ريبك : يجعلك فى ريب وريبة ، أى فى شك وظنة منه . روى الفعل ثلاثياً على الأكثر من راب ، ورباعياً من أراب . وجاء فى التهذيب أن هذا الرباعى لغة رديئة ، وفى لغة هذيل : أرابنى الأمر فربت أنا ؛ أى جعلنى الأمر فى ريبة منه فربت أى شككت .

وفرق بعضهم بين المتصرف من الثلاثى والرباعى ، ورأى استعمال الثلاثى عند التيقن من الريبة والرباعى عند توهمها ، فتقول : راب الأمر فلانا ورابنى من فلان كذا إذا استيقنت فيه الريبة ، وأراب الأمر فلانا وأرابنى من فلان كذا إذا أسأت فيه الظن دون يقين من الشك فيه . ويستعمل الرباعى لازما للدلالة على أن فاعله صار صاحب ريبة ، فتقول : أراب الرجل أى صار ذا ريبة فهو مريب ، وفى المثل (يكاد المريب يقول : خذونى) أى يوشك الموقع نفسه فى الريب أن يكشف عن أدلة اتهامه والظنة فيه .

مسائل نحوية :

ما يريبك : ما اسم موصول فى موقع المفعول به للفعل (دع) وجملة يريبك صلة الموصول ، وفاعل الفعل يريب ضمير مستتر يعود على الاسم الموصول ويربطه بالصلة .

إلى مالايريبك : قيل : إن الجار والمجرور متعلق بمحذوف يقع حالا من فاعل (دع) ، والتقدير على هذا القول (اترك الشىء الذى تشك فيه حال كونك متوجهاً - أو سائرا - إلى الذى لاتشك فيه) . ولعلك لحظت أن المحذوف المقدر كون خاص لاعام ، وقد اتفق النحاة على وجوب حذف المتعلق حيث كان استقرارا عاماً لاخاصاً ، وقال بعضهم بجواز حذفه إن كان استقرارا خاصاً ودل عليه دليل ، ومثــــلوا له فى باب الخبر (١) بقولهم : من لى بفلان ، أى من يتكفل لى به ، ونحو قولك : خالد على الفرس ، أى راكب .

ولا أمانع فى هذا الإعراب وهذا التوجيه ، بيد أنى أطمئن إلى تضمين الفعل (دع) معنى جاوز أو اعدل ، فالتقدير عندى جاوز ماتشك فيه إلى مالاتشك فيه ، أو اعدل عما يوقعك فى الريبة إلى مالايوقعك فيها . وليس التضمين فى نظرى وقفاً على السماع ، وإنما يجب أن يستمر لنمو اللغة وحياتها ، وقد أجاز مجمع اللغة العربية فى القاهرة قياسه .

أسرار بلاغية :

حفظت من رسول الله : فى العبارة مجاز بالحذف ، والتقدير : حفظت من كلام رسول الله

---

(١) وشبه الجملة فى أبواب الخبر والحال والنعت من واد واحد .

دع : أمر للإرشاد والندب ، وربما تعين للوجوب فى بعض الأحوال .

مايريبك : فى إيثار ما الموصولة بالذكر إفادة للتعميم ووقوع الفعل المطلوب على كل شىء تدل عليه الصلة ، فكل شىء يريب مطلوب تركه وتجاوزه ، وكل شىء لايريب مطلوب عمله والعدول إليه .

وفى المطابقة بين يريبك ومالايريبك إشعار بأن المرء كثيرا مايعيش لحظات الاختيار وفى مفترق المسالك . والرسول الكريم يرشده أن يجتنب طريق الشر والفساد والضلال والشبه والظنون ، وأن يسلك طريق الخير والرشاد والهدى والسلامة واليقين .

فكرة الحديث :

هذا الحديث قاعدة إسلامية عظيمة فى تحرى السلامة والورع . فعلى المسلم العاقل أن يدع الشبهات ، وينزه قوله وفعله عن الشكوك والريب ، ويمتنع عما يتطرق إليه احتمال التحريم وعما يقفه مواقف التهم ، وأن يعدل إلى مالا ريبة فيه ولاظنة ، وأن يستبق إلى الخيرات ، ويبنى أموره فى الدين على اليقين .

الإيضاح والبيان :

١ — يفتح هذا الحديث باباً من أبواب التربية الإسلامية ؛ ففى التوقى من مزالق الريب والظنون والشبهات تربية لإرادة المسلم ، وفى التوجه إلى منعطفات السلامة واليقين والحق تربية لضمير المسلم . وإذا استقامت الإرادة والضمير فى إنسان خلصت نفسه من الشوائب ، وتحررت من الدنايا ، وارتفعت عن الصغائر ، وانسلت من الشهوات ، واتجهت إلى الله صافية

نقية ، فصار صاحبها ربانيا ، و«أسلم وجهه لله وهو محسن»، قال تعالى: «ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن(١)» ، وقال : «بلى. من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون»(٢) .

٢ — وليس الناس جميعاً منفتحين على الخير ، وليسوا جميعاً منفتحين على الشر ، وإنما هم ثلاثة صنوف ، فنهم الأخيار ، ومنهم الأشرار ، ومنهم المترددون بين الخير والشر ، قال الغزالي(٣) : القلوب ثلاثة :

(ا) قلب عمر بالتقوى ، وزكا بالرياضة ، وطهر عن خبائث الأخلاق ، فهو طيب في جوهره ، طاهر بتقواه ، مستنير بضياء العقل ، مغمور بأنوار المعرفة ، مشرق بمشكاة الربوبية ، معمور بالمنجيات من مثل : الشكر ، والصبر ، والخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والرضا ، والشوق ، والتوكل ، والتفكر ، والمحاسبة .

(ب) وقلب مخذول ، مشحون بالهوى ، مدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث ، ينشرح صدره بالهوى ، وتنبسط فيه ظلماته ، فيقوى سلطان الشيطان عليه ، ويقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني ، فيضعف سلطان الإيمان فيه ، ويخبو نور اليقين ، وتغلب عليه الشهوة ، فيعمى عن الفهم ، ويصم عن السمع ، ويصير أداة في يد شيطانه ، يسعى في تحصيل مراده ، فيزين له الغضب ، والحرص ، والحسد ، والشره ، والنهم ، والطمع ، والعجلة ، والبخل ، وحب المال ، وخوف الفقر ، وسوء الظن ، والتعصب ، والتكبر ، والغرور ، والمراءاة ، والقعود عن العبادة .

---

(١) سورة النساء ـ آية ١٢٥
(٢) سورة البقرة ـ آية ١١٢
(٣) إحياء علوم الدين ـ كتاب شرح عجائب القلب .

(ﺟ) وقلب متردد بين الخير والشر ، تبدو فيه خطرات الهوى فتدعوه إلى الشر ، فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة دواعى الشر فتقوى الشهوات وتزين التمتع والتنعم بها ، فينبعث العقل إلى نصرة داعى الخير ويدفع فى وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ، فيميل القلب إلى نصح العقل . فيحمل الشيطان حملته على العقل فيقوى داعى الهوى .

أقول : ومايزال المرء متردداً بين هواه وعقله حتى ينتصر لأحدهما ويصدف عن الآخر ؛ « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء(١) » .

٣ — والمرء فى دنياه كثيراً مايعيش لحظات الاختيار وفى مفترق المسالك ، وهذا الحديث يرشده أن يجتنب طريق الشر والفساد والضلال والشبه والظنون ، وأن يسلك طريق الخير والرشاد والهدى والسلامة واليقين . فعلى المسلم العاقل الحازم المتبصر أن يقهر نفسه الأمارة بالسوء ، وألا ينساق إلى نزغ الشيطان ، وأن يدع مايريبه ، وأن يسىء الظن بنفسه هذه الأمارة ، ويسىء الظن بهذا الشيطان ؛ « يأيها الناس ، إن وعد الله حق ، فلاتغرنكم الحياة الدنيا ، ولايغرنكم بالله الغرور ۞ إن الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدواً ؛ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير(٢) » .

وعلى المسلم العاقل الحازم المتبصر أن يعلى سلطان ضميره (وهو نفسه اللوامة) ؛ يقول الرسول الكريم ﷺ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

---

(١) سورة الأنعام - آية ١٢٥

(٢) سورة فاطر - الآيتان ٥و٦

فالكيس ـ وهو العاقل الحازم المتبصر ـ يحاسب نفسه ويخضعها لعقله ولحكم الشرع وينظر فى عواقب أموره فلاينفذها إلا بعد التروى والتدبر ، والكيس يبتغى فيمايعمله الدار الآخرة وثواب الله، لأنه يعيش وهو يتخلص من سلطان الغرض وعماية الهوى وربقة الندم . أما العاجز فإنه أحمق يترك نفسه لهواها ، فيضل سبيل الهدى ، ولايبالى عاقبة مايصنع ، وإنما يعتمد على الرجاء فى الله من غير أن يقدم بين يدى رجائه شيئاً ذا بال ، إلا أن يستسلم للأمانى الكواذب ، خضوعا لشيطانه ، الذى يزين له التمتع بالدنيا ، ويخدعه بأن رحمة الله تسعه وأمثاله ، وقد خفى عليه أن الشيطان يختله ، ونسى أن الأجل ينتهى بغتة ، فلايترك فرصة لمراجعة ومعاودة ومحاسبة .

وعلى المسلم العاقل الحازم المتبصر أن يستفتى نفسه المطمئنة ، فيهتدى بهدى الله ، ويتحاشى كل ماخلا من الريبة ، ويتناول مااستيقنه سليماً طيباً حسناً .

٤ ــ وهذه هى طريق العلاج كما رسمها الحديث : « دع مايريبك إلى مالايريبك » ، فعلى المسلم أن يتنبه إلى مكايد الشيطان ، فالشيطان يتخذ من من الشبهات وسيلة إلى تعاطى المحرمات ؛ « ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام(١) » : والشيطان يحتال على الإنسان ، إذ يستدرجه إلى المعصية بمعسول الوسواس وإلباس الشر ثياب الخير ، وهو لا يدعوه إلى شر صريح ؛ حتى تجوز حيلته . فإذا ارتد المسلم إلى إيمان ويقين لم يتعذر عليه أن يغلب شيطانه وينتصر عليه ويهزله ويضنيه ، كما قال الرسول ﷺ : « إن المؤمن

(١) من حديث « إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات » ، وهو الحديث السادس من (الأربعين النووية) ـ شرحناه فى ص (٩٨) .

ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى سفره »، أو كما حدثوا عن الرسول - ﷺ - «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق ؛ فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتترك دينك ودين آبائك ؟ فعصاه وأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر؟ أتدع أرضك وسماءك ؟ فعصاه وهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد - وهو تلف النفس والمال - فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك ؟ فعصاه وجاهد » . قال الرسول الكريم : « فمن فعل ذلك فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » .

عصيان الشيطان إذن يستوجب دخول الجنة . ولايعصى الشيطان إلا المبصرون ، الذين استكشفوا مسالك النجاة من بين نزغات الضلال . وفيهم قال الله : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون(١) » ؛ فمن شأن المتقين - إذا ألم بهم وسواس الشيطان ليسول لهم المعصية والدنية - أن يرجعوا إلى نور العلم والمعرفة ، ويذكروا ما أمر الله به ونهى عنه ، فيبصروا وجه السداد ، ويدفعوا الشيطان وما يوسوس به إليهم، ولا يتبعوه أنفسهم ، فيسلموا ، فإذا هم مبصرون ، قد انكشف لهم ما أشكل عليهم ، واتضحت أمامهم المسالك: مسالك الهدى والتقى واليقين .

٥ — ويحرص المسلم على توقى ما لم يرد الشرع به من البدع ، وتوقى محدثات الأمور ؛ بالتعرف إلى وجه الحق فيما يستجد من هذه المحدثات والبدع ، واستبصار صلتها بالدين ، حتى لاتغلبه على حال الصلاح التى يجب أن يأخذ بها نفسه ، وحتى لاتقع عبئاً على ماندب الشرع إليه فى الكتاب والسنة . قال ابن مسعود - رضى الله عنه - فى حديث رواه ابن ماجه موقوفا

---

(١) سورة الأعراف - آية ٢٠١

ومسنداً : « إنما هما اثنتان : الكلام ، والهدى ، فأحسن الكلام كلام الله تعالى ـ وأحسن الهدى هدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن شر الأمور محدثاتها ، وإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة » .

٦ — ويطمئن المسلم إلى ما فيه النجاة والفلاح ويرتاب من ضده ، فإذا وجد فى نفسه ريبة من شيء تركه ، وجاوزه إلى ما لا ريبة فيه ، فإن الورع كل الورع فى العدول عما يريب إلى ما لا يريب . وفى الحديث الشريف : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يترك ما لا بأس به حذراً عما به بأس » .

ويروى عن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قوله : (كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام) ، ومثل هذا يقول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : (كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع فى الحرام) . فالمسلم ذو التقوى يمتنع عما فيه شبهة وريبة كما يمتنع عما فيه حرمة . ويقول الغزالى(١) : إن التزين بالمباح ليس بحرام ، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه . واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب ، يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصى من مثل المداهنة ومراعاة الخلق ومراءاتهم . والحزم فى اجتناب ذلك ؛ لأن من خاض فى الدنيا لا يسلم منها البتة(٢) .

---

(١) إحياء علوم الدين ـ كتاب العلم .

(٢) وقد ذكرنا فى شرح الحديث السادس (ص ١٠٦) أمثلة من الشبهات وكيف اتقاها السلف الصالح .

الحديث الثاني عشر

من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

حديث حسن، رواه الترمذي وغيره هكذا(١).

راوي الحديث :

هو الصحابي الجليل أبو هريرة، وسبقت الترجمة له في الحديث التاسع (ص ١٤٦).

---

(١) هكذا: أي موصولا، أي منقولا عن الرسول ﷺ من رواية أحد الصحابة، وهو هنا أبو هريرة - رضي الله عنه - وروى عند غير الترمذي وابن ماجه مرسلا، والمرسل هو الحديث يسنده غير الصحابي إلى رسول الله مباشرة، ومثاله ما رواه سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إنما العاقل من آمن بالله، وصدق رسله، وعمل بطاعته»، وسعيد بن المسيب تابعي ولد في خلافة عمر بن الخطاب.

وقد عول كثير من الأئمة على أن مراسيل كبار التابعين حجة إن رويت من وجه آخر ولو مرسلة، أو اعتضدت بقول صحابي، أو قول أكثر العلماء، أو كان المرسل لو سمى لا يسمى إلا ثقة (راجع كتاب اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير، وكتابنا التعريف بالحديث الشريف ص ٤٦).

شذور لغوية :

من : هي من الجارة ، وتأتي غالبا لابتداء الغاية ، وقال قوم : إن سائر معانيها يرتد إلى هذا المعنى ، ومجموع معانيها خمسة عشر معنى ، يصلح منها في الحديث معنيان : التبعيض ، والبيان ، والأولى علامتها إمكان سد (بعض) مسدها . والثانية كثيرا ماتقع بعد ما ومهما - وهما بها أولى لفرط إبهامهما ، نحو قوله تعالى : « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها(١) » ، وقوله تعالى : « وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين(٢) » . ومن وقوعها بعد غيرهما قوله تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان(٣) » .

حسن إسلام المرء : الحسن في الأصل الجمال وضد القبح وضد السوء . والإسلام أصله الانقياد والإذعان والدخول في السلم ، ويطلق شرعا على الأركان الخمسة التي بني هو عليها ، وهي : الشهادة والصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام ، والمرء الرجل . والأنثى المرأة ، وليس الرجل في الحديث مقصودا بنوعه فهو يشمل المرأة ؛ لاستوائهما أمام الشريعة في أمور التكليف ، وحسن إسلام المرء وصف عرضي يقتضي كمال الإسلام ، وليس الحسن من جوهر الإسلام ولا جزءا داخلا في ذاته ، وليس كذلك شرطا من شروط صحته .

تركه : الترك مصدر ترك (من باب نصر) ، يقال : ترك فلان الشيء خلاه وفارقه وطرحه ، وترك المنزل رحل عنه ، واستعمل للإسقاط في

---

(١) سورة فاطر - الآية ٢

(٢) سورة الأعراف - الآية ١٣٢

(٣) سورة الحج - الآية ٣٠

المعانى فقيل : ترك حقه إذا أسقطه ، وترك ركعة فى الصلاة أى لم يأت بها ، وهو إسقاط لما ثبت شرعا .

يعنيه : ثلاثى مبنى للفاعل من باب رمى - ويأتى من باب دعا - أى يعنى به (على البناء للمفعول) ويهمه ويشغله ويعرض له .

مسائل نحوية :

من حسن : جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم .

تركه : مبتدأ مؤخر ، وهو مصدر مضاف إلى فاعله (وهو الضمير العائد على المرء) وناصب مفعوله (وهو ما الموصولة) . والخبر واجب التقديم لأن المبتدأ اشتمل على ضمير يعود على شىء فى الخبر كما ذكرنا . والضمير إنما يعود على متقدم .

أسرار بلاغية :

عبارة الحديث من جوامع كلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وجوامع الكلم فى أحاديثه أقوال وجيزة ألفاظها قليلة ، ولكنها حافلة بالمعانى ، هادفة إلى المراد منها من أقرب السبل . وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - المثل الأعلى فى الفصاحة والبلاغة ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأمده بوحى من عنده ، وألهمه السداد والرشاد ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، وأتم عليه نعمته ، فجاء حديثه - صلى الله عليه وسلم - نورا يهدى إلى سواء السبيل ، ونبراسا يضىء طريق النجاة ، وهديا يحرر العقول ، ومنهاجاً يقيم الشريعة ، وبيانا ينطق بالحق وبالحجة .

وهذا الحديث مثال من جوامع كلمه ، وما أكثرها !(١) . وهى قائمة على القول الحكيم ، أو التشبيه البليغ ، أو الاستعارة البارعة ، أو المثل الرائع .

وفى هذا الحديث أوثر تقديم المسند (الخبر)، لأن فيه امتداداً يشوق إلى المسند إليه (المبتدأ) . كما اختيرت (ما) الموصولة ، لإفادة التعميم ، إذ يقع الترك على كل ما لا يعنى من قول ، وفعل ، وأمر ، وعلى كل ما يخل بالمروءة .

فكرة الحديث :

يدعو الحديث المرء المسلم إلى أن يترك مالا يعنيه ، وإلى أن يترك الفضول والتطفل ، إذ ينبغى ألا يجرى المسلم وراء العبث ، وألا ينفق وقته فيما لا طائل منه ، وألا يبذل جهده فيما لا نفع فيه ، وألا يشتغل بشئون غيره مالم يطلبوا منه ذاك .

وينبغى أن يكون اشتغال المسلم بشئونه هو ، وأن ينفق الوقت والجهد فيما يعود عليه منه نفع يرتضيه الشرع ، وأن يهتم بكل فضيلة ومحمدة ، وأن ينصرف عن كل رذيلة ومذمة ، وأن يتأدب بالكمالات ، ويباعد بينه وبين النقائص .

وينبغى أن يؤدى واجباته على خير مايكون عليه الأداء ، فإن بقى لديه وقت فراغ أنفقه فيما يعود على نفسه وعلى المجتمع بالخير ، فى العبادة والطاعة وشكر المولى ـ جل شأنه ـ على ما أنعم ، وفى توجيه من يملك توجيههم إلى سبل الحق والرشاد والفلاح .

---

(١) فى كتابنا (التعريف بالحديث الشريف) ص ٢٢ أمثلة كثيرة .

الإيضاح والبيان :

١ — من الأمور مايعنى المسلم ، ومنها ما لا يعنيه .

فما يعنيه منها : ما يتعلق بضروريات حياته فى معاشه كالشبع من جوع والرى من ظمأ وستر العورة وعفة البطن ونحو ذلك مما تدفع به الضرورة دون مافيه تلذذ وتنعم ، ثم مايتعلق بسلامته فى معاده من نحو الإخلاص ، ثم مايرجى منه حصول الثواب والأجر ولا يخاف فيه فوتهما ، وسائر مايعود عليه منه منفعة دينية أو منفعة دنيوية موصلة للآخرة .

وما لا يعنيه منها : على النقيض من ذلك كله ، أى مالا يتعلق بضرورات الحياة ، ثم مالا يتعلق بالسلامة فى المعاد ، ثم ما يخاف فيه فوت الثواب والأجر فلا يرجى منه حصولهما ، وسائر مالا يعود عليه منه منفعة دينية أو منفعة دنيوية موصلة للآخرة .

٢ — فماذا يفعل المسلم من هذه الأمور ؟ وماذا يدع ؟

من الواضح أن المسلم مدعو إلى فعل مايعنيه ، وإلى ترك مالا يعنيه .

ومن القبيح - وربما كان من الخطأ - أن يترك المسلم مايعنيه ، وأن يشغل نفسه بما لا يعنيه .

ولا يدور الأمر فى هذا أو ذاك على رغبة ذاتية أو نظرة شخصية ، وإنما يدور مع أحكام الشريعة وتكاليفها وإرشاداتها ، فالمسلم يعنيه مايعنى الشارع ولا يعنيه مالا يعنى الشارع . وإذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم قد أسند الفعل إلى المرء المسلم فإنه راعى التحدث عن المسلم الكامل الذى سلم له إسلامه فجاءت صورة إسلامه متفقة مع حقيقة هذا الإسلام عنده .

٣ — إن المسلم الذى يشغل نفسه بما يعنيه ويترك ما لا يعنيه يرى فى

نفسه الطمأنينة والرضا، لأنه يعنى بالطاعة والعبادة ومراقبة الله - تعالى - ويعنى بأن يأتمر بأمر الشرع وينتهى عما نهى عنه.

وهذا المسلم يرى الناس فيه الكمال، ويثقون فيه، ويطيب لهم كما طاب لنفسه، فإنه يصدقهم ولا يكذبهم، ويفى لهم ولا يخونهم، ويحبهم ولا يكرههم، ويحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم مايكرهه لنفسه ويبغى الخير لهم وينفى الشر عنهم ... الخ.

والمسلم الذى يترك مالا يعنيه تجتمع له محاسن الأخلاق، من الصلاح والحياء، والشجاعة، والوفاء، والحلم، والعفة، والإنصاف. وتبرأ نفسه من سوءات الطباع، من مثل الخطأ، والزلل، والعجلة، والفضول، والحقد، والنفاق.

وكفى من يشغل نفسه بما لا يعنيه أنه يضيع وقته فيما لا يحصل ثوابا وأجراً، وأنه يوجد مجالا للمؤاخذة فى الدنيا والآخرة، وأنه يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير، وأنه يتبع نفسه هواها. والعاقل هو الذى(١) يراقب نفسه عندما يهم بالفعل أو يسعى بالجارحة، فيتوقف عن الهم والسعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله - تعالى - فيمضيه، أو أنه هوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به. فإن الخطرة الأولى فى الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهم، والهم يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت، فينبغى أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر، فإن جميع ماوراءه يتبعه. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه: لا يخاف فى الله لومة لائم، ولا يرائى بشىء من عمله وإذا عرض

(١) الغزالى: إحياء علوم الدين - كتاب المراقبة والمحاسبة.

له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا، وقال الحسن — رضى الله عنه — . (رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر).

٤ — وجعل الحديث ترك ما لا يعنى من الاســـلام — دون غيره كالإيمان وكالإحسان — لأن الإسلام يظهر للناس دون غيره، فهو يتأتى بظاهر الأعمال والتكاليف، ولهذا يصح أن يرى فيه فعل وترك.

وقد يقال: إن الحديث جعل ترك ما لا يعنى من إسلام المرء خاصة وليس من الإسلام كدين. ولا نجد بين الأمرين تناقضا، فاسلام المرء خاصة مثال تطبيق الإسلام كله. وربما كان من المفيد أن نستعين بالعبارة المشهورة: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) فى تقرير أن الناس يتفاوتون فى حساب النزاهة والسلامة والنقاء والخلوص من الشوائب، فهم يقدرون مالا يعنيهم بمقدار ماتتسلط عليهم ضمائرهم، وبمقدار مايملكون من طاقات الاستبصار والإرادة والعزيمة.

وجعل الحديث ترك مالا يعنى من حسن إسلام المرء، فإذا اعتبرنا «من» للتبعيض كان ترك ما لا يعنى بعضا من حسن الإسلام، أما بعضه الآخر فهو فعل ما يعنى.

وإن اعتبرنا «من» للبيان كان حسن الإسلام هو ترك ما لا يعنى، وفى تسليط الترك — وهو سلب — على النفى ما يستلزم تسليط نقيض الترك - وهو الفعل - على ما يعنى، فالذى يترك ما لا يعنى يفعل ما يعنى لزوما.

٥ — وإن ترك مالايعنى صورة من صور مجاهدة النفس - ومجاهدة

النفس أول خطوة على الطريق إلى الله - فني ترك مالايعني إبعاد للنفس عن مسالك الانحراف ، وتخليص لها من الهوى ، واستنقاذ لها من الباطل ؛ حتى تسلك الصراط المستقيم ، وتستجيب إلى داعي العقل ، وتنصرف إلى الحق. فإذا نجح المسلم في قمع نفسه عن شهواتها وفي فطامها عن هواها وألزمها حدود الحق وحملها على الاستقامة كان قوياً ، و «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » .

ولانظن الوصول إلى هذه الصورة ميسورا لكل امرىء ، فإن مجاهدة النفس أمر شاق ، وضبط الميول والنزعات شديد وصعب ، إلا على من صبر على المراجعة ، ودرب نفسه على السلوك الأمثل ، وبالرياضة والمعالجة يهون كل شاق ، ويتيسر كل صعب .

٦ — وإن ترك مالايعني يتضمن طرح كل مالايهم المرء المسلم من قول وفعل وأمر ، وعدم الاتيان به ، وترك الاعتناء به .

وفي التحدث بما لايعني : روى أن النبي — صلى الله عليه وسلم — فقد كعباً ، فسأل عنه ، فقيل له : إنه مريض، فذهب يعوده ، فلما دخل عليه قال « أبشر يا كعب » . فقالت أمه : هنيئاً لك الجنة يا كعب : فقال الرسول : « من هذه المتألية على الله »؟ قال كعب: إنها أمي يارسول الله . فقال الرسول: « وما يدريك - يا أم كعب - لعل كعباً قال مالا يعنيه ، أومنع مالايغنيه ». وهذه المقالة من الرسول - صلى الله عليه وسلم - تباعد بين الجنة ومن يقول مالايعنيه ، أو من يمنع مالا يغنيه ؛ لأن هذا القائل وهذا المانع يحاسبان ؛ وإنما تتهيأ الجنة لمن لايحاسب .

وحد الكلام فيما لايعنيك(١) أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم

---

(١) إحياء علوم الدين — كتاب آفات اللسان .

تستضر به فى حال ولا مآل ، ومثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك ومشاهداتك ، ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لايعنيك ، فإنك بالسؤال تضيع وقتك وتلجىء صاحبك بالجواب إلى التضييع . ولتعلم أن فى أكثر الأسئلة آفات ، فلو سألت مثلا (هل أنت صائم ؟) فإن أجابك بالإيجاب كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء ، فإن لم يدخل عليه الرياء سقطت عبادته من ديوان السر وعبادة السر أفضل ، وإن أجابك بالسلب كان كاذبا ، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به ، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب ؛ وكذا السؤال عن المعاصى وعن كل ما يخفيه المسئول ويستحي منه وعما حدث به غيرك .

٧ — ومنذ القديم جاءت العظة بترك مالا يعنى .

ففى صحف إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — : على العاقل — مالم يكن مغلوباً على عقله — أن يكون بصيراً لزمانه ، مقبلا على شانه ، حافظاً للسانه ، ومن حسب الكلام من عمله يوشك أن يقل الكلام إلا فيما يعنيه .

وسئل لقمان الحكيم : أى عملك أوثق فى نفسك ؟ فقال : ترك مالا يعنيني .

وفى حديث الرسول - ﷺ - : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله » .

وقال بعض السلف : من اشتغل بمالا يعنيه ضيع مالا يرضيه .

وقال الحسن : من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لايعنيه .

وقال مالك بن دينار : إذا رأيت قساوة فى قلبك ، ووهنا فى بدنك ، وحرمانا فى رزقك ، فاعلم أنك تكلمت بما لا يعنيك .

وقال الإمام الشافعى : ثلاثة تزيد فى العقل : مجالسة العلماء ، ومجالسة الصالحين ، وترك الكلام فيما لا يعنى . وقال أيضاً : من أراد أن ينور الله قلبه فليترك الكلام فيما لا يعنيه .

وقال أوس بن حجر :

إذا كنت لم تعرض عن الجهل والخنا
أصبت حليما أو أصابك جاهل

الحديث الثالث عشر

أحب لأخيك ما تحب لنفسك

عن أبي حمزة أنس بن مالك — رضي الله تعالى عنه — خادم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — قال: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

رواه البخاري ومسلم.

راوي الحديث:

أنس بن مالك بن النضر من بني عدي بن النجار من الخزرج. وأمه أم سليم بنت ملحان (وتسمى سهلة أو رميلة)، تزوجت مالكا فولدت له أنسا، وبعد مقتل زوجها خطبها أبو طلحة قبل أن يسلم، فقالت له: إني فيك راغبة وما مثلك يرد، ولكنك كافر وأنا مسلمة، فإن تسلم فهذا مهري لا أسألك غيره، فأسلم، وتزوجها.

عندما قدم الرسول - ﷺ - المدينة ذهبت إليه أم سليم بابنها أنس - وسنه حوالي تسع سنوات - واستأذنت أن يقبله الرسول خادما له. فقبله، وأقام في خدمته حوالي تسع سنوات حتى توفي الرسول، وصارت هذه الخدمة مثالا لما ينبغي أن تكون عليه الصلة بين المخدوم والخادم، حدث عنها أنس أكثر من حديث، فكان مما قاله: (خدمت الرسول - صلى الله عليه وسلم - فما سبني قط، وما ضربني، ولا انتهرني، ولا عبس في وجهي، ولا أمرني بأمر فتوانيت فعاتبني عليه، فإن عاتبني أحد قال: دعوه فلو قدر الله شيئا كان). وقال أنس أيضاً: (خدمت الرسول - ﷺ - فما قال لي لشيء فعلته: لم فعلته؟، ولا لشيء تركته: لم تركته؟).

وكثيرا ما كان الرسول الكريم يوجه إليه النصح بما يصلح معاشه ومعاده ، ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - له وهو يصب الماء على يديه : « ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها » قال : أنس : بلى . بأبى وأمى أنت يارسول الله ! قال الرسول : « متى لقيت من أمتى أحداً فسلم عليه يطل عمرك ، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين والأبرار » ، ومن نصائحه - صلى الله عليه وسلم - لأنس : « يابنى ، إن قدرت أن تصبح وتمسى ليس فى قلبك غش لأحد فافعل » .

كناه الرسول (أباحمزة) باسم بقلة كان مولعاً باجتنائها(١) .

خرج أنس مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة بدر ، ولكنه لم يعد من البدريين ، لأنه كان فى سن من لايقاتل ، وغزا بعدها مع الرسول ثمانى غزوات ، وشهد بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - الفتوح الإسلامية فى عهد الخلافة الراشدة .

وحظى أنس بهذه الدعوة من الرسول : (اللهم أكثر ولده ، وماله ، وأطل عمره ، واغفر ذنبه - وفى بعض الروايات بدلا من هذه - وأدخله الجنة) .

قال أنس :(لقد رزقت من صلبى سوى ولد ولدى خمسة وعشرين ومائة ولد(٢) ، وإن بستانى ليثمر فى السنة مرتين ، وفيه ريحان يجىء منه كريح

---

(١) والحمزة بقلة فيها حموضة ، ويسميها أهل الريف (الرجلة) ، ويقال حمز الشراب اللسان لذعه ، وشراب حامز لاذع ، ولبن حامز قارص . ومن ناحية أخرى يسمى الأسد حمزة ، من الحمازة وهى الشدة والمتانة .

(٢) منهم ابنتان ، وتوفى أنس عن سبعة وعشرين ولداً كما يفهم من حديث له يقول فيه : (دفنت من صلبى مائة إلا اثنين) .

المسك ، ولقد بقيت حتى سئمت الحياة ، وأنا أرجو الرابعة)؛ يقصد غفران الذنب أو دخول الجنة .

عاش أنس - رضى الله عنه - مصلياً قائماً قانتاً قارئاً للقرآن الكريم ، وكان كلما ختم القرآن جمع ولده وأهل بيته وجعل يدعو لهم .

وأقام أنس فى المدينة ، ثم انتقل إلى البصرة ، وبنى له قصراً على مسافة فرسخين[1] منها ، وفى هذا القصر دفن عند وفاته سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على أرجح الأقوال . وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة[2] .

وروى له ٢٢٨٦ حديث.

شذور لغوية :

يؤمن : من الإيمان ، والإيمان فى الأصل مطلق التصديق ، وخص فى الشرع بتصديق النبى - صلى الله عليه وسلم - تصديق إذعان وقبول فى كل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة .

أحدكم : بمعنى الواحد منكم ، ووقوعه بعد النفى قد يعين أنه للعموم ، وتشهد له رواية : «لا يؤمن أحد» بدون الإضافة ، ورواية «لا يؤمن عبد» . وضمير الخطاب فى (أحدكم) لأمة الإجابة .

حتى : حرف يأتى لمعنى من ثلاثة معان : الأول انتهاء الغاية وهو الغالب كقوله تعالى : «قالوا : لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى» . والثانى التعليل كقولك لمن تعرض عليه الإسلام : أسلم حتى تدخل

---

(١) الفرسخ ثلاثة أميال أو خمسة كيلو مترات إلا قليلا .

(٢) وآخرهم موتا على الإطلاق عامر بن واثلة .

الجنة . والثالث الاستثناء ومثاله فى الأظهر قول المقنع الكندى :

ليس العطاء من الفضول سماحة
حتى تجـــود ومالديك قليل

أى تنتفى عنك السماحة فى حال الغنى إلا أن تجود فى حال القلة ، ومن التكلف اعتبار الغاية أو التعليل فى هذا البيت .

يحب : مضارع أحب ، ومجرده حب (من باب ضرب) ولـكنه قليل الاستعمال فى الفصيح . وقد استعملوا اسم المفعول من المجرد كثيرا فقالوا (محبوب) واسم الفاعل من المزيد كثيرا فقالوا (محب) . والحب الوداد.

وقال الغزالى :(١) الحب ميل الطبع إلى الشيء اللاذ فإن تأكد وقوى سمى عشقا ، ولا يتصور الحب إلا بعد معرفة وإدراك إذ لايحب الإنسان إلا مايعرفه ، وكل مافى إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وكل لذيذ محبوب عند المتلذذ به ، ومعنى كونه محبوبا أن فى الطبع ميلا إليه .ولكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولـكل منها لذة فى بعض المدركات ، وللطبع السليم بسبب تلك اللذة ميل إليها ، فلذة العين فى المبصرات الجميلة والصور المليحة ، ولذة الاذن فى النغمات الموزونة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، ولذة الذوق فى الطعوم ، ولذة اللمس فى الليونة والنعومة ، وهذه اللذات تشارك البهـائم فيها الانسان ، ويتميز الانسان بالحس السادس الذى يدرك المعانى ويلتذها ويحبها .

---

(١) إحياء علوم الدين ـ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا .

أخيه : الأخ أصله أخو (وزان سبب) تحذف لامه فى المفرد، والأكثر أن تبقى فيه عند الإضافة لغير ياء المتكلم ، فتكون واوا مضموما ماقبلها فى الرفع ، وألفاً فى النصب ، وياء مكسوراً ماقبلها فى الجر (وهكذا سائر الأسماء الستة) وقد تعود اللام فى التثنية والجمع ، وأكثر مايجمع الأخ من النسب على إخوة ومن الصداقة على إخوان .

وفى الحديث (لأخيه) بإضافة المفرد وهى إضافة تفيد العموم ، أى لكل أخ له ، فى الاسلام أو فى الانسانية على مايأتى :

نفسه : تطلق النفس على عدة معان، منها: الشخص ، والذات ، والروح، والدم ، والعين ، وعين الشيء ، والغيب ، والعقوبة . ومن استعمالها بمعنى الذات الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ،فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى » ، وبمعنى الروح قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة » ، وبمعنى الدم قول الفقهاء : كل شيء ليست له نفس سائلة لاينجس الماء ، وبمعنى العين قول العامة : أصابته نفس (والعامة تكسر النون) وبمعنى عين الشيء قولك : جاءنى بنفسه ، وبمعنى الغيب قوله تعالى : « تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب» .قال ابن الأنبارى: معناه تعلم غيبي ولا أعلم غيبك ، ويشهد له قوله تعالى فى آخر الآية : « إنك أنت علام الغيوب » — وأقول : الغيب هو مافى النفس وليس النفس . ومن استعمالها بمعنى العقوبة قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » أى عقوبته . والله أعلم .

والأظهر فى الحديث: «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه» أى مايحب لشخصه أو لذاته .

مسائل نحوية :

حتى يحب : الفعل منصوب بعد حتى ، وهى لانتهاء الغاية أو الاستثناء، والتقدير : لايؤمن أحدكم الإيمان الكامل إلى أن يتخلق بهذه الصفة وهى أن يحب لأخيه مثل الذى يحبه لنفسه ، أو إلا أن يحب لأخيه مثل الذى يحبه لنفسه .

ولا يجوز رفع الفعل (يحب) ؛ لأن النحاة شرطوا للرفع : أن يكون الفعل حالا أومؤولا بالحال ، وأن يكون مسببا عما قبله ، وأن يكون فضلة. وحبك لأخيك ماتحبه لنفسك ليس مسببا عن عـــدم الإيمان وليس عدم الإيمان سببا فى هذا الحب . ولا يجوز عطف الفعل على ماقبله ، لأنه لم يقصد نفى الحب ولا استبعاده .

أسرار بلاغية :

لايؤمن أحدكم . . . أى لايكون إيمانه كاملا ،وذلك لأن الإيمان يتحقق بما نص عليه الرسول ﷺ بقوله : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »(١) . وليس منها - كما ترى - أن يحب المرء لأخيه مايحب لنفسه ، إذ ليس هذا الحب جزءا من أجزاء الإيمان بحيث يختل الإيمان إذا عدم هذا الحب ، فوجود هذا الحب ليس أساسا فى وجود الايمان،وعدم هذا الحب لاينافى أصل الايمان .وشاع عن العرب نفى اسم الشىء على معنى نفى الكمال عنه كقولهم : فلان ليس بانسان لايريدون نفى الإنسية عنه ، وإلا وقعوا فى تناقض بين ذاك وتصريحهم باسمه ، وإنما أرادوا نفى الكمال فى إنسانيته .

---

(١) من الحديث الثانى . وشرحناه فى ص (٣١)

ولا يستلزم نفي كمال الإيمان أن يعتبر من تخلق بهذه الخصلة - وهي حبه لأخيه ما يحب لنفسه - مؤمنا كاملا وإن لم يأت بأسس الإيمان المنصوص عليها، فلقد سيق الحديث على المبالغة في تصوير حب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه في صورة واحد من أسس الإيمان، لحمله على الامتثال والطاعة.

فكرة الحديث :

يضع الرسول - ﷺ - المسلم أمام واجبه الانساني، وإذ يزين له محبة الخير للناس، ويجعلها كمالا في إيمانه، وينفي الايمان الكامل عمن لا يحب لأخيه مثلما يحب لنفسه. فالمسلم يجب أن يضع نفسه والناس على درجة سواء، يحب لهم الخير كما يحبه لنفسه، ولا يستأثر بالخير دونهم، ولا يكره وصوله إليهم وإذا اقتضى الأمر أن يجاهد نفسه فحبذا هذه المجاهدة، في سبيل تحقيق الكمال في الإيمان، وفي سبيل استدامة المودة والألفة، وفي سبيل التماسك الاجتماعي، وفي سبيل استئصال الأثرة والأنانية وحب الذات.

الإيضاح والبيان :

١ - رواية الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ». وقد روى الحديث بعدة روايات. نذكرها لأن لها أكثر من دلالة فيما نحن بصدده من التعرف إلى أبعاد الحديث ومراميه. قال الرسول - ﷺ - :

• « لا يؤمن أحد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

• « لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

• « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ».

• « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير »

ہ « لايؤمن عبد حتى يحب لأخيه ولجاره مايحب لنفسه »

ہ « والذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه - أو لجاره - مايحب لنفسه »

ہ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد بن أسد القرشى: «أتحب الجنة؟» قال: نعم. قال الرسول: « فأحب لأخيك كما تحب لنفسك ».

ہ « انظر أحب ماتحب أن يأتيه الناس إليك فأته إليهم ».

ہ « أحب لأخيك ماتحب لنفسك. واكره له ماتكره لنفسك »

٢ — ومجموع هذا الأحاديث يتضمن نفى كمال الإيمان عن العبد إلى أن - أو إلا أن - يحب لأخيه مايحبه لنفسه. فنحن أمام قضية تمس عدة مسائل:

الأولى - ماذا يحب المرء لنفسه ؟

الثانية - من أخوه؟

الثالثة - كيف يحب المرء لأخيه مايحب لنفسه ؟

الرابعة - ماوجه تعليق الإيمان على هذا الحب ؟

ونستعين بالله - جل شأنه - على إيضاحها والإجابة عليها.

٣ — ماذا يحب المرء لنفسه؟

إنه يحب لها كل ماتميل إليه وكل مايلذها ويرضى رغباتها . ولكننا فى مقام يوصلنا إلى كمال الايمان فلا ينبغى أن نتسع فى القول بما يحبه المرء لنفسه، ولا ينبغى أن نطلق العنان للنزوات والأهواء. وإذن ينبغى أن نديرالسؤال بطريقة أخص فنقول: ماذا يجب أن يحب المرء لنفسه ؟

يجب أن يحب المرء لنفسه الخير ، والخير اسم جامـــع للطاعات والمباحات الدنيوية ؛ حسية كانت كالغنى ، واليسار ، والولد — أو معنوية كالعلم ، والصحة ، والتوفيق ، ونقاء العرض ، ونجابة ، الولد والسعادة ، وسلامة اليقين . ورضوان الله

وهذه المحبة تأتى من جهة العقل وإن كانت على خلاف الطبع ، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر منه ، ويميل إليه بعقله فيرضى تعاطيه لما يعلم أن فيه صلاحه .

٤ — هذا الذى يحبه المرء لنفسه يحبه لأخيه . والأخوة التى تجمعهما هى أخوة الإنسانية ، فالأخ هو كل أخ أى كل إنسان ؛ مسلما كان أو غير مسلم — ووصف الأخ بالمسلم فى احدى الروايات تقرير للأمر الغالب — فالمسلم يحب لأخيه المسلم مايحبه لنفسه . والمسلم يحب لأخيه غير المسلم اعتناق الإسلام أو الموت على الإسلام ؛ ولهذا استحب أن يدعو له كما يدعو للمسلم ولنفسه ـ بالهداية والرشاد .

وفى بعض الروايات ذكر الجار مع الأخ — مرة على سبيل التردد من الراوى ، ومرة على سبيل القطع ـ وهذا من ذكر الخاص بعد العام ؛ للتنبيه على العناية بأمر الجار .

وللجار منزلة ممتازة فى الاسلام منذ قال الرسول ـ ﷺ ـ : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » وقال : « والله لايؤمن . والله لا يؤمن ، والله لايؤمن !!! » ، قيل : من يارسول الله ؟ . قال : « الذى لايأمن جاره بوائقه » ؛ أى الذى لا يأمن جاره شروره وخصوماته ودواهيه .

٥ — وكيف يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ؟

إننا نطمئن إلى اعتبار التشبيه فى الجملة ؛ أى على المرء أن يحب لأخيه مثل الذى يحبه لنفسه . والحديث الذى يقول فيه الرسول — ﷺ — : « أحب لأخيك كما تحب لنفسك » يزيدنا اطمئناناً إلى اعتبار التشبيه، فالحب يتوجه إلى نظير الشىء ، ولا يتوجه إلى عين الشىء ؛ لأن توجهه إلى عين الشىء قد يعنى عقلا قيامه بمحلين ومن المحال قيام الشىء بمحلين ، وقد يعنى سلب الشىء عن محبه وانتقاله إلى الأخ وهذا متصور فى حالة واحدة هى حالة الإيثار ، وما أندر من يؤثرون على أنفسهم !

وإن المسلم يرتقى فى سلم المحبة حتى يحب الله — سبحانه وتعالى — فإذا أحب الله تخلق بأخلاقه ، وحاول أن يكتسب عدد الصفات التى هى صفات الله — جل شأنه — ومنها العلم ، والإحسان ، والبر ، والرحمة . ومن أحب الله أحب شريعته ، ومن شريعته أن يخلى المسلم نفسه من شواغل الشهوة ، وأن يتصدى للهوى وشيطانه ، وأن يحقق مثاله فى قول الرسول — ﷺ — : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم(١) كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ، وقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، وقوله : « المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه(٢) » .

---

(١) وفى رواية (وتعاطفهم) .

(٢) الضيعة : الحرفة . وفى الحديث تمثيل حال المؤمن فى مراقبة حال أخيه وعونه على حرفته بجمع ما يتبدد منها وصرف الشر عنه وعنها ، وتمثيل حاله فى حياطة أخيه فى مغيبه وصيانته والدفاع عنه .

والذى يحقق هذا المثال يستجيب لداعى البذل والسخاء والإيثار ، ويحب لأخيه مايحب لنفسه .

٦ — ماوجه تعليق الإيمان على هذا الحب ؟

عرفنا أن الإيمان يتحقق بالتصديق بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر والقدر خيره وشره . وليس من هذه المصدقات أن يحب المرء لأخيه مايحب لنفسه ، أى أن هذا الحب ليس جزءا من أجزاء الإيمان ، ولا يختل الإيمان بفقده .

والمحقق أن هذا الحب خصلة من خصال المؤمن ، فإن من يدخل الإيمان قلبه يكون أسرع إلى بذل الخير لأخيه ، ويكون أكثر استعداداً لأن يحب لأخيه مايحب لنفسه ، ويكون أقرب إلى أن يؤثر أخاه على نفسه .

ويرتبط هذا الحب بالإيمان ؛ لأنهما كليهما من أمور الباطن .

ويشكل هذا الحب وجها من وجوه حسن الخلق ، التى ينبغى أن يتصف بها المؤمن الكامل ، وما أكثر صفات الكمال التى يتصف بها المؤمن ، وما أكثر ماحدث القرآن الكريم والحديث الشريف عن هذه الكمالات .

٧ — فى القرآن الكريم ؛ فى مفتتح سورة « المؤمنين » يصف الله المؤمنين بالخشوع والخشية فى الصلاة ، وبالإعراض عن لغو الحديث والعمل ، وعما لايعنيهم من قول وفعل ، وعما تستوجب المروءة اطراحه ، ويصفهم بأنهم للزكاة فاعلون ، وبأنهم لفروجهم من الخنا حافظون ، وبأنهم يرعون الأمانات والعهود ، ويحافظون على الصلاة بأدائها فى أوقاتها وإقامة أركانها والتزام الاهتمام بها .

وفى مفتتح سورة الأنفال يصف الله — سبحانه وتعالى — المؤمنين بأنهم

إذا ذكر الله أصاب قلوبهم الوجل استعظاما لله وتهيبا من جلاله وعزته ، وبأنهم إذا استمعوا لآيات الله ازدادوا بها يقينا واطمئنانا وتصديقا ، وبأنهم يتوكلون على الله وحده ويفوضون أمورهم كلها إليه فلا يسألون غيره شيئا ، وبأنهم يقيمون الصلاة باستيفاء شروطها وأركانها ، وبأنهم ينفقون مما رزقهم الله زكاة وصدقة .

وفى سورة التوبة يصف الله المؤمنين بأنهم(١) على كلمة واحدة يتعاونون ويتناصرون(٢) ، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وبأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وبأنهم يطيعون الله ورسوله . ويصفهم الله بأنهم(٣) يبذلون أنفسهم وأموالهم للجهاد فى سبيل الله بذل الحريص على رضوان الله وجنته ، كما يبذل البائع سلعته واثقا من حصوله على ثمنها ممن يشتريها ، ويصفهم الله بأنهم(٤) التائبون من الشرك ، المتبرئون من النفاق ، العابدون الذين أخلصوا العبادة لله وحـــده ، الحامدون الذين يقومون بحق الله من الشكر على ما أنعم وتفضل ، السائحون فى العبادة بالصيام والامتناع عن الشهوات أو السائحون فى الأرض فى طلب العلم أو السائحون فى الأرض للغزو فى سبيل الله . ويصفهم بأنهم الراكعون الساجدون أى المصلون . وبأنهم الجامعون بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وبأنهم الحافظون لحـــدود الله العاملون بأحكامه وتكاليفه فى عباداتهم ومعاملاتهم وسائر شئونهم .

---

(١) الآية ٧١ « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.. » الآية.

(٢) وفى تناصر المؤمنين مستعينين بالله وعدم اتخاذهم من ليسوا على دينهم أولياء ونصراء :- تقرأ الآيات ٢٨ من آل عمران و٨١ من المائدة و ٢٢ من المجادلة .

(٣) الآية ١١١ « إن الله اشترى من المؤمنين .. » الآية .

(٤) الآية ١١٢ « التائبون العابدون الحامدون .. » الآية .

ويقول الله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون(١) » ؛ يصف الله المؤمنين بأنهم لم يلبسوا إيمانهم بظلم ؛ أى لم يخلطوه بشرك فى العقيدة أو العبادة كاتخاذ ولى من دون الله يدعى معه أو يدعى من دونه روى أنه لما نزلت هذه الآية عظمت على الصحابة وقالوا : يارسول الله ؛ فأينا لم يظلم نفسه - يقصدون أنه ما من أحد إلا أتى بعض المضار ، أو ترك بعض المنافع عن إهمال أو جهل ، أو ظلم الناس بما نقص من حقوقهم - قال الرسول الكريم - ﷺ - : ليس ذاك ؛ إنما هو الشرك ؛ ألم تسمعوا إلى ماقال لقمان لابنه وهو يعظه « يابنى ؛ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم(٢) » . ومن رأى الزمخشرى - فى تفسير الكشاف - أن المراد بالظلم فى آية « الأنعام » المعصية الموجبة للفسوق.

وفى سورة النور(٣) يؤدب الله المؤمنين والمؤمنات بكف النظر عما يحرم من عورات النـــاس (إلا لضرورة كحالات التطبيب والتمريض والإسعاف والإنقاذ)، ويؤدبهم بحفظ الفروج وبالعفة عن الخنا والفجور ، ويؤدب المؤمنات بخاصة بستر مواطن الزينة من أعضائهن (إلا ما جرى العرف بكشفه كالوجه والكفين والقدمين) ، وبأنه لايجوز إبداء هذه المواطن إلا للأزواج بحق الزوجية ، وإلا لذوى الرحم ومن إليهم ، وإلا للتابعين الذين استنفدوا مآربهم الشهوية ، وإلا للطفل الصغير مالم يبلغ أو مالم يدرك مسائل الجنس ، كل ذلك فى حدود اللياقة . فإن كان ذو الرحم أو غيره ممن تغلبهم شهواتهم حرم اطلاعه على مواطن الزينة ؛ إعفافا ، ودفعاً للفتن .

---

(١) سورة الأنعام - الآية ٨٢

(٢) سورة لقمان - الآية ١٣

(٣) الآيتان ٣٠ ، ٣١ « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » . « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ... » .

وفى ختام سورة الفرقان يصف الله عباده — عباد الرحمن — بالرفق واللين والسكينة والتواضع ، وبأنهم يغضون عن السفهاء ولا يبالون جهل الجاهلين ، وبأنهم يحيون الليل سجدا وقياما ، وبأنهم مع هذا يخافون الله ويبتهلون إليه فى صرف العذاب عنهم ، ويتجنبون كل فعل يؤدى بهم إلى عذاب جهنم ، وبأنهم معتدلون مقتصدون فيما ينفقون ؛ فلا يسرفون إسرافا ممقوتا ، ولا يقترون تقتيرا مرذولا ، وبأنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء فلا يدعون مع الله غيره ، وبأنهم مبرءون من العيوب والقبائح فهم لا يمارسون القتل ولا الزنا ، وبأنهم يعفون عن شهادة الزور لما فيها من مخادعة الحق وصرفه إلى غير أهله ، أو ينفرون من مجالس الخطيئة تنزها عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه ، وبأنهم يعرضون عن اللغو وما لا يعنيهم ويعرضون عن أهل اللغو فلا يخوضون معهم ، وبأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم حرصوا على الاستماع إليها ووعوها وفقهوها ؛ ولم يكونوا كالمنافقين يخرون عليها صما وعميانا ، وبأنهم حراص على أن تقر أعينهم بزوجاتهم وذرياتهم ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الزوجات والذريات على شاكلتهم من الصلاح والطاعة ، وبأنهم حراص على التقوى إلى آخر مداها حتى يبلغوا درجة الإمامة للمتقين ويكونوا لها قدوة ومثالا ، وبأنهم صبر ؛ فالصبر من طبائعهم ؛ صبروا على الطاعات وأدوها كما يجب أداؤها ، وصبروا على ما ابتلوا به من المشقات والشدائد ، وصبروا عن الشهوات فنهوا أنفسهم من اقترافها .

٨ — وفى الحديث الشريف يصف الرسول — ﷺ — المؤمنين بعدة أوصاف ، ترتد كلها إلى حسن الخلق ، ويؤدبهم بأدب النبوة .

يقول الرسول — ﷺ — : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ، ويقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » ، ويقول : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله

وماله والناس أجمعين » ، ويقول : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » . فالمؤمن يعرض عمله على الكتاب والسنة ويخالف هواه ويتبع ما جاء به النبى ، إذ ليس لأحد مع الله ولا مع رسوله أمر ولا هوى ، بل ينبغى أن يؤثر الله ورسوله بالطاعة وبالحب ، حتى حبه للناس يجب أن ينبع من حبه لله ، وعلى المؤمن أن يستديم إيمانه فلا يعود فى الكفر ولا يراوده العود فيه .

ويقول الرسول — ﷺ — : « المؤمن من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم » ، ويقول : « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » ، ويقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » ، « فليكرم جاره » ، « فلا يؤذ جاره » . فالمؤمن يجب أن يعمل على تماسك مجتمعه ؛ فهو مأمون الجانب ، لا يخشى منه الأذى والعدوان والإساءة ؛ فهو يرعى الناس ويحسن معاملتهم ، ويرعى الجار ويكرمه ويجنبه شروره . ويرعى الضيف ويقريه .

ويقول الرسول — ﷺ — : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى تحابوا . أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؛ أفشوا السلام بينكم » . ويقول : « المؤمن آلف مألوف . ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » . فالمؤمن يتوخى دائماً أسباب التودد والتواصل ، ويعمل على تقوية الرابطة بينه وبين الناس . وإشاعة الألفة ، وتنشيط البر .

ويقول الرسول — ﷺ — : المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك . واستعن بالله . ولا تعجز . وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا كان كذا . ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » . فالمؤمن القوى يواجه الحياة بشجاعة ورباطة جأش ، ولا يعرف اليأس سبيلا إلى قلبه .

وعوامل القوة فى المؤمن أربعة أشار إليها الحديث: (أولها) الحرص على النافع، وهو يدفع إلى تلبية داعى الدين والحق والواجب والوطن، وإلى الإسهام فى شئون المجتمع بما يرقى به، وإلى المنافسة فى أعمال البر، والأخذ بيد الإنسانية المعذبة. (وثانيها) الاستعانة بالله، وهى تقتضى استلهام الله، وطلب التوفيق منه، والتوكل عليه، واليقين بأن كل شىء بأمره، والعلم بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك (وثالثها) عدم العجز، وهو — أى عدم العجز — يثمر القوة، والعزم، والرغبة فى الثبات، والصبر الجميل، ويساعد على شحذ الذهن، وكد الخاطر، وفتق الحيلة، وإعمال الإرادة. (ورابعها) عدم التردد أو عدم الندم؛ فإن التردد أو الندم سبيل إلى السخط والوهن واليأس، ويجعل الإنسان يستقبل من أمره ما يستدبر، فيقف حيث هو، أو يرتد إلى الوراء وهو يقول: لو أنى فعلت كذا كان كذا؛ فييئس من رحمة الله، ويسخط على قدره، ويهن لما أصابه، ويفتح للشيطان مسالك ينفذ منها إلى قاع نفسه، فيفسد عليه أمره، ويسلمه إلى الخور، وربما إلى الكفر. وخير من هذا أن يؤمن بقدر الله ومشيئته(١).

ويقول الرسول — ﷺ —: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»، فالمؤمن فطن، يعتبر بالماضى، ويتخذ منه عبرة لمواجهة واقعه، وعظة ينتفع بها فى مستقبله، فالإسلام يأبى أن يعيش المسلم فى غفلة، لا يفيد من تجاريب الحياة(٢).

ويقول الرسول — ﷺ —: «لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه». قالوا: وكيف يذل نفسه؟. قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق».

---

(١) كتابنا (التعريف بالحديث الشريف) ص ١٠٢.
(٢) شرحنا هذا الحديث شرحا وسيطا فى كتابنا (فى رحاب الهدى النبوى) ص ٩٥.

فالرسول ينصح المؤمن بألا يكون سببا فى إذلال نفسه وجلب المهانة لها ؛ بما يرتكبه من حماقات تظهره بين الناس بمظهر المغرور أو التافه ، وذلك حين لا يعرف قدر نفسه فيكلفها ما لا تطيق ويحملها ما تنوء به ، ثم ينكشف أمره ، ويفتضح غروره ، ويعلم الناس تفاهته ، فيصاب بالخزى ؛ وهذا هو إذلاله لنفسه(١) .

ويقول الرسول — ﷺ — : «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» . فالمؤمن يجتهد فى أن يكون له فى كل عمل يعمله ما ينال به حسنة وثواباً وأجراً عند الله ، ويفرح لذلك أيما فرح ، ويسر له أيما سرور ؛ لأنه بهذا يدنو من رضوان الله . والمؤمن يجتهد فى أن يبتعد عن الأخطاء والذنوب والآثام ، فهو يفر منها ؛ فراراً من الهلاك والبوار ، وخوفا من الله وعذابه .

وهذا غيض من فيض من أدب النبوة .

(أ) والمؤمن الذى يتحلى بهذه الصفات ، ويتأدب بهذه الآداب ، ويتخلق بهذه الأخلاق ؛ يرتفع عن صغائر الحياة الدنيا ، ويرتقى بالسلوك البشرى ، فيتحرك حركة إيجابية لتنمية العلاقات الأخوية ، وإرسائها على المحبة ؛ المحبة الدينية ، لا المحبة البشرية .

وعلى هذا يتصور أن ينتزع المؤمن نفسه من قيود الحاجات الأرضية من نحو الأثرة والأنانية والحقد والحسد ، ويتصور أن يرضى المؤمن بأن يتساوى معه الناس فى الحصول على الخير ، بل إنه يتصور أن يرتفع المؤمن فوق هذه الدرجة بنزوله عن متطلبات ذاته ولذاته وإيثاره غيره بالخير ،

---

(١) كتابنا (التعريف بالحديث الشريف) ص ١٠٥ .

وبذله له من دون نفسه بالرغم من حاجته إليه ؛ « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون(١) » .

١ — ولعلك تذكر إحدى الروايات فى الحديث ، وهى مقالته — ﷺ — : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لنفسك » . فالمؤمن — وقد عرفناه بصفاته ونعوته وكمالاته — يبغض لأخيه مثل ما يبغضه لنفسه من الشر . وهذه المقالة صريحة فى هذا ، وإن كان — من دون التصريح به والنص عليه — مفهوماً من وصف المؤمن بأنه يحب لأخيه ما يحب لنفسه ؛ لأن حب الشىء يستلزم بغض نقيضه ، فترك النص عليه فى سائر الروايات من باب الاكتفاء بأحد الضدين ، ومثله قوله تعالى . « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر(٢) » ، أى سرابيل تقيكم الحر والبرد ، وقوله — ﷺ — فى الحديث الآتى : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث . . . » أى لا يحل دم امرئ مسلم وامرأة مسلمة إلا بإحدى ثلاث . والله أعلم .

---

(١) سورة الحشر — الآية ٩ .

(٢) سورة النحل — الآية ٨١ والسرابيل القمصان والثياب من الصوف والكتان والقطن وغيرها .

الحديث الرابع عشر

متى يحل دم المسلم؟

عن ابن مسعود — رضى الله تعالى عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ : « لا يحلُّ دمُ امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيبُ الزانى ، والنفسَ بالنفس ، والتاركُ لدينه المفارق للجماعة » — رواه البخارى ومسلم .

راوى الحديث :

هو الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود . وسبقت الترجمة له فى هـذا الجزء (انظر الحديث الرابع ص ٧٤) .

شذور لغوية :

يحل : بكسر الحاء مضارع حل — من باب جلس — ويأتى بمعنى : طاب ولم يحرم ، فتقول : حل لفلان السفر وحل له مطعمه وحلت له زوجه ، فهى له حلال (بفتح الحاء وبكسرها) وحل (بكسر الحاء) . وعبارة « لا يحل دم امرىء مسلم » فى الحديث بمعنى يحرم دمه . ويأتى هذا الفعل أيضا من باب جلس بمعان أخر كقولك : حل الدين حلولا صار حالا ، وحل الحق حلا وحلولا وجب ، وحل المحرم حلا خرج من إحرامه (ومثله أحل) ، وحل الهدى حلة وحلولا وصل الموضع الذى يحل نحره فيه ، وحلت اليمين برت .

دم : كلمة من حرفين لامها ياء تعود لدى التثنية جوازا ، فيقال : دمان

ودميان ، وقيل : لامها واو لأن بعض العرب يقول فى تثنيتها دموان ، وتجمع على دماء بقلب اللام همزة لتطرفها إثر ألف مزيدة ، ووزنها فعل باسكان العين ، وقيل بتحريكها ، وفى جمعها دليل قياسى لسكون عينها لا لتحريكها .

امرىء : (هنا) بمعنى إنسان ، ويعم الذكر والأنثى حسب الاستنباط الفقهى ، على ما جرى عليه التشريع من الاكتفاء بذكر الرجل لغلبة دوران الأحكام عليه .

مسلم : متصف بالإسلام . والإسلام الانقياد والإذعان والدخول فى السلم ، فالمسلم منقاد لدين الإسلام مذعن له داخل فيه . (وانظر أركان الاسلام فى الحديث الثانى والحديث الثالث) .

إحدى ثلاث : أى إحدى ثلاث خصال — أو جرائم أو جنايات — ويرشح الخصلة أو الجريمة أو الجناية معدودا : تأنيث العدد الأول (إحدى) وتذكير العدد التالى (ثلاث) ، وإحدى توافق معدودها المؤنث فى التأنيث ، وثلاث تخالف معدودها فى تأنيثه وفى تذكيره إذا تقدمته . وإحدى اسم لمفتتح العدد (ومثلها أحد) وأصل همزتهما الواو أبدلت همزة، وقد نجد هذه الواو فى مفردات المادة مثل : واحد ، والوحدة ، وجاءوا أحاد وموحد ، وفلان واحد قومه وأوحدهم ، وتوحيد الله ، ولله الوحدانية ، وفلان نسيج وحده أى لا نظير له . وثلاث : بوزن سحاب اسم لثالث العدد .

الثيب : بوزن فيعل — مثل سيد — اسم الفاعل من ثاب بمعنى رجع ؛ فعينه واو التقت بالياء الزائدة فقلبت ياء وأدغما . وأصل الثيب المتزوج ، ويستوى إطلاقه على الذكر والأنثى كإطلاق الأيم والبكر عليهما .

الزانى : الفاجر . وفعله زنى يزنى زنى وزناء وزنا . فهذا مقصور من الممدود ، ويرى الفراء أن المقصور من الثلاثى ، والممدود من زانى ، وكلاهما بمعنى .

النفس : بإسكان الوسط — اسم لجملة الحيوان ، ويراد بها الشخص فتذكر ، أو الروح فتؤنث كقوله تعالى : (خلقكم من نفس واحدة) .. وتطلق مجازاً على الدم ، وعلى الجسد ، وعلى العين (وانظر لغويات الحديث السابق) .

المفارق : اسم الفاعل من فارق بمعنى ترك ؛ وأصله فى المحسوس ويستعار فى المعانى ، وشأنه فى ذلك كشأن (ترك) على ما يأتى فى الأسرار البلاغية .

الجماعة : الجمع ، ويطلق على القليل وعلى الكثير ، ويراد به جماعة المسلمين . .

مسائل نحوية :

(لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث) : جملة استثناء مفرغ . والباء بعد أداة الاستثناء للسببية فتتعلق بالفعل « يحل » ، أو الملابسة فتتعلق بمحذوف يقع حالا من (الدم) أو من (امرىء) ، ويقدر الكلام : لا يحل دم امرىء مسلم إلا دمه - أو إلا امرأ مسلما - متلبسا بفعل إحدى ثلاث . وفى القول بالملابسة تكلف .

الثيب : المشهور رفعه ، ويجوز جره ، ويجوز نصبه ، ويرشح الرفع والجر رواية (الثيب الزان) بحذف الياء اكتفاء عنهـا بالكسرة . وعلى الرفع يعرب الثيب مبتدأ محذوفا خبره ويقدر الكلام (بإحدى ثلاث منها الثيب) أو خبراً لمبتدأ محذوف ويقدر الكلام (بإحدى ثلاث هى الثيب) .

وعلى الخفض يعرب الثيب بدلا ، ولابد إذن من تقدير مضاف فيه وفيما بعده يتناسب مع كل خصلة ، فيقدر فى الأولى زنى الثيب الزانى ، وفى الثانية قتل النفس بالنفس ، وفى الثالثة ترك التارك لدينه ، لأن البدلية تستوجب التماثل فى النوع . وعلى النصب يقدر الثيب مفعولا لمحذوف تقديره أعنى . . .

التارك لدينه المفارق للجماعة : أصله التارك دينه المفارق الجماعة ، فيقع كل من دينه والجماعة مفعولا به لاسم الفاعل قبله ، وهو يعمل عمل فعله (ترك وفارق) وكلاهما يتعدى بنفسه . واللام مزيدة لتأكيد المعنى .

أسرار بلاغية :

لايحل دم امرىء : المراد بالحل الجواز ، ونفى الحل يعنى نفى الجواز . ويرى بعض الفقهاء أن المراد بالحل الوجوب ، ونفيه يعنى نفى الوجوب . والقائلون بأن المعنى : لايجوز سفك الدم إلا بإحدى الثلاث لايمنعون وجوب القتل بإحدى هذه الثلاث أو ببعضها لأن الجائز يصدق بالواجب ، فإن الوجوب يتحقق فى قتل الثيب الزانى وقتل المرتد ، وليس بمتحقق حتما فى قتل النفس بالنفس . وتنشأ هـــذه التفرقة من النظر إلى من يناط به حق القتل فهو الإمام فى الأولين وهو ولى الدم فى الثالث . وتبدو نتيجة هذه التفرقة فيما لو قام أحد من المسلمين من غير من أنيط به حق القتل فقتل هؤلاء ، فلا قصاص على قاتل الأولين فى الأظهر ، ويلزمه القصاص فى المسألة الثالثة .

وفى قوله : (دم امرىء) : مجاز بالحذف على ما قدرناه : لايحل سفك الدم . واستدعى هذا التقدير أن الدم عين ، ولا يتعلق بالعين تحليل ولاتحريم ، وإنما يتعلقان بأفعال المكلفين كقوله تعالى: (حرمت عليكم الميتة) أى تناولها:

وقوله : (حرمت عليكم أمهاتكم) أى نكاحهن . والقول بسفك الدم كناية عن إزهاق الروح بأى من الوسائل ولو لم تحدث إراقة الدم كما فى الخنق والسم، أو يعتبر هكذا بالنظر إلى أنه الغالب فى القتل .

امرىء مسلم : هذا الوصف بالمسلم لتهويل الأمر والإشعار بأن إراقة الدم من الخطر بمكان وأن جنايتها من الشناعة بحيث تستوجب إزهاق روح المسلم .

وجملة : (لايحل . . . إلا بثلاث) فيها حصر : حصرنا حل الدم (وهو صفة) فى واحدة من الثلاث (موصوف) . والحصر إضافى لأن القتل قد يقع على غير هذه الثلاث لدى قطع الطريق ، والصيال مع البغى : والمجاهرة بالعصيان مع الامتناع من إظهار الفرائض . ويرى بعض المحققين أن الحصر حقيقى ناظراً إلى أن عبارة (التارك لدينه المفارق للجماعة) تشمل من يترك دينه كلا وهو المرتد ، أو بعضا وهو الزانى والقاتل وقاطع الطريق والصائل الباغى . . . إلخ ، ويشمل المفارق للجماعة من يفارقهم بكفره أو فسقه أو خروجه على الإمام .

فكرة الحديث :

الأصل فى الشريعة عصمة الدماء ، فلا تهدر إلا بخروج أصحابها عن مقتضى الدين ، بما يحدثون من جنايات تحل دماءهم . وإن سلامة الإنسان من أوجب ما يوجبه الإسلام ، وبها وردت الأوامر والعظات ، فمن أطاعها هدى وسلم ، ومن عصاها فهو مقترف للإثم والخطيئة . ومنحرف عن وجه الحق ، فوجب تأديبه وحسابه ، حماية للمجتمع من حماقته .

الإيضاح والبيان :

١ — فى الحديث روايات ، نذكر منها :

• (لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث . .) ـ رواه الشيخان ٠

• (لا يحل دم امرىء مسلم . . . والتارك للإسلام المفارق للجماعة) ـ رواية لمسلم .

• (لا يحل دم امرىء مسلم إلا من ثلاثة : إلا من زنى بعد ما أحصن ، أو كفر بعد ما أسلم ، أو قتل نفسا فيقتل بها) ـ رواه أحمد .

• (لا يحل قتل مسلم إلا فى إحدى ثلاث خصال : زان محصن فيرجم ، ورجل يقتل مسلما متعمدا ، ورجل يخرج من الإسلام فيحارب الله عز وجل ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض) — رواه النسائى . .

٢ — إن مجتمع المسلمين يجب أن يسلم من أذى أفراده وحماقاتهم ، وقد عصم الإسلام دم المسلم ؛ فلا يجوز لأحد أن يهدر هذه العصمة بارتكاب الكبيرة التى تستوجب عقابه وإهدار دمه . فالأنساب فى الإسلام مصونة فلا عدوان عليها بالزنا والفجور والفحش ، والنفوس فى الإسلام مصونة فلا عدوان عليها بالقتل وسفك الدماء ظلما وبغيا ، والدين فى الإسلام مصون فلا عدوان عليه بالردة عنه وفراق الجماعة . وهناك كبائر أخر غير هذه الكبائر الثلاث مثل القذف والسرقة والغصب وقطع الطريق وتعاطى الخمر ، وغيرها . فمن سولت له نفسه أن يقع فى إحدى هذه الجرائم فقد آذى المجتمع وأضر به . فاستوجب أن يوقع به العقاب الملائم لجريمته ، قطعا لدابر الفساد ، وصيانة للمجتمع ولأفراده .

٣ — وإن تقرير العقاب على الجريمة — قصاصا ، أو حداً — مبدأ عادل ، بالنظر إلى الجرائم الواقعة على الأفراد، وبالنظر إلى الجرائم الواقعة على المجتمع . ففيه — بالنظر إلى الجرائم الواقعة على الأفراد — امتصاص لما أصابهم من الحنق والمرارة ، وشفاء الغيظ في نفوسهم وميلهم للانتقام والتشفي . وفيه — بالنظر إلى الجرائم الواقعة على المجتمع — حماية لهذا المجتمع ، وصيانة له من التفكك والانفراط . وإعلان أن شواذ المجتمع لا مكان لهم فيه ما داموا قد أجرموا في حقه . فليراجع ضميره من تسول له نفسه أن يرتكب جرماً ، وقد علم أن سهمه القاتل مرتد إلى صدره ، ومصيب منه مقتلا ، وإذا قدر له أن يفيء لمنطق العقل والسلامة سلم هو وسلم الناس من شره .

٤ — ومن منطلق تشريع الحدود حماية للمجتمع يورد « ابن تيمية » في كتابه (السياسة الشرعية) : أن إقامة الحدود من العبادات كالجهاد في سبيل الله ، وأن إقامة الحدود رحمة من الله بعباده ، فعلى الوالي أن يكون شديداً في إقامة الحد ، لا تأخذه في دين الله رأفة منه ، وأن يكون قصده وهو يقيم الحد رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات ، فإنما مثله في هذا مثل الوالد يؤدب ولده ، ولو كف عن تأديبه لفسد ، فهو إنما يؤدبه رحمة به وإصلاحا لحاله ، مع أنه يوده ويؤثر ألا يحوجه إلى التأديب . ومثله مثل الطبيب الذي يسقي المريض الدواء الكريه ، أو يقطع منه العضو المتآكل ، فإذا شق عليه العلاج أول الأمر فإنما ليحقق له الراحة .

فانظر كيف جعل ابن تيمية إقامة الحدود عبادة ، والعبادة إنما تكون لله ، انصياعا وقربى وطاعة . وانظر كيف قرن إقامة الحدود بالجهاد في سبيل الله ، لما يشتركان فيه من مواجهة العدو ، ولا شك أن الجاني عدو للمجتمع الاسلامي ، فشأنه شأن المحارب الذي يهجم الثغور ، فوجب أن ينهض المجتمع لهذا العدو كما ينهض لذاك ، إذا صدقت الرغبة ـ ويجب أن تصدق استجابة لداعي

الدين — فى السلامة والأمن ، وفى الحماية من الانتقاض والانتقاص .
وانظر كيف شبه ابن تيمية إقامة ولى الأمر للحدود بفعل الوالد مع ولده وهو يؤدبه ، وصنيع الطبيب مع مريضه وهو يطبه ويعالجه ، إذ ليست العبرة بالوسيلة وإن شقت ، وإنما العبرة بالنتيجة المنشودة المرتضاة والمرتجاة .

٥ — ويذكر الإمام الغزالى — فى كتابه المستصفى — أن مقصود الشرع من الخلق خمسة : أن يحفظ عليهم : دينهم ، وأنفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، ومالهم . وكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة . وحفظ هذه الأصول واقع فى مرتبة الضرورة ، وهى أقوى المراتب فى المصالح ، ولهذا قضى الشارع بقتل الكافر ليحفظ على الخلق دينهم ، وقضى بإيجاب القصاص الذى به حفظ النفوس ، وأوجب حد الشرب ليحفظ العقول التى هى ملاك التكليف ، وأوجب حد الزنى ليحفظ الأنساب ، وأوجب زجر الغاصب والسارق ليحفظ الأموال التى بها معايش الناس(١) .

يجب إذن أن يقوم المجتمع على حفظ هذه المقاصد ، ليتحقق مقصود الشرع ، ولتصلح أحوال المجتمع ، ويجب اتخاذ الوسائل والأسباب لذلك ، ومنها حماية المجتمع من العدوان عليها ، ومن اعتدى عليها استوجب عقابه ، وليس ما يمنع أن يكون عقابه البتر ، ولئن بدا ضرره واقعا عليه إن استقامة المجتمع وصلاح أمره أولى بالرعاية وأحق بالاعتبار .

٦ — ومن المقرر شرعا أن إيقاع العقاب على الجانى يستلزم ثبوت جنايته وتوفر أركانها بالأدلة والبراهين المقررة . وفى كتب الفقه الإسلامى تفصيلات وتفريعات تلخص هــذا الأصل وتطبيقاته على الزنى والقتل والردة .

---

(١) المستصفى ١/٢٨٧ .

٧- والزانى الذى يحد بالرجم حتى الموت - وليس بغير الرجم - هو الزانى الثيب ، رجلا كان أو مرأة ، فاعلا كان أو مفعولا فيه .

ويتحقق الزنى بولوج عضو التناسل أو حشفته أو مقدارها فى عضو التناسل الآخر بحيث يكون مشتهى ولا يحل له ، وبحيث يخلو الأمر من شبهة الفاعل والمحل .

والثيب هو المحصن . وتتحقق الثيوبة - أو يتحقق الإحصان - بأن يكون الشخص حراً ، بالغاً ، عاقلا ، سبق أن تزوج زواجاً صحيحا ، ووقع له فى هذا الزواج الصحيح وطء فى قبل زوجه - رجلا كان أو امرأة - ولو مرة واحدة .

وثبتت عقوبة القتل بهذا الحديث ، وقد عرفت روايته بأ كثر من رواية ، وثبت الرجم بإحدى رواياته ، وبما صنعه الرسول - ﷺ - من رجم « ماعز » ورجم « الغامدية » حتى الموت ، وبما روى : « إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله . أنشدك الله إلا قضيت بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر وهو أفقه منه : نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى . فقال رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - : قل . قال : إن ابنى هذا كان عسيفا عند هذا فزنى بامرأته . وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم ، فافتديته منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم . فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وأنه على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله . الوليدة والغنم رد ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . واغد - يا أنيس - على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها . قال : فغدا عليها فاعترفت . فأمر رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - فرجمت » - نقله الشوكانى فى نيل الأوطار - الجزء السابع .

والزانى غير المحصن يجلد مائة جلدة ، ثم يغرب إلى مسافة القصر إن كان حراً . ويجلد الرقيق محصنا وغير محصن خمسين جلدة والمشهور من أقوال الفقهاء أنه لا يغرب . واقرأ آية النور الثانية : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) . واقرأ آية النساء الخامسة والعشرين عمن ملكت الأيمان من الفتيات: (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) . ولما كان الرجم لا يتنصف عدل به إلى العقوبة الأخرى التى تتنصف وهى الجلد .

ويعاقب اللائط - فى بعض الاجتهادات - بالرجم إن كان محصنا . وبالجلد إن كان غير محصن . وليس كذلك الملوط به فإنه يعزر .

٨ — إن الزنى من أكبر الكبائر . عده القرآن شركا : (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة . والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك . وحرم ذلك على المؤمنين) - النور ٣ - وسماه فاحشة : (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) - الاسراء ٣٢ - وجعله رديف الشرك والقتل الحرام إذ نفاها عن عباد الرحمن : (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون. ومن يفعل ذلك يلق أثاما) -الفرقان ٦٨

وفى الأثر ورد التحذير منه فإن فيه ست خصال : ثلاثا فى الدنيا وثلاثا فى الآخرة . فأما التى فى الدنيا فذهاب البهاء من الوجه ، وتوريث الفقر ، ونقص الرزق والعمر . وأما التى فى الآخرة فسخط الله وغضبه . وسوء الحساب ، وعذاب النار .

وفى الحديث : (لا يزنى الزانى وهو مؤمن) ؛ لأن الزانى لو كان فى حال الإيمان ما أقدم على جريمته واعتدى على العرض واستحل ما حرم الله . وإن إقامة علاقة غير مشروعة أمر غير مشروع ومجاوزة لأوامر الدين ونواهيه . وانحطاط بالشهوة إلى درك الحيوان السافل ، وهى التى يجب

ضبطها والاستملاء بها . وإذا صح أن هناك من الجنايات ما يعتذر منه فإن جناية الزانى لا سبيل إلى الاعتذار منها . وكيف يعتذر مما يشيع الفاحشة : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة) - النور ١٩ .

٩ — والقاتل الذى يحل دمه بالقصاص منه هو المسلم البالغ العاقل الذى يقتل عن عمد محض مسلما لغير حق من الحقوق ، ومن الفقهاء من اشترط ألا يكون القاتل أصلا للمقتول فلا يقتص من الوالد إذا قتل ولده ، ومنهم من قال بالقصاص من الوالد إذا أضجع ولده وذبحه أو بقر بطنه . ومن الفقهاء من اشترط ألا يكون المقتول أنقص من القاتل بكفر أو رق فلا يقتص من المسلم إذا قتل كافرا ولا يقتص من الحر إذا قتل عبدا ولكن تجب فيهما الدية ، ومنهم من أوجب القصاص من المسلم بقتل الذمى ، ومن الحر بقتل عبد مملوك لغيره . ومن الفقهاء من اعتبر التكافؤ بين القاتل والمقتول ، وبنى التفاضل على تقديم الإسلام على الحرية ، وهذا القول بالتكافؤ منظور فيه إلى حديث البخارى : (لا يقتل مسلم بكافر) وإلى قوله تعالى : (كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد) - البقرة ١٧٨ - وعند هؤلاء القائلين بالتكافؤ أن خبر : (من قتل عبده قتلناه) خبر منقطع(١) ، فهو ضعيف . وعلى ما اطمأنوا إليه يقتص من الأدنى بالأعلى - وليس العكس - فيقتل الكافر بعبد مسلم ولا يقتل عبد مسلم بحر كافر ، لأن الاسلام أعلى من الحرية ، ويقتص من الفرع بالأصل دون عكسه ، قالوا كتعليل : لأن الأصل سبب فى إيجاد فرعه . فلا يكون الفرع سببا لإعدام أصله .

---

(١) والمنقطع ما لم يتصل إسناده فى أى موضع . (راجع كتابنا : التعريف بالحديث الشريف ص ٤٦) .

١٠ - وهذا القتل العمد بغير حق . نهى القرآن عنه نهيا مباشرا ، فقال تعالى : (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) - الأنعام ١٥١ والاسراء ٣٣ - وبشع القرآن من ارتكابه وعده عدوانا على حق الناس جميعا فى الحياة : (كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) - المائدة ٣٢ - وجعل القرآن من صفات عباد الرحمن أنهم لا يقترفون القتل - انظر الفرقان ٦٨ - وأوجب القرآن القصاص فى القتلى - انظر البقرة ١٧٨ .

وفى الحديث : (اجتنبوا السبع الموبقات. قيل : وما هن يارسول الله ؟. قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات) .

وفى الحديث : (من هدم بنيان ربه فهو ملعون) ، وفسره المفسرون بأنه من قتل نفسا بغير حق ؛ لأن الجسم خلقه الله فى أحسن تقويم .

إن النفس البشرية معصومة ودمها معصوم ، ولايجوز لأحد كائنا من كان أن يهتك هذه العصمة ، ولا أن يشوه الصورة الإنسانية ، فإذا فعل ذلك فقد أهدر عصمته هو فى مقابل ما أزهقه من روح النفس المعصومة . وإلا يكن هذا العقاب فقد استشرى الفساد . وإن استقر أمر العقاب كان من المؤمل أن تبقى الحياة ؛ لأن القصاص من ورائه الحياة . قال تعالى : (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) - البقرة ١٧٩ .

١١ — والتارك لدينه المفارق للجماعة الذى يحل دمه بالقتل هو المسلم المرتد عن دين الإسلام . والأظهر أنه يتساوى فى اعتباره مرتدا : أن يترك دينه ، وأن يفارق جماعة المسلمين . فكل من هاتين الصفتين تؤدى ما تؤديه الصفة الأخرى دون ما حاجة إلى تضامهما . والردة بأن يقطع المسلم الإسلام

ويعتقد بما يوجب الكفر ،أو بأن يأتى ماظاهره الفعل المكفر كالسجود لصنم أو مخلوق سجود تقديس وتنزيه وتأليه ، أو القول المكفر مع اعتقاد أو عناد أو استهزاء .

ويستتاب المرتد قبل أن يقتـــل ، قيل : حالا ، وقيل : يمهل ثلاثة أيام ، وتكفى استتابته مرة واحدة ، وقيل : يستتاب ثلاث مرات ، وقيل : لا بأس من تكرارها أكثر من ثلاث، فإن تاب لم يقتل . ومن الفقهاء من لم يوجب الاستتابة لحديث الرسول : (من بدل دينه فاقتلوه) . ولكننا نرى الأخذ بالاستتابة من فعـــل الرسول — صلى الله عليه وسلم — مع الغانية المرتدة ، على الأقل لنتأكد من ردته عن الاسلام ، لا من ردته عن الردة .

على أن من تكررت ردته وتكررت توبته لايستتاب ، لقوله تعالى : (إن الذين آمنوا ، ثم كفروا ، ثم آمنـــوا ، ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفرا — لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم سبيلا) النساء ١٣٧ — فهؤلاء منافقون مردوا على النفاق فلا يتورعون أن ينافقوا بتوباتهم ،وهم يبطنون الكفر ، ويشاقون الله ورسوله ، والقرآن يتوعدهم بعدم المغفرة ، ويتهددهم بعدم الهدى ، فلا مجال إذن لاستقطابهم إلى حظيرة الإسلام .

١٢ — إن الحفاظ على الدين من مقصود الشرع كما أسلفنا . والمتدين مستبصر ، فهو أمين على نفسه ، وأمين على مجتمعه . ولاأمانة لمن يتداعون إلى حرية التدين ، وينكرون الدين كله أو بعضه ، ويلتوى بهم الفكر فيخرجون على الجماعة ، ويعتبرون ماهم فيه من الإلحاد من مقومات الحرية الشخصية . هؤلاء عميت أبصارهم وبصائرهم ، وفرق بين هذا الذى يتداعون إليه وبين وصفه بحرية الرأى ، فإن حرية الرأى شىء غير حرية التدين ، وحرية الرأى مكفولة فى الإسلام ، إذا فهمت على أنها إعمال الفكر والنظر ، وتدبر الأشياء ، وتقليـــب الأمور

على وجوهها ، بغية الاجتهاد وتجديد الرأى بما لا يتعارض مع الأصول المنزلة من السماء .

١٣ — وبين الجنايات الثلاث — الزنى والقتل والردة — مفارقات من عدة طرق :

(ا) لا يسقط قتل الزانى بحال ، ويسقط القتل عن القاتل بعفو ولى الدم ، ويسقط عن المرتد برجوعه إلى الاسلام .

(ب) تقبل توبة المرتد فى سقوط القتل عنه ، دون الزانى والقاتل ، لأنهما أجرما جريمة لا تتدارك .

(ح) يقتل الزانى بالرجم ولا يجوز قتله بغير الرجم ، ويقتل القاتل بمثل الأداة التى ارتكبها هو فى القتل - أو بها - إن أمكن وإلا فبالسيف ، ويقتل المرتد بضرب عنقه بالسيف .

(د) يصف الحديث الثلاثة بالاسلام ، وهو وصـــف بالحقيقة بالنظر إلى الزانى والقاتل ، والمجاز بالنظر إلى الثالث فى حال ردته .

(ه) توبة المرتد تزيل عنه صفة الكفر ، وتوبة الزانى والقاتل لا تزيل عنهما صفة الزنى وصفة القتل .

ونرجو أن يعصمنا الله من الزلل والخطأ ، ويباعد بيننا وبين الإثم والخطيئة ، ويهدينا سواء السبيل .

والحمد لله أولا وآخرا .

فهرس

الحديث	الصفحة

الإيداع بدار الكتب ٤٩٧٧ / ١٩٧٨